د. عبدالرزاق حسين

مهارات الاتصال اللغوي

العبيكان
Obeikan

جامعة الملك فهد للبترول والمعادن
عمادة البحث العلمي

Éléments sous droits d'auteur

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسين، عبدالرزاق

مهارات الاتصال اللغوي./ عبدالرزاق حسين.- الرياض، ١٤٣١هـ

٤٢٨ ص؛ ١٦,٥x٢٤ سم.

ردمك: ٨ - ٩٩٥ - ٥٤ - ٩٩٦٠ = ٩٧٨

١- اللغة العربية = النحو أ. العنوان

ديوي ٤١٥,١ ١٤٣١/١٩٩١

رقم الإيداع: ١٤٣١/١٩٩١

ردمك: ٨ - ٩٩٥ - ٥٤ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

صدر هذا الكتاب بدعم من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن تحت مشروع تأليف كتاب رقم AR070002 وضمن اتفاقية نشر خاصة بين شركة العبيكان للأبحاث والتطوير وعمادة البحث العلمي في الجامعة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١ / فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤ / فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قال رسول الله ﷺ:

«أوتيتُ جوامع الكَلِم، واختصر لي الكلامُ اختصارًا».

(حديث مشهور رواه أهل الصحاح).

وجاء في مقدمة كتاب البيان والتبيين للجاحظ:

(اللهم، إنّا نَعوذ بك من فِتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نُحسن، كما نعوذ بك من العُجْب بما نحسن، ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر، كما نعوذ بك من العِيّ والحَصَر).

Éléments sous droits d'auteur

هدف الكتاب:

يهدف هذا الكتاب ليتوافق والمستوى العلمي للباحثين، وطلبة الجامعات من جميع التخصصات، والمثقفين، وليساعدهم على تطوير قدراتهم العلمية والعملية، من خلال الكشف عن التجارب الفذة للآخرين، تلك التجارب التي تبعث فيهم روح التحدي والمصاولة، كما يثير فيهم الشوق لسلوك دروب المهرة في كل علم وفن، إلى جانب أنه يعينهم على فهم الواقع والتعامل معه، والتجاوب مع أفراده، ويساعدهم على اكتشاف الأخطاء وتصويبها، وختامها مسك في تلبية رغباتهم الثقافية، والوصول إلى سقف طموحاتهم في فن الاتصال.

وللحاجة الماسة إلى التوفيق بين متطلبات العصر، والبناء والتأسيس اللغوي، والسعي مع تطوير المهارات، فقد عزمت على العمل في تأليف كتاب في (مهارات الاتصال اللغوي) وبعد طول نظر في العديد من المؤلفات في هذا المجال فقد وجدتها تسير في ثلاثة اتجاهات صرفة ومحددة، هي:

١- الاتجاه اللغوي.

٢- الاتجاه النفسي.

٣- الاتجاه الإعلامي.

وبما أنّ هذه الاتجاهات تخصصية محضة، فقد آثرت أن أضع كتابًا مضمونه (مهارات الاتصال اللغوي) نهره من: دفق اللغة، والأدب، والتراث، وروافده الاتجاهات السابقة؛ ليتسم بالأصالة والشمول، ويحظى بالاهتمام والقبول.

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

- **المقدمة** ١٥
- **تمهيد** ٢١
- **الباب الأول: مفهوم الاتصال وأساليبه ووسائله** ٢٥
- ❑ **الفصل الأول: الاتصال ضرورة ومفهوم، وفيه:** ٢٧
  - ١- التعريف بالاتصال
  - ٢- الأدب والاتصال
  - ٣- علاقة الأدب بالاتصال
  - ٤- أدوات الاتصال
  - ٥- وظائف الاتصال
  - ٦- أنماط الاتصال
  - ٧- عناصر الاتصال
- ❑ **الفصل الثاني: أساليب الاتصال، ويتضمن:** ٥٥
  - ١- اللغة الإشارية (لغة الإشارة، ولغة العيون، ولغة الوجه والجسد)
  - ٢- اللغة المنطوقة
  - ٣- اللغة المكتوبة
- ❑ **الفصل الثالث: وسائل الاتصال، ويتضمن:** ٧٩
  - ١- المطبوع
  - ٢- الإذاعة المسموعة
  - ٣- الإذاعة المرئية
  - ٤- الشبكة الداخلية

Copyrighted material

- **الباب الثاني: المهارات التحصيلية** ٩٥
- ❑ **الفصل الأول: مهارة الاستماع، وفيه:** ٩٧
  - ١. ألفاظ ومصطلحات (السماع، والاستماع، والإنصات، والإصغاء)
  - ٢- أهميته
  - ٣- أهدافه
  - ٤- وسائله
  - ٥- تحققه
- ❑ **الفصل الثاني: مهارة القراءة** ١١١
  - ١- أنواعها
  - ٢- نماذج عليها
- ❑ **الفصل الثالث: مهارة التحدث** ١٣٣
  - ١- أهميتها ومكانتها
  - ٢- وسائل تنميتها
  - ٣- عناصر التحدث
- ❑ **الفصل الرابع: مهارة الإلقاء، ويتضمن:** ١٤٩
  - ١- تعريفه
  - ٢- ضوابطه و أنواعه (الإلقاء النثري والإلقاء الشعري)
- ❑ **الفصل الخامس: مهارة الحوار، ونتعرض فيه للآتي:** ١٥٥
  - ١- مفهومه
  - ٢- مقوماته وأسسه
  - ٣- أنواعه
  - ٤- آدابه
  - ٥- نماذج عليه
- ❑ **الفصل السادس: مهارة الخطاب، وفيه:** ١٨٥
  - ١- التهيئة والتدريب

Copyrighted material

٢- أساسيات الخطاب
٣- عناصر قوة الخطاب، وتكمن في: (المتكلم، والخطاب والسامع)
٤- عيوب الخطاب
❑ **الفصل السابع: مهارة السؤال والجواب، ويتضمن:** ٢١١
١- ماهية السؤال
٢. أدوات السؤال
٣- تعريف الجواب
٤. آداب الجواب وصفاته
٥- نصوص قرآنية في السؤال والجواب
• **الباب الثاني: المهارات الإبداعية** ٢٤٥
❑ **الفصل الأول: فن الشعر، ويتضمن:** ٢٤٧
١- تعريفه
٢- أهميته
٣- قوة تأثيره
٤- موضوعاته وأغراضه
٥- مدارسه واتجاهاته
٦- نماذج
❑ **الفصل الثاني: الفنون النثرية** ٢٨١
١- أهميتها التوصيلية
٢- غاياتها: (غاية تعليمية، وغاية خلقية تهذيبية، وغاية جمالية فنية، وغاية اجتماعية)
٣- أنواعها: (المقال والقصة والرواية والمسرحية)

Copyrighted material

Copyrighted material

منهجية التأليف:

اعتمدت منهج البحث العلمي في تأليف هذا الكتاب، حيث العودة إلى المصادر والمراجع التي تعالج هذا الموضوع من شتى جوانبه، وإلى جانب الدرس والتوثيق والتحليل، سأقوم بمعالجة الأفكار المطروحة في مخطط الكتاب؛ حتى أستوفيها، ولا شك أنّ هناك العديد من الكتب التي أُلّفت في مهارات الاتصال، ولكن كما قلت في البداية: أغلبها في التخصص الإعلامي أو النفسي أو اللغوي.

أهمية الكتاب:

إن أهمية هذا الكتاب المقترح تكمن في كونه يشمل جميع مهارات الاتصال اللغوي، إلى جانب الاستفادة من الدراسات: النفسية، والتربوية، والإعلامية في مجالات الاتصالات، إضافة إلى النفع الذي سيحققه الكتاب لأفراد المجتمع والمؤسسات العلمية.

وأذكر من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع على عموم تخصصها:

- اللغة والتواصل الاجتماعي للدكتور فتحي يونس وآخرين.
- سيكولوجية الاتصال للدكتور محمد حسن عبد الله.
- الاتصال الجماهيري لصالح خليل أبو إصبع.
- كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال لأحمد ماهر.
- المهارات اللغوية ماهيتها وطرائقها لأحمد فؤاد عليان.
- المهارات الأساسية في اللغة العربية للدكتور سميح أبو مغلي ومصطفى الفار.

Éléments sous droits d'auteur

المُقَدِّمَة

ساقا التقدم هما: العلم والأدب، تسيران معًا، وتحطّان معًا، وتحملان، متآزرتين جسد الحضارة والثقافة والازدهار والتقدم.

ولا غنى لأي أمة تطمح إلى الظهور والريادة عنهما، فبهما تسعى، وعليهما تعوِّل، وكلَّما اشتدت هاتان الساقان وقويتا، كلما برزت في السباق وجلَّت، وإذا خارت واحدة منهما أو كلاهما، بدأ السوس ينخر جسدها، فتتراجع وتركن إلى الاعتماد على غيرها، وتسير في قافلة التبعية.

والمتتبع لحركة نهضة الأمم وتفوقها في ميادين: القوة، والفكر، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد، والعمران، يتبين له أن هذه القوى ناتجة عن حركة العلم والأدب المتفتحة الناهضة.

فعصور وثَبَاتِ الشعوب ونهضاتها مقترنة بالتقدم العلمي والأدبي، وهذا ما يؤكده العلاّمة ابن خلدون، حيث يُرجع سبب كساد أسواق العلم والأدب بالمغرب (لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم) فاتصال العمران والحضارة، وكثرة الصنائع، ونهضة العلوم كلها تجتمع في هذا الموكب.

وما الصفحات المشرقة في حضارتنا العربية الإسلامية بغائبة عنّا، حين كانت تتوازى الإبداعات العلمية والأدبية، وهذا التوازي لم يمنع التلاقي والامتزاج، فكان العالم أديبًا، والأديب عالمًا، فاللقبان يطلقان على الشخص الواحد معًا، فيُقال: الطبيب الشاعر، والفلكي الأديب، وأديب المحدثين، ومحدِّث الأدباء.

وقد يُطرح سؤال مفاده: هل باستطاعة الفرد أن يجمع عدة ملكات معًا، أم أنَّ ملكة واحدة قد لا يقوى عليها؟ويسعفنا ابن خلدون دائمًا، حيث يرى أنَّ

إجادة تنوّع الملكات لا يرسخ، أو يثبت بعد إجادة ملكة وحصولها تمامًا، وتمكّنها من نفس صاحبها، يقول في الفصل الثاني والعشرين في باب: إنَّ من حصلت له ملكة في صناعة فقلَّ أن يُجيدَ ملكةً أخرى: (والسبب في ذلك أنَّ الملكات صفاتٌ للنفس وألوان، فلا تزدحم دفعة، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات، وأحسن استعدادًا لحصولها، فإذا تلوَّنت النفس بالملكة الأخرى، وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف).

نستنتج من هذا النص أنَّ الذي يريد الجمع بين ملكتين فأكثر عليه أن يستعدَّ لهما منذ النشأة الأولى، أي في بداية طفولته، والنفس متفرِّغة، والهمَّة مقبلة، والعزيمة حارّة.

والعلم والأدب ليسا خصمين بغى أحدهما على الآخر، فلا يلتقيان! وليسا بحرين: هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وبينهما برزخ فلا يتمازجان!

بل هما روضتان يانعتان بينهما جدول رقراق يعطف على هذا مرة، وعلى هذا مرة، وتراهما في عناق أخوي مع كلّ هبة نسيم؟

ليس هناك فصلٌ تعسّفي بين رياض العلم وحدائق الأدب؟بل وئام وتآلف والتقاء؟

قد نجد من يرى هذا أو ذاك، ولكن الأغلبية المطلقة ترفض فكرة الانفصال والانفصام، وترى أنَّ اللُّحمة بينهما مؤكدة، والعلاقة موثقة، ولا يكاد أحدهما يبلغ حدًّا من النجاح دون الاستعانة بالآخر، فكلاهما مستغنٍ بالآخر لا عنه.

وبما أنّ رؤيتي - أنا على الأقل - كذلك، فما الدّافع لهذا الحديث؟

الذي دفعني هو ما سمعته من بعض المتخصصين أنهم ليسوا بحاجة للاطلاع الأدبي ولا لمهاراته، إذ إنَّ المتخصص منهم لو قضى عمره كله في

تخصصه لما استطاع أن يصل إلى لمِّ شتاته، ومعرفة دقائقه وأجزائه، فكيف وهو يضيع بعض وقته، وينفقه في قراءات أدبية، والتدرب على مهارات لا تسمن ولا تغني من جوع علمي.

كنت أستمع إلى هذه الآراء، وأنا أتمزّق وأتحرّق، أتمزق لهذه الرؤية المحدودة التي تظن في الأدب لهوًا، ولغوًا، وفي مهاراته تزجية وقت، وأتحرَّق شوقًا للردّ عليهم، وتبيان وهمهم.

ورحت أستعرض تجارب التراث العلمي والأدبي عند العرب، وكيف امتزجا معًا، وخدم كل منهما الآخر، فوظِّف العلم لخدمة الأدب، ووُظِّف الأدب لخدمة العلم، فكانت الكتب العلمية تتحوّل إلى شعر منظوم؛ لتسهيلها وتيسيرها، وهو الباب الواسع الذي عبر منه العلماء لتقديم العلم بأيسر طريقة وأعذبها، أو يُستخدمُ الأسلوب الأدبي على شكل حوار، أو قصة في التعليم، وفي الوقت ذاته، تتحول الأفكار الأدبية إلى مشروع علمي لمجرد مرورها أمام عيني عالم.

ومن نماذج ذلك ما وُجد في المكتبات من منظومات في: علوم الشرع، والعربية، والفلك، والطب، والحساب، والتاريخ وغير ذلك، أمّا الأفكار الأدبية التي تحوّلت إلى البحث العلمي فلا يتسع المجال لحصرها، وأذكر منها على سبيل المثال، ما تمَّ التعرف عليه من معالم جغرافية من خلال ما ورد عنها في بعض الأشعار، كذلك في علوم النبات والتعرف على أصنافها وفوائدها، وعلوم الحيوان وأشكالها وأسمائها وطرائق حياتها في التكاثر، وما يعتريها من أمراض، وكيفية علاجها، إلى جانب معيشتها، وأماكن وجودها.

ولقد ربط العرب قديمًا بين العقل والأدب، وأكّدوا على حاجة العالم للأدب، فقالوا: عاقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح، وقيل: العقل والأدب كالروح والجسد، فالجسد بغير روح صورة، والروح بغير جسد ريح.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب، فإن كنتم ملوكًا سُدْتُم، وإنْ كنتم وسطًا رأستم، وإنْ أعوزتكم المعيشة عشتم.

والعالم في أمسِّ الحاجة إلى الأدب لتوصيل معلوماته إلى غيره؛ لأنه بمعرفته الأدب يتقن لغته التي هي أداة التوصيل، فإذا عجز عن استخدام أداته، فقد قدرته على تقديم أفكاره؛ لأن هذه الأفكار أو المعلومات إذا لم تقدَّم بأسلوب واضح كاشف، فسيغلفها الضباب والحيرة، وتخطئ في إصابة غرضها، ولأنَّ الاستخدام الصحيح للغة هو الذي يحدّد المعنى، فاللغة المضطربة المشوشة التي لا تراعي المعنى والدلالة، ولا تراعي صحة التركيب النحوي والصرفي، تنتج من ثم علمًا مشوّشًا، وأفكارًا مضطربة، فالرسالة الغامضة، وغير الواضحة التي يرسلها المرسل لن تجد تفهمًا وقبولاً من جانب المرسل إليه، وبذلك تفشل عملية التوصيل، ويخسر الطرفان، وتفقد المعلومات قيمتها.

والعالم في أيّ تخصص كان، سواء أكان في العلوم الإنسانية، كعلوم: التاريخ، والجغرافيا، والاجتماع، والنفس، والإدارة، أو العلوم التطبيقية والبحتة: كالطب والهندسة، والرياضيات، والكيمياء، والفيزياء، والاقتصاد، وغيرها هو بأمس الحاجة إلى الأدب الذي يمنحه القدرة اللغوية التي تعطيه الثقة بنفسه، وتزوده بالأساليب التي يستطيع من خلالها الوصول إلى عقول وقلوب قرّائه وطلابه، وجمهور الباحثين.

وفي مسيرة تراثنا العلمي، وجدنا أعدادًا كثيرة من العلماء الذين جمعوا إلى قدراتهم العلمية، إبداعًا أدبيًّا في مختلف فنون الأدب: كالشعر، والقصة، والخطابة والرسائل، والتأليف: في النقد، والبلاغة، وتاريخ الأدب.

وقد راعيت الأهداف المرجوة من هذا الكتاب في المنهج والأسلوب: كالمناسبة الفكرية والعلمية لمستوى طلاب الجامعات، والتخصص، وتطوير

القدرات العلمية والعملية، والكشف عن بعض التجارب التي يُحتاج إليها، وتلبية رغبات القراء الثقافية من حيث الأصالة والجدة، والربط بين تراث الماضي والحاضر، إلى جانب إثارة التحدي والتشويق لسلوك دروب المهرة في الاتصال، والمساعدة على اكتشاف الأخطاء وتصويبها، وحفل الكتاب بالعديد من النصوص القرآنية، والحديثية، والشعرية والنثرية، الثرية بمهارات الاتصال، كما زودنا القارئ بالكثير من الأسئلة التي تعبِّر عن المادة؛ لتُجيب عن كثيرٍ من تساؤلاته، وتضيف إليه التدريب الذي يحتاجه.

وفي هذا الكتاب الذي جعلته في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب، سأركز على استخلاص مهارات التوصيل من خلال شواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي، وكتب التراث النثرية والشعرية.

وقدعرضت في الباب الأول: مفهوم الاتصال وأساليبه ووسائله.

وفي الباب الثاني: المهارات التحصيلية، ويندرج فيه سبعة فصول بسبع مهارات وهي: مهارة الاستماع، ومهارة القراءة، ومهارة التحدُّث، ومهارة الإلقاء، ومهارة الحوار، ومهارة الخطاب، ومهارة السؤال والجواب.

وفي الباب الثالث: المهارات الإبداعية، وفيه فصلان، الأول عن الشعر، والثاني عن النثر بأنواعه: المقال، والقصة القصيرة، والرواية، والمسرحية.

وسأنهي الكتاب بخاتمة، ونصوص تراثية في مهارات الاتصال، ومجموعة أسئلة في المهارات، ثم فهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

من مصادر الكتاب ومراجعه:

- كتب مهارات الاتصال بأنواعها المختلفة: الإعلامية، والنفسية، واللغوية.

- كتب تفسير القرآن الكريم.

- كتب التراث العربي، مثل: البيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، وزهر الآداب للحصري، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، والعمدة لابن رشيق القيرواني والمستطرف للإبشيهي، وكتب آداب العالم والمتعلم، ومعاجم اللغة، ودواوين الشعر، وكتب الأمثال والتراجم...إلخ.

هذا وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد.

عبد الرزاق الحاج عبد الرحيم حسين

الظهران في ١٤٢٩/١٢هـ الموافق ٢٠٠٨/١٢م

تمهيد تعريفي:

في هـذا التمهيد نلقي نظرة سريعة على أركان هذا الموضوع الثلاثة، وهي: (المهارة، والاتصال، واللغة).

والمهارة مـن الفعل (مهر) ورد في أساس البلاغـة[1] (وفتك في صناعته: مهـر فيها.... مهـر في الصناعة وتمهّر فيها ومهرها ومهـر بها، وهو ماهر بيّن المهارة، وخطيب ماهر، وسابح ماهر، وقوم مهرة).

وجـاء في اللسـان[2]: (والمَهارة الحِذق في الشـيء والماهر الحاذق بكل عمل وأَكـثر مـا يوصف به السابـح المُجِيد والجمـع مَهَرَة)وجـاء في القاموس المحيط: (والماهِرُ الحَاذِقُ بكُلِّ عَمَلٍ، والسابِحُ المُجِيدُ ج. مَهَرَةٌ. وقد مَهَرَ الشيءَ، فيه، وبه، كمنَعَ، مَهْرًا ومُهورًا ومَهارًا ومَهارَةً.) ووردت كلمة الماهر في حديث رسول الله ﷺ **«الماهر في قراءة القرآن مع الكرام السفرة [3]»**.

وقوله ﷺ: **«الذي يقرأ القرآن، وهو ماهر به مع الكرام السـفرة، والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق، له أجران [4]»**.

مـن كلٍّ هذا نستطيع تعريف المهارة: بأنها الحـذق والإتقان: أداءً، ووقتًا، وجهـدًا، أي هي الأداء المتقن الذي يقدّم العمـل في صورة تامة لا يعتوره نقصٌ، في: الشكل، أو في المضمون.

---

(١) مادة مهر.

(٢) مادة مهر.

(٣) مصنف عبدالرزاق ج٢ ص ٤٩١ رقم ٤١٤٩.

(٤) ورد في مسنـد الإمـام أحمد برقـم٢٤٦٧٨ ومصنف عبد الرزاق وفيه «الماهر بالقرآن مع السـفرة الكرام البررة، والذي يقرأ وهو عليه شديد فله أجران اثنان».

والإتقان في الوقت باستغلاله واختزاله، حيث تُؤدَّى المهارةُ في وقتها المحدَّد دون استرخاء وإطالة.

والإتقان في الجهد الذي يُبذل من خلال الأداء والوقت، بحيث يكون دقيقًا ومحـدَّدًا ومقتصدًا فيـه، فالإرهاق وبـذل الجهد المضاعف يفتقـدان للمهارة، ويضعفان من شأنها.

الاتصـال: بعمومه، ولا نقصـد اتصالاً معينًا، هو: تماس وارتباط ووصل بـين شيئين، أما الاتصال اللغوي فهو: التقـاء طرفي الحديث المرسل والمستقبل، والهدف بلوغ الغاية التي يريدها المرسل من رسالته للمستقبل.

وبَلَـغَ المكانَ بُلوغًا وَصَلَ إليه، بَلَغَ الشيءُ يَبْلُـغُ بُلُوغًا وبَلاغًا وصَلَ، والإبلاغ الإيصـال. وجاء في القاموس المحيط[1]: وصَـلَ الشيءَ بالشيءِ وَصْـلاً وصِلَةً، بالكسـر والضم، ووصَّلَهُ لأَمَهُ، ووصِلَكَ اللّه، بالكسرِ، لُغَةٌ، و الشيءَ و إليه وُصولاً ووُصْلَـةً وصِلَةً بَلَغَهُ وانتهى إليـه. وأَوْصَلَهُ واتَّصَلَ لم يَنْقَطِـعْ. والوُصْلَةُ، بالضم: الاتِّصالُ، وكُلُّ ما اتَّصَلَ بشيءٍ فما بينهما: وُصْلَة.

وجـاء في لسـان العرب [2]: (وصـل) وَصَلْت الشيء وَصْلاً وَصِلـةً والوَصْلُ ضِـدُّ الهِجْـران، والوَصْل خـلاف الفَصْل، وَصَل الشـيء بالشـيء يَصِلُه وَصْلاً وَصِلةً وصُلَةً، وفي التنـزيل العزيز: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي وَصَّلْنـا ذِكْرَ الأَنْبيـاء وأَقاصِيصَ من مَضَى بعضها ببعض؛ لعلهم يَعْتَبرون، واتَّصَلَ الشيءُ بالشيء لم ينقطع، قال الشاعر:

وَصِلِ المُواصِلَ ما صَفَا لك وُدُّه واجْذُذْ حِبالَ الخَائِنِ المُتَبَذِّلِ

(١) مادة (وصل) في القاموس المحيط.

(٢) مادة (وصل) و (لغو) في لسان العرب.

اللغــة: اللُّغة من الأَسمــاء النـاقصة، وأَصلها لُغَوة من لَغا إِذا تكلم، واللُّغة: اللِّسَــنُ، وحَدُّهــا: أَنها أَصوات يُعبِّر بهــا كل قوم عن أَغراضِهــم، وهي فُعْلَةٌ من لَغَوْت أَي تكلَّمت، أَصلها لُغْوة، والنسبة إِليها لُغَوِيّ.

الباب الأول

مفهوم الاتصال ووسائله وأساليبه

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: الاتصال ضرورة ومفهوم.
- الفصل الثاني: وسائل الاتصال.
- الفصل الثالث: أساليب الاتصال.

الفصل الأول

الاتصال ضرورة ومفهوم

وفيه:

- تعريف الاتصال.
- مستويات الاتصال.
- تعريف الأدب.
- علاقة الأدب بالاتصال.
- أدوات الاتصال.
- وظائف الاتصال.
- أنماط الاتصال.

الفصل الأول: الاتصال ضرورة ومفهوم:

منـذ أن خُلـق الإنسان بـدأ الاتصال، والاتصال ضـروري للإنسان في حياته ومعاشه، ولذلك خُلقت معه الوسيلة التي يتمّ عبرها الاتصال، فكان تعليم الله ﷻ لآدم الأسماء كلها، ومن ثمَّ كانت اللغة هي وسيلة التفاهم والاتصال والتعبير.

تعريف الاتصال:

أداء يقـوم به فرد أو أكـثر، أو جهة، ويُسمّى المرسـل؛ لنقل رسالة محمّلة بموضـوع، إلى شخصـ أو جهـة أُخرى، ويُسمّـى المستقبل، ويهـدف إلى غرض مقصـود. فهو عمـل من طرفين: طرف يحمـل رسالة تحمـل مضمونًا ما، مثل: معلومـات، أو أخبـار، أو آراء، أو اتجاهات، أو مشاعـر، أو مضمونًا اجتماعيًّا أو ثقافيًّـا، أو إمتاعيًّا أدبيًّـا إلى آخر ما في جعبة الرسائل من أغراض وأفكار، يتم نقلهـا إلى طـرف آخر هو المستقبـل أو المتلقي الذي يكون معنيًّـا بهذه الرسالة، فالأستـاذ والطالب، والعـالم والمتعلم، والطبيـب والمريض، والبائـع والمشتري، والرئيس والمرؤوس، والرجـل والمرأة، والكاتب والقراء، والشاعر والجمهور، كل هؤلاء يقومون بدور المرسل والمستقبل.

ونجـد له تعريفًـا عند علماء النفس مبنيًّـا على أنّ (**الاتصـال عملية من أهدافها تغيير سلوك الناس واتجاهاتهم، بما يحدثه في بناء النفس للمتلقي، بحيث يرى الإنسـان الأشـياء، ويفسـرها، ويقيمها بطريقة تختلف عمّا قبل، ومـن ثـمّ فإنّه يعيـد ترتيب نظـام القيم والاتجاهـات في نفسـه**[1]) فالاتصال عملية مركبة، يُقصدُ بها إحراز هدف يقصد إليه المرسل، أو المتصل، وإذا كانت

(١) سيكولوجية الاتصال: ص٢.

اللغـة كما عرَّفها ابن جنّي: (**أصـوات يُعبِّر بها كلُّ قومٍ عنْ أغراضِـهم**[1]) فإنَّ الغرضَ الذي يقصدُهُ المتَّصلُ هو الأساسُ الذي تقوم عليه عمليةُ الاتصال.

ومـن هذا التعريف يبـدو الاتصال عملية مشتركة، تشـترك فيها أطراف متعددة، هي:

- **الأداء أو الرسـالة**، وهـو ما يقوم به المرسل مـن عمل توصيلي من خلال الكلام المنطـوق أو المكتوب، أو بأي وسيلة أخرى: كالترميز، والإشارات، والتصوير، وغير ذلك، فقد تكون الرسالة صوتية مثل الكلام، أو صورية مثل الكتابة، أو حركية، مثل الإشارات، أو خليطًا من كل هذه الأشكال.
- **المرسـل**: قد يكون شخصًا، وقد يكون جهةً أو مجموعةً، مثل: الوزارات والمؤسسـات والشركات، أو الصحافة والإذاعـة والتلفاز، والمرسل هو المعني بتوجيه الرسالة.
- **الموضـوع**: أي موضـوع الرسالـة، وهو يشمل كل أمر مـن أمور حياتنا، وكلّ شأن مـن شؤونها: الحضارية، والثقافيـة، والفكرية، والتعليمية، وما يرتبط بحاجاتنا ودوافعنا، ومشاعرنا، واتجاهاتنا.
- **المستقبل**: هو الذي يتلقى الرسالة، أيًّا كان فردًا أو جمهورًا، وهو المعني باستقبالها، والتفاعل معها.
- **الهدف**: قد يسمو هدف الرسالة، فيعلو حتى يصل إلى أن يكون رسالة إنقـاذ للبشرية، كالرسـالات السماوية، أو رسالـة ذات أهمية قصوى للمجتمـع، كرسائـل: الإصلاح، والتعليم، والتوجيـه، والتخطيط، وقد تكون ذات مغزى بسيط، كإلقاء تحية، أو السؤال عن شخص أو مكان، أو الإخبار بخبر... إلخ.

---

(١) الخصائص لابن جني ١/٣٣.

ومستويات الاتصال تتدرج من الذات، إلى الآخر، إلى الجمهور، وتفصيلها:

- **الاتصال الذاتي:** هو ما يُعرف بحديث الذات، أو الحوار الداخلي، أو المناجاة.
- **الاتصال مع الآخر:** كالحوار، والجدل، والنقاش، ويتم بين شخصين أو أكثر.
- **الاتصال الجماهيري:** هو الخطاب العام، ويتضمن مستويات عدة: كخطاب جهة، أو جماعة، أو جمهور عريض.

الأدب والاتصال:

تعريف الأدب: الأدب في كل أمة عنوان حضارتها، وحلية ثقافتها، ومخزون حكمتها، وزبدة تجربتها، وجمال صورتها، وتاريخ أمجادها، وهو الباقي على الزمان، الحافظ لشخصيتها من الاندثار والزوال.

ولأهمية الأدب في تخليد أهله، وقوة آثاره، ويُسْرِ توصيله لأغراضه، كان الاهتمام به لا ينضب، والرغبة فيه تقوى وتشتد، والطموح للوصول إليه لا يتوقف أو ينضب، ولعل في تقديم تعريف سريع وميسر للأدب كونه الوسيلة المثلى للاتصال، يضع أيدينا على هذه الشبكة العجيبة التي تمثل قدرة فائقة على التواصل والاتصال، تمامًا كما قال الشاعر يصف قصيدته:

تردُ المياهَ فماتزالُ غريبةً في القومِ بين تمثُّلٍ وسماعِ[1]

إننا مع الرأي القائل بصعوبة تعريف الأدب؛ لأنَّ **(الأدب لا يُتعرَّف من جانب واحد، ولا من وجهة نظر واحدة، فهناك: الشأن الاجتماعي،**

(١) نضرة الإغريض ٢/١.

والتاريخي، والعملي، والفني، الأدب هو في وقت واحد: نظام خاص للتعبير عن: الشأن الاجتماعي، وتاريخ المفاهيم المتغيرة، إلى الكتابة الفنية، ونتاج فني تنعكس فيه أصداء الصراع بين النظريات، صراع مستمر بين الولادة والموت، بين التجديد والتقليد... ولكنَّ صعوبة الإمساك بمفهوم الأدب لا تعني غياب الثوابت[1]).

وإذا كان مفهوم الأدب عند القدماء قد مرّ بمراحل، كما أورد الرافعي في تاريخ آداب العرب[2] حيث اقتصر في المرحلة الأولى على الجانب التهذيبي الخلقي، كقوله ﷺ «**أدّبني ربي فأحسن تأديبي**[3]».

وإن كان ذلك راجعًا إلى المعنى الحسي المتصل بالدعوة إلى الطعام، وكون الدعوة إلى الطعام من الأدب، والكرم عنوان العربي، وأصل مفاخره، فأَدِب يأدِبُ مأدبة، وهو آدب: أي داعي إلى الطعام، كما ورد في قول طرفة بن العبد البكري:

نحنُ في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر[4]

ثم صار إلى المرحلة الثانية، حيث اتسع مدلولها، لتدل على كل العلوم عدا العلوم الشرعية، وبذلك عُرفت طبقة المؤدبين في العصرين: الأموي، والعباسي.

وجاء في كتاب التعريفات أيضًا [5](**الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ**).

---

(١) قضايا أدبية عامة مقدمة المترجم: ص ١٤.

(٢) ١/ ٣١-٣٧.

(٣) أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٠١/١ قال ابن تيمية: معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت.

(٤) ديوان طرفة بن العبد: ص ٢٠.

(٥) كتاب التعريفات باب الهمزة.

ولما كـثرت العلوم وتعدّدت صار يـدل على الكلام الجيـد البليغ، فانضوى تحت لوائه الشعراء والكتاب والأدباء.

وقد عرفه ابن خلدون، فقال: (**المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجـادة في فنـي المنظـوم والمنثـور على أسـاليب العرب ومناحيهـم، فيجمعون لذلـك مـن كلام العـرب ما عسـاه تحصـل به الملكـة... ثـمّ إنّهـم إذا أرادوا حدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشـعار العرب وأخبار ها والأخذ من كل علم بطرف**[1]).

وقد عرفه المحدثون، بأنه: (**الكلام البليغ الذي ينبثق عن اللغة في شعرها ونثرها وما يدور حولهما من دراسات، ومنهم من عرفه بالدافع إليه والحافز عليه، وناقشوا قضية التجربة الشعورية التي هي الدافع للأدب**).

فهل الأدب تعبير عن تجربة؟ وأيُّ تجربة هي؟ هل هي تجربة الأديب وحده؟ أم تجـارب الآخرين التي يحسُّ بهـا وينقلها إلينا؟ أم هي تلك التجارب السابقة التـي اطَّلع عليها، وأثَّرت في نفسه، ومجرى حياته الأدبي؟ فهل الأدب كلّ واحدة من هذه التجارب على حدة؟ أم هو مجموع هذه التجارب؟

حقيقـة الفهم والوعي بالأدب تقـول: إنَّ الاقتصار على التجربة الذاتية في الأدب قصـور، إذ لا بـدَّ للأديب من أجل إثراء أدبـه أن يتزوّد بكلِّ ما يفيده، ثمَّ يصوغـه بعد ذلـك أثرًا جديدًا لا تـكاد تلمح فيه ما سبـق إلّا كخلفية أو ظلال، فالنَّحـل يأخـذ الرّحيق، لكنـه يُخرج لنا شرابًـا مختلفًا ألوانـه، لا يمكن لنا أن ندّعي أنّه الرحيق، بل هو العسل.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٥٣.

ولعلَّ الفرزدق من أوائل من أثبت لنا هذه القضية، وأنّ تجارب الآخرين وإبداعاتهم هي التي منحته إبداعه، فالإبداع الخاص جزءٌ من الإبداع العام، وهذا لا يلغي الذاتية، بل يعززها ويضيف إليها، ينمّيها ويصقلها، ويجعلها قابلة للنمو والحياة، وفي ذلك يقول[1]:

وهبَ القصائدَ لي النَّوابغُ[2] إذْ مَضَوا
وأبو يزيدَ وذو القروحِ[3] وجرولُ[4]
والفحلُ علقمةُ[5] الذي كانت له
حُلَلُ الملوكِ كلامهُ لا يُنْحَلُ
وأخو بني قيسٍ[6] وهنَّ قتلنهُ
ومهلهلُ[7] الشعراءِ ذاكَ الأولُ
والأعشيانِ[8] كلاهما ومرقشٌ
وأخو قضاعةَ قولهُ يتمثلُ

(١) ديوان الفرزدق ص ١٧٠.

(٢) النوابغ، وهم: النابغة الذبياني زياد بن معاوية شاعر من الطبقة الأولى، ومن شعراء المعلقات، مدح ملوك المناذرة والغساسنة، وتوفي نحو ١٦ قبل الهجرة. والنابغة الجعدي وهو قيس بن عبدالله الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر مخضرم صحابي، توفي نحو ٥٠ للهجرة. والنابغة الشيباني عبدالله بن مخارق، شاعر بدوي من شعراء العصر الأموي. توفي نحو ١٢٥ للهجرة.

(٣) ذو القروح: امرؤ القيس بن حجر الكندي شاعر جاهلي عُدّ سابق الشعراء، ومن أصحاب المعلقات، توفي نحو ٦٠ قبل الهجرة.

(٤) جرول: الحطيئة العبسي، شاعر مخضرم هجاء، توفي نحو ٤٥ للهجرة.

(٥) الفحل: علقمة بن عبدة التميمي من الشعراء الفحول، من معاصري امرئ القيس والنابغة الذبياني توفي نحو ٣ للهجرة.

(٦) أخو بني قيس: طرفة بن العبد البكري، قتل شابًّا، قتله عمرو بن هند ملك الحيرة، من شعراء المعلقات.

(٧) مهلهل: عدي بن ربيعة، سمي بالمهلهل؛ لأنه أول من هلهل الشعر أي أطاله، وهو المشهور بالزير سالم صاحب معركة البسوس.

(٨) الأعشيان: الأعشى الكبير ميمون بن قيس من أصحاب المعلقات، توفي سنة ٧ للهجرة. والأعشى الهمداني.

وأخو بني أسدٍ عبيدٌ[١] إذ مضى
وأبو دؤادٍ[٢] إنهُ يتنحلُ
وابنا أبي سلمى زهيرٌ وابنهُ[٣]
وابنُ الفريعةِ[٤] حينَ جدَّ المِقولُ
والجعفريُّ[٥] وكانَ بشرٌ[٦] قبلهُ
لي منْ قصائدهِ الكتابُ المجملُ
ولقدْ ورثتُ لآلِ أوسٍ[٧] منطقًا
كالسُّمِّ خالطَ جانبيهِ الحنظلُ
والحارثيُّ أخو الحماسِ ورثتهُ
صدعًا كما صدعَ الصفاةَ المعولُ
يصدعنَ ضاحيةَ الصَّفا عنْ متنهِ
ولهنَّ منْ جبلي عمايةَ أثقلُ
دفعوا إليَّ كتابهنَّ وصيةً
فورثتهنَّ كأنهنَّ الجندلُ

---

(١) أخو بني أسد: عبيد بن الأبرص الأسدي، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات.

(٢) أبو دؤاد: جارية بن الحجاج الإيادي، شاعر جاهلي، اشتهر بوصف الخيل.

(٣) ابنا أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى المزني، حكيم شعراء الجاهلية، من أصحاب المعلقات، توفي سنة ٣ قبل الهجرة، وابنه كعب بن زهير صاحب البردة في مدح الرسول ﷺ، توفي سنة ٢٦ للهجرة.

(٤) ابن الفريعة: حسان بن ثابت رضي الله عنه، شاعر الرسول ﷺ وهو شاعر مخضرم توفي سنة ٥٤ للهجرة.

(٥) الجعفري: لبيد بن ربيعة العامري، شاعر مخضرم من أصحاب المعلقات، ويعد من الصحابة، عُمِّر طويلاً، وتوفي سنة ١٤ للهجرة.

(٦) بشر: هو بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، شاعر جاهلي فحل، توفي نحو ٢٢ قبل الهجرة.

(٧) آل أوس: أوس بن حجر التميمي، شاعر جاهلي، عُمِّر طويلاً، وتوفي في السنة الثانية قبل الهجرة.

علاقة الأدب بالاتصال:

يقـول الدكتور علي جـواد الطاهر: (**إنّك لا تجـد أدبًا، كمـا لا تجد فنًّا لا يكـون مـن غايتـه التوصـيل، والطـرف الأول في التوصـيل هـو الأديـب الذي يصوغ التجربة، والطرف الثاني الذي يتلقى التجربة هو السامع، أو القارئ، أو المشـاهد، والسـلك الموصـل بين الطرفين هو اللغة التي تحمل التجربة**[1])

وأقـول: إذا كان مـا عبَّر عنه الدكتـور الطاهر أطراف التوصيـل، من: مُرسل، ومُرسَل إليـه، ورسالة، فإنَّ نجاح مثل هذا التوصيل يؤدي إلى نجاح العمل كلّه، ويكـون ذلك بأن تتمثَّل في الطـرف الأول وهو المُرسِـل أو المُوَصِّل القدرة الفنية، والجـودة الإبداعية التـي تتلمّس الجوانـب الجمالية والإنسانيـة من خلال لغة مؤثرة، وإحساس فعّال، وذوق منتخب.

وأن تكـون الرسالة: فيها من التأثير والجمـال والإبداع ما يجعلها صالحة لأن تُقبل، وهذا القبول الذي يبعث الرّضا والسعادة في نفس المتلقي هو الإدراك بقوّة التوصيل وفاعليته.

وأمّـا الطرف الثالث: وهو المرسَل إليـه أو المُتلقّي فيجب أن يكون هو الآخر قادرًا على استيعاب وفهم ما أُرسل إليه، فإذا قصّر فهمه، أو عجز عن الوصول كضعـف قدراته، أو عدم معرفته للغة النص،أو نتيجة لتشويش، فسيحدث عطل يؤدي إلى عدم وصول الرسالة على الوجه المقبول.

قيل لأبي تمام: لَمَ تقول مالا يُفهَم؟ فأجاب: ولَمَ لا تفهم ما يُقال؟

أدوات الاتصال:

أدوات الاتصال عديدة، فهنـاك:

---

(١) مقدمة في النقد الأدبي: ص ٢٩ – ٣٠ وانظر فيها عملية الإبداع.

١- **أدوات لغوية، وهي إمّا شفهية، أو كتابية:**

- **شفهية**، مثل: القراءة، والإلقاء، والمحاضرة، والخطبة، والاقتراح، والشكوى، والمداخلات، والأسئلة، والمقابلة الشخصية، والاتصال بالهاتف.
- **كتابية**، مثل: الرسائل، والمقالات، والكتب، والصحف، والمجلات

٢- **أدوات غير لغوية**، مثل: التعبير بالحركات والعيون.

٣- **أدوات الاتصال التصويرية**، مثل: المصورة، والتلفاز، والسينما، والصور، والنحت.

واللغة هي وسيلة الاتصال وأداته المثلى، وإن شاركتها وسائل أخرى، إلّا أنّ اللغة تبقى أهم وسائل الاتصال وأيسرها وأبقاها.

فالفوز الإنساني منذ بدء الخليقة كان للكلمة، وعندما تساءلت الملائكة عن سبب خلق آدم، والفائدة من ذلك، فإن كان للطاعة والعبادة؟ فهم المسبحون لله، المقدّسون له ﷻ، إذ قال الله تعالى لملائكته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ البقرة.

وهنا كان الفوز لآدم عليه السلام عندما أمره ربُّه جلَّ وعلا بأن يخبرهم: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ البقرة.

والله ﷻ يختبر إبراهيم عليه السلام بكلمات، فيتمّها عليه السلام، فيجعله الله ﷻ إمامًا: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة.

فسُدَّة النبوة والإمامة حصلّها أبو الأنبياء عليه السلام بعد اجتياز الكلمات أي الابتلاءات.

أمّا سيدنا يوسف عليه السلام، فإنَّ قدرته الكلامية تخرجه من السجن، وتحوّله من سجين الملك إلى وزيره ومستشاره، وكان ذلك بعد أن خضع لفحص، فقد حاوره الملك، وناقشه، فوجده متكلمًا فصيحًا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ سورة يوسف.

وموسى عليه السلام تعيقه الكلمة عن أداء رسالته، فقد كان يُعاني من حبسة في لسانه، فطلب من ربه ﷻ أن يُشرك أخاه هارون في أمره، وذلك لفصاحة لسان هارون، فترفع هذه الفصاحة والقدرة الكلامية هارون عليه السلام إلى سُدَّةِ النُّبوَّة، قال موسى عليه السلام: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ القصص.

ولقد شُغل الأقدمون من سلفنا على اختلاف درجاتهم، من: حكام، وولاة أمر، وعلماء، وأدباء، ومربين، ومعلمين، بقضية اللغة وحفظها، وتوصيلها لأولادهم وأبناء العربية أينما كانوا، بل وللأجيال القادمة.

وقد كان فهمهم للغة على أنها الوسيلة المثلى للتوصيل هو الذي جعلهم يُقبلون على دراستها وتدريسها، وكان لهم من وعيهم وفهمهم للدراسة والتدريس، بأن وضعوا المناهج والطرائق التي تيسر اللغة دراسةً وتدريسًا.

فانكبوا على دراسة اللغة بوسائل وأساليب وطرائق عديدة: تشرح، وتوضح وتوجز، وتنتخب.

أما التعليم والتدريس فقد كان لهم فيه منهجهم المبني على:

١- **التدرج**، ويعني الانتقال درجة درجة في التعليم، من الأسهل إلى الأصعب، مع شيءٍ من التؤدة، بحيث لا يخرج من شيءٍ إلى شيءٍ حتى يتمَّه.

٢- **الحصر**، ومعناه: تضييق عدد المواد التي يدرسها الطالب حتى يتقنها، فلا يخرج من علم إلى علم حتى يتمه أو يحسنه، لينتقل إلى العلم الثاني.

٣- **الحاجة**، فالحاجة أم الاختراع، وهذا لا يعني حاجة المتعلم فقط، وإن كان لها مكانة، ولا يعني إهمالها وإغفالها، وإنَما حاجة المجتمع هي الدافع القوي الذي يقرر ما هو بحاجة إليه، وما ليس بحاجة.

٤- **الطرائق والأساليب**، ولا شكَّ أنَّ الفرق كبير بين الفصيح المتكلم الذي يبين عن حاجاته، وبين الأبكم الذي لا يقدر على شيء من ذلك، ولذلك فقد ضرب الله ﷻ بهما المثل، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ النحل.

وأخيرًا فالكلمة الطيبة بتأثيرها وقدرتها على النماء الدائم العطاء مثل الشجرة الطيبة، يقول الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

﴿٢٥﴾ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ إبراهيم.

فالكلمة ترفع وتضع، وتُعلي وتُخفض، قد يُلْهَمُها صاحبها، في: طلب، أو خطاب، أو حوار، أو جواب لسؤال، فتضعه على القمة، وفي مصاف الكبار، وقد تنزل به إلى أسفل السافلين، وتضعه في الحضيض بعد أن كان في علّيين.

قد تعتق رقبته من حبل الموت، أو تفكُّ أسره، وتطلق سراحه، وقد تقيّده بالأغلال، وتلقي به في غياهب السجون، وهناك أمثلة كثيرة، ونماذج متعددة، فالغلام الذي وقف بين يدي الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك هو نموذج فريد يؤيد ما قلناه، وقصة فصاحة هذا الغلام جعلت الخليفة يأمر بقضاء حاجة قومه، وفي العرض لها تبيان لقيمة الكلمة، وإظهار لأثر البيان، ومجملها ما ورد في كتب الأدب[1]:

قحطت البادية في أيام هشام بن عبدالملك، فقدمت العرب من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم، فدخلوا عليه، وفيهم درواس بن حبيب، وله أربع عشرة سنة، عليه شملتان وله ذؤابة، فأحجم القوم، وهابوا هشامًا.

ووقعت عين هشام على دِرْواسٍ فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشاءُ أحدٌ أن يصل إليَّ إلاَّ وصل ! حتى الصبيانُ؟!

فَعَلِمَ دِرْوَاسُ أنه يُريدُه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ دُخولي لم يُخل بك شيئًا، ولقد شَرَّفني، وإنَّ هؤلاء القومَ قَدِموا لأَمْرٍ أحجموا دونه، وإنَّ الكلامَ نَشْرٌ والسُّكوتَ طَيٌّ، ولا يُعْرَفُ الكلامُ إلاَّ بنشره.

(١) الأطفال في التراث العربي: ص ١٥٦ - ١٥٧.

فقال له هشام: فانشر لا أبا لك!! وأعجبه كلامه.

فقال: أصابتنا سنونَ ثلاثٌ: فسنةٌ أذابتِ الشحمَ، وسنةٌ أكلتِ اللحمَ، وسنةٌ أنقتِ العظمَ، وفي أيديكم فضولُ أموال، إن كانت لله ففرِّقوها على عباده المستحقين لها، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، ولا يضيع أجر المحسنين.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالي من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة للجسد إلا به.

فقال هشام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذرًا، وأمر أن يقسم في باديته مائة ألف درهم، وأمر لِدِرْواسٍ بمائةِ ألف درهم، فقال: يا أمير المؤمنين، اردها إلى جائزة العرب، فإني أكره أن يعجَزَ ما أمرَ لهم به أميرُ المؤمنين عن كفايتهم.

قال: فما لك من حاجة تذكرها لنفسك؟

قال: ما لي من حاجةٍ دون عامة المسلمين.

وورد في كتب الأدب أن الحجاج قال لأحد الأعراب، وهو القبعثرى[1]: (لأحملنّك على الأدهم) وأراد به القيد، أي أنه سيسجنه ويقيده. وهنا يدرك هذا السجين أنّ عليه أن يحسن الرد، وأن يحوّل نية الحجاج ومراده إلى أمر آخر يتفق لفظًا، ويختلف معنًى، وهو بهذه الوسيلة يستطيع أن يغيّر المفهوم الذي أراده الحجاج، وذلك أن لفظ الأدهم له معنيان، فهو يعني القيد، ويعني الفرس، فحمل كلام الأمير على محمل الخير، فقال: (مثل الأمير من يحمل على الأدهم

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة ٦٢٢.

والأشهب) فكان هذا التحويل والصرف من التهديد بالوعيد، إلى التفكير بالإحسان، وهـذا من حسـن التلطّف، الذي يبعث على فعل الخير، وهو مـا أدّى بالحجاج في ألا يخيّب ظن هذا الرجل، فمنّ عليه وأعطاه حصانًا أدهم، وأكرمه!

ومـن هذا قول الطبيب لمن غلبت عليـه الصفراء، إذا قال: أشتهي العسل. فيقـول له الطبيب: بالخل. فإنّه تلطف به غايـة التلطف في الإجابة إلى شهوته، مضافة إلى ما يدفع ضرره، حيث قيدها بالخل [1]).

وظائف الاتصال:

للاتصـال وظائف عديدة، تختلف باختـلاف الأركان والوسائل والغايات، وقـد حاول الفقهاء، وعلماء النفس والاجتماع، والمربون، والمختصون بالإعلام، تبيان هـذه الوظائف كلٌّ على حسب ميدانه وأغراضـه، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك، ما يلي:

١- **التلقي والتعليم:** الاتصال الأدبي واللغوي هدفه الأساس، وغرضه هو التعليم، فمنذ أن يبدأ الطفل بالاستماع، يبدأ استقباله التعليمي يستمر في تلقي الرسائـل التي تحمل إليه إضافة علمية جديدة في كل لحظة من لحظات حياته، فيمر في سني عمره عبر وسائل تلقٍّي من صفه الأول، وحتى يبلغ غايته.

٢- **الاتصال بالتراث:** الأدب وسيلة تصلنا بتراث الأمة، وتراث الأمة ليس أشياء مضت، وعبرت، وإنّما هو قواعد وأسُس نبني عليها، كما قال الشاعر[2]:

نبنِي كما كانَتْ أوائلُنا تبنِي ونصنعُ فوقَ ما صنعُوا

(١) طراز الحلة وشفاء الغلة: ص ٦٢٣.

(٢) الأغاني ٢/٥٠ والبيت للمتوكل الليثي.

فـتراث أي أمة هـو جزء أساسي مـن كيانها وشخصيتهـا وتاريخها، فكل حضارتها وثقافتها عبر تدرجها العلمي، وما خلفته من مؤلفات، وما وصلت إليه من رقي علمي وحضاري، وما كانت عليه من عادات وتقاليد، كل ذلك يصب في تأكيـد معارفنا، وترسيخ مفاهيمنا، ويضيـف إلى خبراتنا ما يسهل علينا عملية العبور الحضاري، والتقدم العلمي.

٣- **الإخبـار والمعلومـات:** يتلقى المستقبل في كل حين أخبارًا ومعلومات من دقيقها إلى جليلها، ومن قليلها إلى كثيرها، والأخبار والمعلومات قد تتعلق بالفرد أو بالمجموع، وقد تكون خاصة أو عامة، كما تختلف في أشكالها وأنواعها، فالخبر السياسي غير الاقتصادي أو العلمي أو الاجتماعي.

٤- **تعميـق الثقافة وسـعة المدارك:** الاتصـال بالمعرفة من خلال المؤلفات والكتـب والمعلمين، ومـن خلال الوسائل الأخرى، والخـبرة بالحياة والناس، كل ذلك يؤدي إلى اتساع الثقافة وتأكيدها وتعميقها.

٥- **الإمتاع والترفيه:** الأعمال الأدبية - من: شعر ونثر بأشكالها المختلفة: كالمقالة والقصة، والمسرحية - تبعث فينا المتعة، وتجلو عنا صدأ الحياة، وإذا كان للقلـوب صدأ كصدأ الحديد، فإن السياحة في الفنون الأدبية تجلو هذا الصدأ، وتبعث فينا النشاط والحيوية، والإقبال على الحياة والعمل.

٦- **امتلاك القدرة على الاتصـال:** إن الخلق قد خلقوا ليتصلوا بخالقهم عن طريـق العبـادة، مصداقًا لقولـه تعـالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات.

وخلقهم الله ﷻ ليتعارفوا، والتعارف هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ الحجرات.

والتعارف والتواصل والتفاهم من أهداف هذا الخلق، ولا يمكن أن يتم ذلك دون تفاعل بيننا وبين الآخرين، ولحاجة الإنسان الشديدة إلى هذا الاجتماع والتفاهم، كان الحرص على امتلاك هذه القدرة ضروريًّا للنجاح في هذا الاجتماع الإنساني، فنحن حين نتعلم هذه المهارات، نتعلمها كأيِّ علم نريد استخدامه، فالذي يملك القدرة في الطب أو الهندسة إنما يمتلكهما لاستخدامهما، كذلك من يتعلم مهارات الاتصال فهو يريد الوصول إلى غاية هي النجاح في هذا الميدان.

أنماط الاتصال:

تتعدّد أنماط الاتصال عند الباحثين، ولعلّ الجاحظ من أوائل من نصبوا أنفسهم للتعريف بأنماط الاتصال، فذكر لنا خمسة أنواع في حديثه عن الكتابة والكتاب في كتابه الحيوان، يقول[1]:

(وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة..... وهذه الخصال هي: (اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والخصلة الخامسة ما أُوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة، ووضوح البرهان في الأجرام الجامدة الصامتة، والساكنة التي لا تنبس ولا تحس، ولا تفهم ولا تتحرّك إلاّ بداخل يدخل عليها) فهذه الأنماط التي أوردها الجاحظ في هذا النص لا

(١) ١/ ٢٧٥.

تبعد كثيرًا عمّا ذكره المحدثون من علماء الاتصال، ونستطيع أن نضع هذه الأنماط في النظام الآتي:

أولًا: الاتصال اللفظي: وهو الاتصال الذي يتم عن طريق الألفاظ، وقد يكون:

أ. **بين الشخص ونفسه**، أي اتصال ذاتي، وهو ما نسميه بالنجوى أو حديث النفس، سواء من خلال التفكير أو التعبير بالخيال أو بصوت مرتفع، وهذا الشكل يبدو حضوره في المسرح كثيرًا، وهو الحديث الجانبي الذي يقوم به شخص بافتراض عدم سماع هذا الحديث من قبل آخرين.

ب. **بين الشخص وآخرين**، وهو الاتصال الجمعي الذي يتم بين فردٍ وفرد، أو فردٍ ومجموعة، أو مجموعة مع فرد، أو مجموعة أخرى، وهذا هو الشكل أو النمط المألوف من الاتصال؛ لأننا نريد بلوغ حاجاتنا من الآخرين، كما يرى الجاحظ، إذ يقول: [1] (**لم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخّر له، فأدناهم سُخّر لأقصاهم، وأصلهم ميسّر لأولهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب، وأحوج السوقة إلى الملوك في باب، وكذلك الغني والفقير، والعبد وسيده**) وهذا الكلام من الجاحظ يكاد يشرح الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الزخرف.

ولا شك: أن هذا الرأي الذي قدمه الجاحظ هو ما نجده عند ابن خلدون في قوله عن حاجة الإنسان للاجتماع والاتصال: (**الإنسان مدني بالطبع** [2]).

---

(١) الحيوان السفر الأول: ص ٣٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١/٥.

ثانيًا: الخط، ويعني بـه الكتابة، فاللفـظ هو الاتصال المباشـر، والكتابة بأشكالها المتعددة لون من ألوان الاتصال غير المباشر، فالتأثير الشخصي للكاتب يختفي بغيـاب شخصه؛ لأن بعض المؤثرات التي تحـدث نتيجة مباشرة الاتصال والمواجهـة بين المرسل والمتلقي تـكاد تختفي، فنحن حين نقـرأ مقالة، أو نتصفح كتابًـا أو صحيفة، فإنّ الأثـر الشخصي لا نواجهه في أثناء القـراءة، بينما يظهر هذا الأثر الشخصي في مواجهة من يخاطبنا، فالخطاب أصالة، والكتابة نيابة.

ثالثًا: الإشارة، ولعل حديثنا عن اللغة الإشارية فيما سيأتي يكاد يكون كافيًا.

رابعًا: العقد، وهو نوع من الحسبة على الأصابع، وهو قريب من الإشارة.

خامسًا: النُّصبة، أي الأشكال والنماذج التـي نراها في الطبيعة والحياة، فقـد تقدم لنا بعض المشاهـد والمرائي إيحاءات أو دلالات عـن شيء ما، فرؤية مئذنةٍ، أو قلعةٍ، أو سورٍ، أو مدرجٍ، يعطينا دلالات معينة.

عناصر الاتصال:

يـكاد يجمع القدماء والمحدثون من المختصين في مهارات الاتصال على أن عناصر الاتصال تكمن في: **(المرسل، والمتلقي، والرسالة، وقناة الاتصال)** وفيما يلي توضيح لخصائص كل عنصر وسماته على حدة:

أولاً. المرسل/ المتصل:

ويطلـق عليه البعض المتصـل، وهو الذي يقع عليه عـبء الاتصال أيًّا كان سـواءٌ أكان: خطيبًـا، أم شاعـرًا، أم كاتبًا، أم معلمًا، أم مديـرًا، أم رئيسًا، أم صاحـب حاجة، ويشترط في المرسل إتقـان أداء رسالته، ولينجح في أدائها لا بدّ من أن يتّسم بسمات، أهمها:

١- **إجادة اللغة**، فمن يحسن اللغة يحسن التعبير عن حاجاته من خلالها؛ لأن اللغة كما يقول ابن جني في تعريفها: (**أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم** [١]) وإجادة اللغة تحتاج إلى التعليم، وحفظ الجيد من: أشعارها، وأمثالها، وخطبها، وحكمها، ومعايشتها، وممارستها في كل وقت.

٢- **الثقافة الواسعة والفهم العميق:**

التمكن من اللغة وحدها ليس كافيًا للإتقان والإجادة التامّين، فلا بدّ من ثقافة واسعة عريضة تردف الإجادة اللغوية وتُنمّيها، فمعرفة علوم العربية من: نحو، وصرف، وبلاغة، وفقه لغة، وأدب، ونقد، هو القاعدة الأولى، فإن البناء لا يعلو ويظهر إلّا من خلال ثقافة تلمُّ بتراث الماضي والحاضر، وتعود إلى المصادر الجادة، والمراجع القيمة.

يقول الصفدي في ثقافة الكاتب [٢]:

(**أمّا الكاتب فيحتاج إلى حفظ كتاب الله العزيز، وإدمان تلاوته؛ ليكون دائرًا على لسانه، جاريًا على فكرته، ممثلاً بين عينيْ ذاكرته؛ لينفق من سعته، وإلى معرفة اللغة والنحو... والتصريف، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، والقافية.... وعلى الجملة فالكاتب يحتاج إلى كل شيء**).

٣. **الخلو من العيوب النطقية للمتكلم**، فالاتصال الشفوي قد لا ينجح بوجود هذه العيوب: كاللثغة، والفأفأة، والتأتأة، والتمتمة، وغير ذلك مما يصيب اللسان من آفات ضعف النطق: كالحُبْسة، والثقل، والعُقلة، واللكنة. ولا شك في أن سلامة اللسان من هذه العيوب تكون عاملاً مهمًّا في وضوح الرسالة وفهمها.

---

(١) الخصائص ١ /٣٣ وانظر اللسان مادة (لغو).

(٢) نصرة الثائر على المثل السائر: ص ٦٣- ٦٥.

٤. المكانة الاجتماعية والعلمية: تساعد المكانة الاجتماعية والمركز العلمي في التأثير الإيجابي على استقبال الرسالة، فكلما كان المرسل ذا مكانة مرموقة، يطمئن إليها الناس ويثقون فيها، ويقدرونها، ويحترمونها، كلما كان استقبال رسالته، والترحيب بها أكثر، وهذا لا يعني أن قيمة الرسالة الأدبية تنبع من مكانة مرسلها فقط، ولكن المكانة تعطيها أهمية زائدة، و إلّا فما قيمة المكانة إذا كانت الرسالة ضعيفة، ومشوشة، وشائهة؟

٥- الصدق الحقيقي والفني: وهما صدقان قد يختلفان ظاهرًا، ويتفقان باطنًا، وقد يكون أحدهما مظهرًا للآخر، ويُقاس الصدق الحقيقي بالمقاييس الاختبارية للصدق، كموافقته للواقع والتجربة، وللظواهر الطبيعية، والقواعد العلمية المعروفة، أمّا الصدق الفني فيعرفه المتلقي، ويصدر حكمه عليه من خلال صدق تأثره به، فالمقولة بأن الشمس تشرق من المشرق، مقولة صادقة في الحقيقة يصدقها ما نراه، ولكن المقولة بأن الشمس تشرق من المغرب لا يصدقها الواقع، ولكن الشاعر قد يقول ذلك إحساسًا بوقع الصدمة، أو تمثيلاً لحال كما قال طرفة[١]:

إنْ تنوِّلْهُ فقدْ تمنعُه وتريهِ النَّجْمَ يجري بالظُّهُر

٦- شدة الجذب والتأثير للمرسل والرسالة أيضًا: فكلما كان للمرسل جاذبية قوية كان تأثيره أقوى في المتلقي، والجاذبية تتنوع وتتشكّل، فقد تكون شخصية أي ما يتوافر لها من سمات الرضا والقبول في رسمه وجسمه، وقد تعود للتشابه والتوافق في: الرأي، أو الاتجاه، أو العقيدة، أو المصلحة، فالتقدير والحب الذي يلقاه المرسل من المتلقي يكون أقوى وأشد جذبًا؛ لأن عين المحب دائمًا راضية، ومقبلة، وكما قال الشاعر[٢]:

---

(١) ديوان طرفة: ص ٢٦.

(٢) محاضرات الأدباء ١/٣٤٩.

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبدي المساويا

وتحبيذ الرسالة، والقبول بها، والإقبال عليها، بغض النظر عن مرسلها، يقوى ويتأكَّد؛ لأنَّ مضمونها يحقق لنا رغبة، أو نزعة، وقد تُرفض الرسالة، أو تُقبل على مضض على الرغم من شدة جاذبية المرسل؛ لأن مضمونها جاء غير متفق ورغبات المتلقي، ففي قصة تأجيل العمرة بعد صلح الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بذبح هديهم، وكأنَّ هذا الأمر قد خالف رغبتهم في أداء العمرة، فتلكؤوا في تنفيذه، حتى قام رسول الله ﷺ فذبح، فتدافع الصحابة يفعلون فعله.

ثانيًا: الرسالة: يتوقف فهم الرسالة، والإحاطة بمضمونها من قبل المتلقي على درجة وضوحها، فوصول الرسالة واضحة غير مشوشة، كاملة غير منقوصة، يكون أبين وأظهر، لذلك فإنّ هذا الفهم يتوقف على مدى تعدد وتنوع (**وتكامل الإشارات التي تحمل الرسالة، فالرسالة التي تنقل بوساطة الصوت والصورة تكون في أغلب الأحيان أوضح من الرسالة التي يتم نقلها بإحدى الوسيلتين فقط، كما أنّ الصورة المتحركة أفضل من الثابتة، والصورة الكاملة تكون أفضل من الصورة الناقصة** [1]).

وكذلك فالصورة اللفظية المشوشة وغير الواضحة لا يستطيع المتلقي فهمها الفهم الدقيق، ومثال ذلك بعض الكتب المخطوطة القديمة التي تتعرّض صفحاتها وحروفها للرطوبة أو للأَرَضَة، فلا تكاد بعض حروفها أو ألفاظها تظهر، ممّا يجعل المحققين يعجزون أحيانًا عن قراءة النص وفهمه، ويُقاس على ذلك كل رسالة غير واضحة المعالم.

---

(١) سيكولوجية الاتصال: ص ٩٣.

أسلوب الرسالة الناجحة:

١- **مخاطبة المتلقي بأمر مهم وجديد:** الجديد الطريف يبعث على الاهتمام، والمعاد المكرور يبعث على السأم والملل، فالحرص على الإتيان بالفكرة الجديدة أو الأسلوب المبتكر يجعل القلوب تُقبل عليه، وتصغي له، وتستشرفه الآذان والأفئدة.

٢- **الصياغة:** جودة المادة وحدها لا تكفي، فالذهب واحد، والصياغة مختلفة، منها ما يصعد بالثمن، ومنها ما يهبط به، والأزهار جميلة، ولكن فضل التنسيق عظيم، كذلك لا تكفي الألفاظ والجمل والعبارات مهما حاول الكاتب في تمثلها وتخيلها واختيارها، فصياغتها في أسلوب أمثل هي التي ترفع قدرها.

٣- **الجانب العاطفي:** للعاطفة جانبها التأثيري في نفوس المتلقين، وكلما استطاع المرسل بعث العواطف، وتحريكها أيًّا كانت هذه العواطف: دينية، أو وطنية، أو اجتماعية، أو ذاتية، فإن نجاحه يظهر من خلال هذه العواطف.

٤- **التشويق:** السعي للوصول إلى الخبر أو المعلومة يجعل المتلقي في انتظارها، وأسلوب التشويق فن يحتاج إلى فهم وممارسة.

٥- **ملاءمة السياق:** التآلف ما بين العبارات، وملاءمة الفكرة للموضوع المطروح، يؤديان إلى اتساق وتناغم، وانسجام وتلاؤم.

٦- **عدم الخلط بين موضوعين:** عدم التركيز على موضوع واحد في الرسالة الواحدة يؤدي إلى تشتيت المتلقي، ولذلك لا بد من عرض موضوع واحد؛ حتى يستقر في الذهن، وتكون الإجابة مرتبطة به.

٧- **مراعاة العنصر الزمني في الرسالة من حيث التتابع والتوقيت:** قد تصل الرسالة في غير وقتها، أو فواته مما يضيع أثرها، فتكون بلا فائدة، من هنا فإنَّ التوقيت له أهمية كبيرة.

وقد وضع لنا ضياء الدين بن الأثير ضوابط وأركانًا للرسالة الناجحة، لا بدّ للمرسل من أن يأتي بها، وهي خمسة كما يقول[1]:

(وأمّا الأركان التي لا بدّ من إبداعها في كل كتاب بلاغي -يقصد الرسالة-ذي شأن فخمسة:

الأول: أن يكون مطلع الكتاب عليه جِدّةٌ ورشاقة، فإنّ الكاتب من أجاد المطلع والمقطع.

الثاني: أن يكون الدعاء المودع في صدر الكتاب مشتقًا من المعنى الذي بني عليه الكتاب.

الثالث: أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة؛ لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون مقتضبة.

الرابع: أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظًا غريبة، فإنّ ذلك عيبٌ فاحش، بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكًا غريبًا، يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس، وهناك معترك الفصاحة الذي تظهر فيه الخواطر براعتها، والأقلام شجاعتها.

الخامس: ألا يخلو الكتاب من معنى من معاني القرآن الكريم، والأخبار النبوية، فإنها معدن الفصاحة، والبلاغة.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١ / ١٢١ - ١٢٥.

فابن الأثير في هذه الأركان يجمل لنا ما أوردناه في أسلوب الرسالة، فيركز على البداية الموفقة الناجحة، مع ارتباط المقدمة بموضوع الرسالة، إلى جانب الوحدة الموضوعية، والبعد عن الخروج عن المقصود، واستخدام الألفاظ التي يرى المتلقي فيها الجدة على الرغم من كونها مستعملة، ولكنها ليست من تلك الألفاظ المبتذلة ولا الغريبة الحوشية في الوقت ذاته، وأخيرًا فإن على الكاتب أو المرسل أن يوشّح كتابه بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تزيد الرسالة جلاءً وبهاءً، ودلالة وإقناعًا، وقبولاً.

ثالثًا: قناة الاتصال:

تتعدّد قنوات الاتصال، وتتنوع سواء في الاتصال الشفوي أم الكتابي، ونعني هنا بقناة الاتصال: الوسيلة التي يتم عبرها نقل الرسالة، ففي الاتصال الشفوي يكون الخطاب هو الوسيلة الواضحة، فهو قناة الاتصال سواء أكان هذا الخطاب مواجهة ما بين شخصين، أم مسموعًا من إذاعة أو تلفاز، وفي الإشارة تكون حركات الوجه أو الجسد أو العين هي القناة، أمّا في الاتصال الكتابي فالأوعية التي تحمل الرسالة المكتوبة هي القناة، وهذه قد تكون: قرطاسًا، أو كتابًا، أو صحيفةً، أو مجلة، أو مطوية، أو أي شكل من هذه الأوعية التي تتم الكتابة بها.

ولقناة الاتصال - مهما تنوعت أشكالها - ضوابط لا بد منها، نجملها في ضابطين هما:

ضابط لغوي: بحيث تكون الرسالة محكمة من حيث الضبط اللغوي، في سلامة الأداء، وصحة البناء.

ضابط فني: ويعني ذلك عدم شكوى القناة من أي خلل فني، فالخلل الصوتي، كما في المشافهة، وسماع الأصوات الإذاعية والتلفازية يؤدي إلى خلل

في الاستقبال، والخلل المضموني في الاتصال الكتابي: كنقص في المعلومات، أو إتلاف جزء من الكتاب، مثل: المحو، والسقط، والطمس، والسهو، والإفساد، كل ذلك يؤدي إلى استقبال ناقص وغير واضح.

رابعًا: المستقبل/ المتلقي/ المخاطب/ المرسل إليه:

كل ذلك سواء، وهو الذي يستقبل الرسالة سماعًا أو قراءةً، وهو الطرف الثاني المعني بالرسالة: فهمًا، واستيعابًا، وأداءً، ولكي يكون أثر الرسالة واضحًا في المتلقي، فلا بدّ من توافق بين المرسل والمستقبل، والرسالة كذلك، كما لا بد من شروط تتوافر في المستقبل؛ حتى يستقبل الرسالة، وكلما كان المستقبل يتمتع بسمات وخصائص إيجابية فإن تلقي الرسالة يكون إيجابيًّا، والعكس بمثله، ولذلك فإن الباحثين والدارسين يفترضون عددًا من السمات التي يجب توافرها في المستقبل، وأستطيع أن أُوجزها في الآتي:

١- **الحصيلة العلمية والثقافية**، وتوافر هذه الحصيلة يُمكِّن المستقبل من فهم الرسالة، والنظر فيها وتحليلها ونقدها والحكم عليها.

٢- **الذكاء والبلادة**، وهاتان صفتان متناقضتان، وكلما اتسعت دائرة إحداهما ضاقت الأخرى، وبقدرها يكون تقبل الرسالة.

٣- **المرونة والانغلاق**، وكذلك هاتان من الصفات المتضادة، فقد يمتلك المستقبل الحصيلة العلمية، ويتميز بقدر من الذكاء، ولكن مرونته أو انغلاقه تتحكمان في نسبة الإقبال والقبول.

٤- **الاتفاق والاختلاف**، على الرغم من القاعدة الذهبية في أن الاختلاف لا يفسد للود قضية، إلّا أنّ تأثير الاتفاق والاختلاف قد يمكّن الود وقد يتلفه، والاتفاق والاختلاف لا يقفان عند جانب معين، فقد يكونان في:

الطبـاع، أو المنهـج، أو الاتجـاه، أو الرؤية، أو المصلحـة، أو الدين، أو المذهـب، أو غـير ذلك مما نتفق عليـه، أو نختلف فيـه، فما يتفق فيه المستقبـل مـع المرسل أو مع الرسالـة في الأهـداف والأغراض، يتلقى ذلك بالقبول، وما يرفضه يُعرض عنه، ولا يستجيب له.

الفصل الثاني

أساليب الاتصال

وفيه:

- اللغة الإشارية.
- واللغة المنطوقة.
- واللغة المكتوبة.

١- اللغة الإشارية:

الإشارة لون من ألوان التعبير الفاعل الذي نستخدمه في حاجاتنا وأغراضنا، ونستطيع من خلاله أن نعبّر بصمت عمّا نريد، وتتم الاستجابة من الطرف المستقبل بطريقة أكثر قبولاً، وتفهمًا وسرعة؛ كون هذه اللغة الصامتة تمثّل جوانب أداء مفعمة بالحيوية، وناضحة بالتأثير من خلال أمور عدة، وهي:

أولاً: الإيجاز:

حيث إنّ الطلب من: أمر، ونهي، أو قبول، ورفض، أو التعبير عن عاطفة ما، يتم من خلال: حركة، أو إشارة، أو لمسة، وهذه تكون كافية لأداء المطلوب منها أداءً معبِّرًا.

ثانيًا: التواصل العاطفي:

إن التعبير عن عاطفة معينة: كالحب، أو الشفقة، أو الإعجاب، أو الحزن، أو المواساة، أو حتى عاطفة الكره، تظهر من خلال نظرة بالعين أو حركة بالجسد، أو تعبير بعضلات الوجه، فالإشارة من اليد قد تحتمل عاطفة ترحيب كأن تفتح يديك، وبحركة مفارقة بظهر اليد تعبر عن رفض وازدراء ونفور، وكذلك التربيت على الكتف أو مسح الرأس، أو الابتسامة العريضة، أو الخطوط التي تظهر على الجبين، وعقد الحاجبين، وغير ذلك.

ثالثًا: سرية الأداء:

يستطيع المرسل في هذه اللغة، وفي غياب من الرقيب أن يرسل ما يشاء من: أوامر، ونواهٍ، وعواطف، دون خوف من: إعلان رأي، أو توجس من اعتراض أحد، أو نميمة نمّام، فالخشية من التصريح بعاطفة ما في حضور اجتماعي تغيب

في التعبير الإشاري، فنستطيع أن نوافق، أو نعارض، أو نغيّر، أو نبدّل، أو نوجّه ونعدّل من سلوك الآخرين وآرائهم، دون أي شعور بحرج أو خوف أو خشية.

٤- الجرأة:

ما لا نجرؤ على قوله يساعدنا التعبير الإشاري في الإفصاح عنه، فما لا نقدر على البوح به من خلال اللغة المنطوقة نتمكن من إظهاره بالإشارة، وإيصال مشاعرنا لغيرنا بنجاح، ودون أن يترتب على ذلك ما يترتب على الكلام من نتائج.

٥- الحزم:

في هذه اللغة من الحزم ما قد لا يوجد في اللغة المنطوقة، فهي لا تحتاج إلى مبررات وأدلة إقناعية، فقدرة حركة ما على التوجيه والسيطرة وتغيير السلوك، قدرة بينة واضحة.

أشكال اللغة الإشارية: لهذه اللغة أشكال منها:

١. **حركة الرأس:** في الرأس تكمن معظم اللغة الإشارية؛ لأن حركات الوجه والعينين يتضمنها، ولكن للتمييز بين هذه الحركات، سنفصل القول في كل واحدة على حدة:

- فحركة الرأس للأعلى حركة واحدة تعني الرفض.
- وفي المقابل حركته للأسفل تعني الموافقة.
- وحركته المتكررة يمينًا وشمالاً تدل على عدم المعرفة والتأكد.

وإذا أردنا أن نترجمها إلى حروف وكلمات، فنقول: الأولى (**لا**) والثانية (**نعم**) والثالثة (**لا أدري**) كما أن هذه الإشارات قد لا تتفق عليها الشعوب المختلفة، فالحركة الأولى مثلاً، هي عند بعض الشعوب عكس ما هي عندنا.

٢- **تعبيرات الوجه:** في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ سورة الفتح: آية ٢٩. إبانة واضحة عن أنّ حركة الوجه تعبر عن حال صاحبه ونفسيته، فالوجه هو المُعَبِّر عن المكنونات والمعبرُ إليها، فالوجه يقوم بوظيفة اتصالية، وينقل لنا وعنّا الأحاسيس والمشاعر، لدرجة أننا نستطيع قياس ومعرفة درجة مشاعر ومواقف الآخرين، من خلال ما يرتسم على وجوههم من علامات، فالله ﷻ قال في عتاب سيد الخلق عندما جاءه ابن أم مكتوم؛ ليتعلم منه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ عبس.

وفي تفسيرها: أي كلح بوجهه، وتولى أي أعرض بوجهه.

وقال تعالى عن الوليد بن المغيرة: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ المدثر.

والعبوس: التقطيب أي قطّب ما بين عينيه، وبسر: أي تغيّر وجهه واسود، وقد حصر أحد الدارسين التعبيرات الوجهية في الآتي: (**الألم، والغضب، وخيبة الأمل، والحزن، والاشمئزاز، والخوف** [١]) ورأى آخر أنها: (**السعادة، والمعاناة، والدهشة، والتصميم، والاشمئزاز، والامتناع**[٢]).

البِشْر وطلاقة الوجه:

لعلَّ علامات الوجه خير رسول، وأفضل ناطق معبِّر، فطلاقة الوجه تلقي في قلب المتلقي راحة وقبولاً، وتكسب صاحبها مودة، وبعكسها يكون العكس، يقول أحد الشعراء:

البشرُ يُكسبُ أهلَهُ صدق المحبة والمودةْ
والتّيهُ يستدعي لصا حبه المذمَّةَ والمسبَّةْ

(١) سيكولوجية الاتصال: ص ١١٧.

(٢) المرجع السابق: ص ١١٨.

ويدخل هذا في باب الإحسان والإساءة؛ لأن الإحسان لا يكون فقط بالعطاء، وإنما يكون بالتوقير والاحترام، والبشر وطلاقة الوجه، فالكلمة الطيبة صدقة، وتبسمك في وجه أخيك لك صدقة، و(**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها**[1]).

لغة الإشارة بالعيون:

لغة فصيحة مبينة، يُعبِّر بها صاحبها عن مكنونات صدره، ويفهم الرائي هذه اللغة الإشارية فهمًا واضحًا؛ لأن العيون هي النبع الفياض لإثارة المشاعر، وإذا كان قصدنا الحديث عن حاسة البصر الإنساني، فإنّ العودة إلى معاجم اللغة فيما يعطيه معنى العين من معانٍ يصبّ كله في تلك القدرة العجيبة لهذه المعاني المختلفة على الاتصال.

فالعين: نبع الماء الفياض الذي يصلنا بالمتعة والجمال، ويتصل بالأرض، فيثير فيها الخضرة والنماء.

والعين: الجاسوس الذي يستخدم عينه في استقراء المعلومات والاتصال بها، والحصول عليها.

والعين: الرجل الكبير في قومه، وكأنه عينهم التي ينظرون بها، فهو الجزء المعبّر عن الكل.

وللعين قوة عجيبة، لدرجة أنها قد تضر، كما جاء قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ القلم.

وقد قال الشاعر في نظر الأعداء بعضِهم إلى بعض[2]:

---

(١) الجامع الصغير ١ / ١٤٨.

(٢) البيان والتبيين ١/٣.

يتقارضون إذا التَقَوْا في موقفٍ... نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِئَ الأقدامِ

وكما قال أحد الشعراء:

له عينٌ أصابتْ كلَّ عينٍ وعينٌ قد أصابَتْها العيونُ[1]

ويقول الصفدي:

يا لَهـا عَين حسـُود ردّتِ الأحْـورَ أعْـور[2]

وبدل أن توجّه الصفات لصاحب العين، اتجهت للعين ذاتها، فقالوا:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عينَ السخطِ تبدِي المساوِيا[3]

والعين شاهد الحب، كما يقول أبو منصور الديلمي:

يا ذا الذي ليس له شاهدٌ في الحبّ معروفٌ ولا شاهِدهْ[4]

شواهدي عيناىَ إنّي بها بكيتُ حتّى ذهبتْ واحِـدَهْ

والعـين تخون، كما ورد في قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ غافر.

والعين نمّامة، كما جاء في المثل العربي: (**احترس من العين، فوالله، لهي أنمُّ عليك من اللسان**[5]).

---

(١) الشعور بالعور للصفدي: ص ١٠٨.

(٢) المرجع السابق: ١٠٧.

(٣) نهاية الأرب ١/١٥٦.

(٤) وفيات الأعيان ٣ /٢٤٧.

(٥) معجم الأمثال للميداني ١ / ٢٠٤.

والعين فصيحة اللغة على الرغم من صمتها، وفي ذلك يقول الشاعر الغزي[١]:

نطقُوا بأعينِهم وأفصحُ صامتٍ دمعٌ يفضُّ ختامَه الأشواقُ

وفي لغة الإشارة يقول[٢]:

إشارةٌ منكِ تكفيني وأفصحُ ما رُدَّ السلامُ غداةَ البين بالعنم

وقول الشاعر[٣]:

وممّا شجاني أنّها يوم ودّعت تولّتْ ودمع العين في الجفن حائرُ

فلمّا أشارتْ من بعيدٍ بنظرةٍ إليَّ التفاتًا أسلمتهُ المحاجرُ

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن إشارة العيون وحركتها، ومعظم الشعر الغزلي ينقل لنا لغة العيون، وكان امرؤ القيس من أوائل من قال[٤]:

وما ذرفَتْ عيناكِ إلّا لتقدحِي بسهمَيكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتّل

فالعيون عند امرئ القيس ترمي بالسهام.

وقد ورد في كتب الأمثال مكانة لغة الإشارة وأهميتها، فقالوا: (**الحر تكفيه الإشارة**[٥]) و (**أسرع من الإشارة**[٦]) وجاء كذلك أنَّ العين تخبر عن حال صاحبها، وتبين عن مجهوله:

---

(١) ديوان الغزي: ص ٤٠٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٥٧٧.

(٣) زهر الآداب ١/٢٩٩.

(٤) ديوان امرئ القيس: ص ٣٥.

(٥) معجم الأمثال ١ / ٢٣٠.

(٦) المصدر نفسه ١ / ٣٥٥.

مثل قولهم: (إنَّ الجوادَ عينُهُ فِرارُهُ [1]).

وفي هذا المعنى يقول بعض البلغاء: اللحظ يعرب عن اللفظ.

وقال آخر: رب كناية تغني عن إيضاح، ورب لفظ يدل على ضمير.

ونظمه الشاعر، فقال:

جعلنا علاماتِ المودّةِ بيننا
دقائقَ لحظٍ هنّ أمضى من السّحرِ
فأعرفُ منها الوصلَ في لينِ لحظها
وأعرفُ منها الهجرَ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ

وفي هذا قال بعض الحكماء: العين باب القلب، فما في القلب ظهر في العين.

وقال الشاعر[2]:

العينُ تُبْدي الذي في نفسِ صاحبِها
منَ المحبَّةِ أو بغضٍ إذا كانا
فالعينُ تنطقُ والأفواهُ صامتةٌ
حتَّى ترى مِنْ ضميرِ القلبِ تِبْيانا

وقال المجنون [3]:

كلانا مظهرٌ للناسِ بُغضًا
وكُلٌّ عندَ صاحبِهِ مكينُ

(١) مجمع الأمثال ٢/١.
(٢) البيان والتبيين ٥٦/١.
(٣) الشعر والشعراء ١٢٢/١.

تُبلِّغُنا العيونُ بما أردْنا
وفي القلبينِ ثَمَّ هوىً دَفينُ

وإذا كانت العين مثار الإعجاب، ومركز الانتباه، فإنّ العين في مجال الاتصال وبؤرته ومركزه الذي يوحي بالآتي:

١- الهدوء والاطمئنان، أو الحذر والتوجس. ٢- الإقناع.

٣- التبرير. ٤- القوة والضعف.

اللغة المنطوقة:

للغة المنطوقة في صورها المتعددة - سواء أكانت: خطابًا، أم حديثًا، أم حوارًا، أم إلقاءً لنصٍ ما - قدرة توصيلية، وسلطة تأثيرية، وقد عرف العرب أثر اللغة المنطوقة الشفهية، وحسبوا لها حسابًا كبيرًا، ودليل ذلك أنّ كفار قريش كانوا يدعون أتباعهم لعدم سماع تلاوة القرآن الكريم، ينطق به رسول الله ﷺ أو بعض أصحابه رضوان الله عليهم، فكانوا يقولون لأتباعهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ فصلت.

وكان سماع الوليد بن المغيرة للرسول ﷺ وقد قرأ عليه بعض الآيات، أن عاد إلى قومه كالمذهول، فلما رأوه على هذه الحالة، قالوا: لقد صبأ الوليد، فأخذته العزة بالإثم، وقال: (**والله ما صبأت، ولكني سمعت من محمد كلامًا ما هو بقول الجن والإنس، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفلهُ لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه** [1]).

وقصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد سماعه أخته وزوجها يتلوان القرآن مشهورة ومعروفة.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ص ٧٤.

وتحدثنا كتب التاريخ والأدب أن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص قائد معركة القادسية، قد طلب قبل بدء المعركة من القرّاء أن يقرؤوا القرآن أمام حشود الجيش المجاهد، والخطباء أن يخطبوا، والشعراء أن يُنشدوا، وبعد أن بلغ بهم الحماس مبلغه، بدأت المعركة، فتقدير أثر الكلمة المنطوقة في توصيل شحنة الحماسة من القائد يدل على معرفته بخطرها وأثرها وقوتها في النفوس، ولذلك قال العرب: (**رب قول أنفذ من صول**[1]) وقالوا: (**جرح اللسان أنكى من جرح السنان**[2]).

وتذكر كتب الأدب أن الشاعر عبد يغوث بن وقاص الحارثي عندما أُسر في إحدى المعارك، ربط أعداؤه لسانه؛ خشية أن يهجوهم، فقال في ذلك[3]:

أقولُ وقد شدّوا لساني بنسعَةٍ: أمعشرَ تيمٍ أطلقُوا عن لسانِيا

وتضحكُ منّي شيخةٌ عبشميّةٌ كأنْ لم ترَ قبلي أسيرًا يمانِيا

وهناك شواهد عديدة على أثر خطبة، أو قول، أو كلمة في تغيير الآراء والاتجاهات، فرب كلمة منطوقة أشعلت حربًا، ورب أخرى أخمدت حربًا. وسنفصل الحديث في المهارات التحصيلية المنطوقة.

اللغة المكتوبة:

تشمل كل ما هو مطبوع مقروء من: الكتب، والصحف، والمجلات، والمطويات، والإعلانات، وبهذه اللغة المكتوبة يحصل الاتصال العام، إذ إنها تعد وسيلة الاتصال الجماهيري، وإذا كان تأثير اللغة المنطوقة محدودًا بحدود

---

(١) مجمع الأمثال ١ / ٢٩٠.

(٢) المستقصى للزمخشري ٢ / ٥٠.

(٣) حماسة أبي تمام ٢/ ٥٢.

زمانية أو مكانية، ومحـدودًا في قوة تأثيره بقوة ناطق الحديث، وجودة الحديث ومضمونـه، وشـدة احتياج السامعين لـه، أو تعبيره عن: حاجاتهـم، وأمانيهم، وآمالهـم، وتطلعاتهـم، فإنّ للغة المكتوبة أثـرًا يتجاوز الآمـاد والأبعاد، ويستمر أثـره، وتشتد قوة توصيله، على مرّ الأيام والأزمان، فكم من كتاب وضع في زمن سابق كان له تأثيره الكبير في اللاحقين، وكتاب الله العزيز وهو أصدق الحديث، شاهـد على ما نقول، فكم من غير المسلمين مـن أسلم من خلال سماعه آية في كتـاب الله،وكم من عالم وقف مشدوهًا أمام إعجـازه العلمي، فلم يجد بدًّا من التسليم لـه. فالكلمة المكتوبة محفوظة وباقية، وأثرهـا مرتبط بهذه الديمومة، وفي قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبناء زهير بن أبي سلمى: (**ماذا أعطاكم هرم؟ قالـوا: أعطانـا مالاً وحللاً. قال: ذهب ما أعطاكم، وبقي ما أعطيتموه**[1]) ما يؤكـد هذا الأثر، فعطـاء اللغة المكتوبة عطاء دائم لا ينقطـع، وأثرها منطبع في القلـوب والعقول إذا اتصفت بصفات التأثير المقـررة في جوانبها: الموضوعية، والأسلوبية، والعاطفية، والعقلية.

واللغـة المكتوبة لا تكمن أهميتهـا في قوتها التوصيلية فقـط، بل هي وثائق غاية في الأهمية، وهي الحافظة لتراث الأمة، والمعينة على تمثله واستحضاره.

وللغة المكتوبة مزايا أخرى، منها:

١- **سـهولة العـودة إليها وقراءتها المرة تلو المـرة**، كما يسهل حملها ونقلها وحفظها، والتعامل معها في الوقت المختار.

٢- **حريـة الاختيـار**، فالقارئ للمـادة المكتوبة حر في اختيـار ما يشاء من موضوعات، أو جزئيات.

---

(١) العقد الفريد ٦/ ١٤٣والعمدة ١/ ٨١.

٣- **التفاعل مع المادة المطبوعة في تقديرها ونقدها، وفي التحليل** والاستنتاج، والإضافة والتعليق. وسيكون حديثنا مفصّلاً عندما نطرق الفصل الثالث المتعلق بوسائل الاتصال، وبالمادة المطبوعة.

نصوص تراثية في الاتصال اللغوي:

من الطرائف أنّ أعمى تزوج امرأة بصيرة، فقالت: لو رأيت حسني وبياضي لعجبت.

فقال: لو كنت كما تقولين، ما تركك لَي البصراء.

ودعا أحدهم على أعور، فقال له: أعمى الله عينيك.

فقال له: قد أُجيبت نصف دعوتك[١].

في فضل الأدب وأهله، وذم الجهل وحمله

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]:

(كفى بالعلم شرفًا أنه يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه من ليس من أهله، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه).

فنظم بعض المحدثين ذلك، فقال:

كفَى شَرَفًا لِلْعِلْمِ دَعْوَاهُ جَاهِلٌ ... وَيَفْرَحُ أَنْ يُدْعَى إِلْيهِ وَيُنْسَبُ

وَيَكْفِي خُمُولاً بِالجهالَةِ أَنَّنِي ... أُرَاعُ مَتَى أُنْسَبْ إِلَيْهَا وَأَغْضَبُ

---

(١) محاضرات الأدباء ٣ / ٢٩٠.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٧٤ والمستطرف ٢١/١.

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: (قيمة كل إنسان ما يحسن).

فنظمه شاعر، وقال:

لَا يَكُونُ الْفَصِيحُ مِثْلَ الْعَيِيِّ ... لَا وَلَا ذُو الذَّكَاءِ مِثْلَ الْغَبِيِّ
قِيمَةُ الْمَرْءِ قَدْرُ مَا يُحْسِنُ الْمَرْ ... ءُ قَضَاءٌ مِنَ الإِمَامِ عَلِيِّ

وقال كرم الله وجهه[2]: (كل شيء يعز إذا نزر، ما خلا العلم، فإنه يعز إذا غزر).

ومر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قوم يسيئون الرمي، فقرعهم، فقالوا: إنا قوم «متعلمين»، فأعرض مغضبًا، وقال: والله لخطؤكم في لسانكم، أشد علي من خطئكم في رميكم.

نموذج تحليلي من الحديث الشريف:

(سيد الاستغفار[3]).

من الاتصال الوجداني مع الله تبارك وتعالى:

روى شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قال: «اللهم، أنت ربي لا إله إلاَّ أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم».

---

(١) نهج البلاغة: ص ٦٧٤ والمستطرف ٢١/١.

(٢) العقد الفريد ١٥٧/١.

(٣) صحيح البخاري ج٨ كتاب الدعوات ومسند الإمام أحمد برقم ١٧١١١.

هذا الحديث الشريف والدعاء المتضرِّع من سيد الخلق لخالق الخلق، أطلق عليه العلماء اسم (سيد الاستغفار).

وهذه السيادة التي حازها هذا الحديث الشريف أتته من مناقب وخصال عدة، جُمعت لهذا الدعاء النبوي، وتحقَّقت فيه.

فالنبيُّ ﷺ في هذا الاتصال الوجداني المنبعث من شدة الوجد والحب والشوق، وعظمة الإكبار والإجلال، والإحساس بمسيس الحاجة، والاعتراف بالضعف، والإقرار بالربوبية، يلبي أشواق الروح إلى خالق الروح، ويلوذ بمن لا ملاذ سواه، ويعتصم بمن لا ملجأ منه إلاَّ إليه.

وقد تضمَّن هذا الدعاء رفيع الصفات، من عمق المعنى، ورائع اللفظ والمبنى، وتجلَّت فيه أسرار الجمال، ومناقب الكمال، ومن ذلك:

١- النداء القريب لله ﷻ، دون استخدام أدوات النداء، (اللهمَّ) وهو نداء المحب لحبيبه الذي لا يجانبه، والمولى لوليه الذي لا يفارقه، وهو استحضارٌ لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ البقرة.

٢- الاعتراف والإقرار بالربوبية، (أنت ربي) فالله ﷻ هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، رب الأرباب، ومسبب الأسباب، ومالك الأكوان، ومصرف الأزمان.

٣- إخلاص العبودية لله الواحد القهار، فالعلاقة بين عبد وبين معبود، بين مخلوق وخالق (خلقتني وأنا عبدك).

٤- الحفـاظ والثبات على العهد بكل ما يستطيع (**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**).

٥- الإقرار بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد (**أبوء بنعمتك عليَّ**) والرسول ﷺ بذلـك يستحضر قول الله عزوجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ إبراهيم.

٦- طلـب الغفران والرحمة من مالكها، ومانحها، والقادر عليها، من غافر الذنـب، وقابل التوب الغفور الرحيم (**وأبوء بذنبـي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت، وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم**).

٧- صدق العاطفة المنبعثة من قلب قد امتلأ إنابةً وحبًّا، ونفسٍ فاضت توقًا وشوقًا، ولسانٍ نطق صدقًا وحقًّا.

نصوص من التراث:

وسائل البيان: قال الجاحظ [1].

وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام: لفظ، وخطّ، وعَقْد، وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدِلُّ تمكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلَالة، وأُودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتة، ناطقةٌ مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبةٌ من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة، مخبرٌ لمن استخبرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللونِ عن سُوءِ الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحُسْنُ النَّضْرَة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر، وهو نصيب:

---

(١) الحيوان للجاحظ ١ / ١٠-١٥.

فعاجُوا فأثنَوا بالذي أَنْتَ أَهلُه ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب

وقال آخر:

مَتى تَكُ في عـدوٌّ أو صـديقٍ تُخَبِّركَ العيـونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْليُّ في صِدق شمِّ الذّئب وفي شدّةِ حسِّه واسترواحه:

يَستخبِرُ الريحَ إذا لم يَسْـمَعِ بمثل مقـراعِ الصَّفا الموقَّـعِ

وقال عنترة، وهو يصف نَعِيبَ غُراب:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لُحيِيْ رأسـه جَلَمانِ بالأخبار هَـشٌّ مُولَـعِ

وقـال الفضل بـن عيسى بن أبـان في قصصه: سَـل الأَرْضَ، فقلْ: مَنْ شـقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لم تُجبكَ حِوارًا، أجابتْكَ اعتبارًا.

ثـمَّ اعلـمْ، رحِمَـك الله تعـالى، أَنّ حاجـةَ بعض الناس إلى بعضٍ، صـفةٌ لازمـةٌ في طبائِعهم، وخِلقةٌ قائمةٌ في جواهِرهـم، وثابتةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتِهـم، ومشـتملةٌ علـى أدناهم وأقصـاهم، وحاجَتُهُمْ إلى مـا غاب عنهم - ممَّا يُعِيشُـهم ويُحْييهم، ويُمسِـك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالهم، وَيجْمَع شملَهم، وإلى التعـاوُنِ في دَرْكِ ذلـك، والتـوازُرِ عليـه - كَحَاجَتِهـم إلى التعـاون علـى معرفـة ما يضـرُّهم، والتوازرِ على مـا يحتاجون من الارتفـاق بأمورهم التي لم تَغِبْ عنهـم، فحاجَـةُ الغائِـبِ مَوصُـولةٌ بحاجةِ الشـاهد، لاحتيـاج الأدنَى إلى معرِفـة الأقصـى، واحتياج الأقصـى إلى معرفَـةِ الأدنى، معانٍ متضـمّنةٌ، وأسـبابٌ متَّصـلة، وحبـالٌ منعقـدة، وجعل حاجتنَـا إلى معرفة أخبـارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجةِ من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارِنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البشـارات بالرُّسـل، ولم يسـخِّر لهم

جميعَ خلْقه، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه، وجعلَ الحاجَةَ حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد، وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساعِ معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قَدْرِ احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة، ثم لم يقطعِ الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز، إلاّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتًا من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيعُ بلوغَ حاجته بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه، ثُمَّ جَعلَ الله تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خَوَلاً، وفي يَدِه مُذَلّلاً مُيَسَّرًا إمّا بالاحتيالِ له والتلطُّف في إراغَتِه واستمالته، وإمّا بالصَّوْلةِ عليه، والفتكِ به، وإمّا أَنْ يأْتِيَهُ سهوًا ورهوًا، على أَنَّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها، إلاّ أَنّ الحاجةَ تفترِق في الجنس والجهةِ والجِبِلَّة، وفي الحظّ والتقدير.

ثمَّ تعبَّدَ الإنسان بالتفكُّرِ فيها، والنظرِ في أُمورِها، والاعتبار بما يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وَبيْنَ معرفةِ تلك الحكَم الشريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكير، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بمواقعِ حاجاتِهم إليها، وتشاعُرِهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

البيان ضروري للاجتماع:

وهو البيانُ الذي جعلَه الله تعالى سببًا فيما بينَهم، ومعبِّرًا عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفًا لمواضع سدِّ الخُلَّة ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ

الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباحِ الماثلة، والأجسامِ الجامدة، والأجرامِ الساكنة، التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيعِ العلمِ، إلّا بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكر، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَع، والتحفُّظِ من دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشَّكلَ أفهَمُ عن شكله، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع، والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه أنزَع، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ الأنعام.

لأنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه.

ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون معانِيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وَضِعت له وصُرفتْ إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالة، وصدقِ الشهادة ووُضوحِ البرهان، في الأَجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلّا بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ ممسِكٍ خلّي عنها، بعد أَنْ كان تقييده لها.

ثمَّ قسّم الأقسامَ ورتَّب المحسوسات، وحصَّل الموجوداتِ، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارةَ للناظر، وأشرَك الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد،

إلاّ بما فضّل الله به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس، وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسببًا موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازنًا لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيبًا.

فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاهِ وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر.

نصوص في أهمية العلم:

لإفادة من الوقت: أن يقسم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره، فإن بقية العمر لا قيمة لها، وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود الأماكن للحفظ كل مكان بعيد عن الملهيات، كالنبات، والخضرة، والأنهار، وقوارع الطرق، وضجيج الأصوات؛ لأنها تمنع من خلو القلب غالبًا.

ينبغي لطالب العلم ألا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه، فليتلطف في قطع عشرته في أوائل الأمر قبل تمكنها، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء الدفع أسهل من الرفع، فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحًا، دينًا، تقيًا، ورعًا، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، فإن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضجر صبره، ومما يروى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لا تصحبْ أخا الجهل وإيَّـاك وإيَّـاه

فكم من جاهلٍ أردى حليمًا حينَ آخاه

يقاسُ المـرءُ بالمـرء إذا ما هُو ماشَاه

فراغ القلب من الشواغل:

وينبغـي أن يدخـل على الشيـخ أو يجلس عنـده وقلبه فارغ مـن الشواغل، وذهنـه صـافٍ لا في حال نعاس أو غضب أو جوع شديـد أو عطش أو نحو ذلك، لينشرح صدره لما يقال، ويعي ما يسمع.

القدوة:

وروى البيهقـي أَنَّ الشافعـي -رحمه الله- أقبل على مؤدب فقال له: «ليكن أول مـا تبدأ به مـن إصلاح من تؤدبهم إصلاحك نفسك، فـإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عِندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تتركه.

أولويات التعليم:

علمهـم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملـوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روِّهـم من الشعـر أعفه، ومن الحديث أشرفـه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة».

التعلم قبل الانشغال والحذر من الغرور:

قال عمر: تفقهوا، قبل إن تسودوا.

وقـال الشافعي -رحمه الله-: تفقه قبـل أن ترأس، فإذا ترأست فلا سبيل إلى الفقه، وليحذر من مضرة نظره نفسه بعين الكمال، والاستغناء عن المشايخ، فإن ذلك عين الجهل وقلة المعرفة، وما يفوته أكثر مما حصله.

قـال سعيد بن جبير: لا يزال الرجل عالمًا مـا تعلم، فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى فهو أجهل ما يكون.

ثقافة الكاتب:

يقول ابن الأثير[1]:

أقول: أما الكاتب فيحتـاج إلى حفظ الكتاب العزيز وإدمان تلاوته؛ ليكون دائـرًا على لسانه، جاريًا على فكرته، ممثلاً بين عيني ذاكرته لينفق من سعته، وإلى معرفة اللغة والنحو وإدمان الإعراب ليلاً ونهارًا، حتى يصير له ذلك ملكة جيدة، والتصريف، والمعاني، والبيـان، والبديع، والعروض، والقافية، والأحكام السلطانيـة، وشـيء من التفسـير، وشيء مـن الأحاديث مثل كتـاب الشهاب أو كتـاب النجم للأقليشي، والآثار المنقولة عن الصحابة ﷺ، وما دار بين الخلفاء الراشديـن وعمالهـم، وما دار بـين علي ومعاويـة ﷺ من المحـاورات، وتواقيع الخلفاء، والوزراء والكتاب، وأمثال العرب، وحفظ جانب جيد من: شعر العرب، والمخضرمـين، والمحدثين، وفحـول المتأخرين، وحفظ جيـد الحماسة، ومختار المفضليات، وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون، وما أمكن من:

التاريـخ، وأسماء الرجال، والحساب، ومراجعات أمهات كتب الأدب: مثل الأغـاني، والعقد، والبيان والتبيـين، والذخيرة، وزهـر الآداب، وأمالي القالي، والكامل للمبرد، وتذكرة ابن حمدون.

وحفـظ جانب جيد من المقامات والخطب النباتيـة، وبعض شعر: المتنبي، وأبي تمام والبحتري، وسقط الزند، وغير ذلك.

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر ١/٧.

وقد اخترت أنا من شعر هؤلاء الشعراء الأربعة في مجلدة لطيفة، والوقوف على ترسل الكتاب، ومراعاة ما قصدوه في كل فن: من التهاني، والتعازي، والفتوحات، ووصايا تقاليدهم، وتواقيعهم، وأوامرهم، ونواهيهم فيها، وافتتاحات أدعيتهم في كل ما يتشعب من طرق الكتابة، وكيفية البداءات والمراجعات في: الهدايا، والشفاعات، والأوصاف، وكتب الإخوان، وما يجري هذا المجرى.

وهذا باب لا يغلق له مصراع، ولا ينعقد على حصره إجماع.

وعلى الجملة، فالكاتب يحتاج إلى كل شيء، ولولا أنه لا يلزمه تحقيق كل فن، لقلت: إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه، وهيهات.

نعم، الناس متفاوتون في ذلك، وهم على طبقات: فمنهم من تسنم الدرجات، ومنهم من لا نهض من الدركات، وما بين ذلك. ولا بد من المشاركة مهما أمكن.

الفصل الثالث

وسائل الاتصال

وفيه:

١- المطبوع.

٢- الإذاعة المسموعة.

٣- الإذاعة المرئية.

٤- الشبكة الداخلية.

هذه الوسائل أو القنوات التي تمر عبرها الكلمة تعدّ النموذج الأكمل والأتم والأوفى، والأكثر تأثيرًا على جماهير المستقبلين لها؛ لذا فإن التسابق على جعلها الوسيلة الأفضل في الاتصال يظهره ما نراه من احتفال بإصدار الكتب المطبوعة، وإنشاء الإذاعات المسموعة والمرئية، وجاء التطور العلمي بالشبكة العنكبوتية التي كادت تسيطر على العقول والقلوب والأوقات؛ لقدرتها العجيبة في إيصال المعلومات، وسرعة الحصول عليها، ولا شك في أن لكل هذه الوسائل تأثيرها، وقدرتها، وإن اختلفت درجتها حسب الزمان والمكان والمستقبِل.

١- المطبوع:

كل كلمة، أو فكرة، أو موضوع، أو بحث يطبع في كتاب أو صحيفة، أو مجلة، أو ورقة لإعلان، أو مطوية، أو نشرة، أو حتى نقش على الجدران، أو بعض المعلقات كل هذه تدخل في المطبوع، وقد سبق لنا الحديث عن الكلمة المكتوبة في الفصل السابق، ولا نريد أن نكرر هنا ما قلناه هناك، ولكنني أريد أن أبين أثر الكلمة المطبوعة الدائم على قارئها في كل زمان ومكان، وهذا الأثر - إيجابيًّا كان أم سلبيًّا - يستطيع تغيير الاتجاهات، والآراء، والأفكار، وتعديلها، أو رفع درجتها أو خفضها، بحسب تأثر القارئ، واعتقاده صواب ما يقرؤه أو خطأه.

ومن هنا يتبين لنا وصف الله تبارك وتعالى، حيث ضرب المثل بالكلمة الطيبة، فقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ إبراهيم.

فإتيانها أكلها كل حين يدل دلالة أكيدة وقاطعة على شدة أثرها وفاعليتها المستمرة، فعطاؤها في ديمومة متصلة في الزمان والمكان.

وقـد روي أن أحد رهبان جزيرة ميورقة الإسبانية حصل على كتاب الإمام محمد الغزالي (الرد الجليل على ألوهية عيسى بصريح الإنجيل) وهذا الكتاب يؤكد على أنه لم يجد نصًّا واحدًا يدل على ألوهية عيسى، فلما قرأ هذا الراهب الكتـاب - وهو الحافظ للأناجيل - عاد وتوثق، فوجـد ما ذكره الغزالي صحيحًا، فأعلن إسلامه.

وإذا كان للكلمة المطبوعة صفة الثبات والدوام مادامت موجودة لم تتلف فإن لها من الفاعلية ما يجعل الاهتمام بها، والاحتفال لها عند كل الأمم أمرًا ذا بالٍ.

ولقد ورد أن الخليفة العباسي المأمون كان يمنح صاحب الكتاب وزنه ذهبًا، ولقـد بادل أسرى الـروم بمكتبة القسطنطينية، وجعل لهـا مكتبة بيت الحكمة؛ عرفانًا لما للكتاب من أهمية في تطور الأمم.

ولهـذا تحرصـ الأمم في نقـل ثقافاتهـا - أو فرض رؤيتهـا على غيرها من الأمم، ومـن أجل اعتنـاق مبادئها وأفكارها - على تسويق مطبوعاتها من خلال: الترجمـة، وفتح المراكز الثقافية، والمكتبات، أو توزيع كتبها بلا مقابل، أو مقابل زهيد، كما كان يفعل المعسكر الاشتراكي.

الكتب تغيِّر الأفكار:

٥- قلنـا: إنَّ تأثـير الكلمة المطبوعـة حادٌّ وقـويٌّ إذا اجتمعت لها صفات التأثير في جوانبها: الفكرية، والموضوعية، والأسلوبية، كأنْ تضيف إلى معلوماتنا جديـدًا، أو توضِّـح لنا غامضًا، أو تقنعنا بفكرة، أو تثـير فينا عاطفة، أو تغرس فينا قيمةً، أو تصلح لنا حالاً، أو تبعث فينا متعةً.

٦- والكلمـة المطبوعة في أشكالها المتعدّدة: كالصحيفة، والمجلة، والكتاب، قد تُحدث ما ذكرناه آنفًا، فإذا أحدثته، فإنها تكون جديرة بالتقدير، وإذا كانت

الصحف والمجلات تمرُّ مرورًا مؤقتًا في حياتنا، فاليومي، والأسبوعي، والشهري، والفصلي منها له قدراته ومواصفاته، واختصاصاته: كنقل الأخبار، والإعلانات، أو التخصص في موضوعه: كالرياضة، والاقتصاد، والطب، والثقافة بعمومها.

٧- ويبقى الكتاب صاحب الأثر القوي في النفوس، ويبقى أثره ونفعه على الزمان، فكم من قارئ قرأ فتغيرت آراؤه، وتبدَّلت أفكاره، وذلك لديمومة الكتب، وانتشارها، وسهولة انتقالها، وترجمتها إلى لغات أخرى.

٨- وإنَّ أعظم الكتب تأثيرًا في النفوس، وفي الناس عامة، هي تلك الكتب التي نزلت بوحي من الله، وكان القرآن العظيم ولا يزال، وسيظلُّ أعظمَها أثرًا، وأشدَّها جذبًا، وأقواها على التغيير، وقد وصفه الله ﷻ بصفاتٍ تبين عن صفات كتابٍ: فريدٍ، متميزٍ، خالدٍ أبد الدهر، ولنتابع بعض صفاته، كما وردت في آياته الكريمة:

٩- كتابٌ لا شكَّ فيه، وفيه الهدى لمن اتبع رضوانه.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ البقرة.

وهو كتاب محكم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٧﴾ آل عمران.

١٠- وهو نور مبين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ المائدة.

- وهو كتاب جامع.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الأنعام.

١١- وكتاب مبارك.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ الأنعام.

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ الأنعام.

- وهو المفصَّل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الأعراف.

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ فصلت.

- وحكيم.

قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ يونس.

- ودقيق الإحصاء.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ الكهف.

١٢- وهو كتاب مبين كل الإبانة.

قال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ ﴾ يوسف.

- وعزيز.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ ﴾ فصلت.

- وعربي.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ ﴾ الزخرف.

وتجمع له الصفات المتعددة: كالإبانة، والهدى، والرحمة، والبشرى، والعلو، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾ النحل.

والعلو والحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ ﴾ الزخرف.

١٣- وكتاب كريم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ ﴾ الواقعة.

١٤- وهو أحسن الحديث.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣ ﴾ الزمر.

١٥- وهو الحق كل الحق.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ محمد.

وجاء في المستطرف [١].

باب فضل القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ القمر.

وسمى الله تعالى القرآن كريمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ الواقعة.

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ يس.

وسماه مجيدًا، فقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ ق.

أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ البقرة.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء.

فهو النور المبين والحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه، ولا أصدع من أحكامه، ولا أفصح من بلاغته، ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته، ولا ألذ من تلاوته.

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١/١٧.

وقال الشعبي: الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه ﷻ .

ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق.

فقال له: من أنت؟

قال: غالب بن صعصعة.

قال: ذو الإبل الكثيرة؟

قال: نعم.

قال: فما فعلت بإبلك؟

قال: أذهبتها النوائب، وزعزعتها الحقوق.

قال: ذلك خير سبلها.

ثم قال له: يا أبا الأخطل، من هذا الذي معك؟

قال: ابني، وهو شاعر.

قال: علمه القرآن، فهو خير له من الشعر.

فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيد نفسه، وآلى على نفسه ألا يحلّ قيده، حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة. وفي ذلك قال:

وما صبَّ رجلي في حديدٍ مُجاشعٍ
مَعَ القيدِ إلا حاجةً لِي أريدُها

فضل الكتاب:

قال الجاحظ[1]:

والكتـابُ هو الذي يؤدِّي إلى النـاس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِـه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذممُّ منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبًّا، وورُوده خِمْسًا، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك.

والقلـمُ مكتفٍ بنفْسـه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيرِه؛ ولا بـدَّ لبيان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته، وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتابُ هو الجليـس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الـذي لا يملُّـكَ، والمستَمِيـح الـذي لا يستَرِيثُـك، والجـارُ الـذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحـبُ الـذي لا يريـد استخراجَ مـا عندَك بالمَلَـق، ولا يعامِلُـك بالمَكر، ولا يخدَعـك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب، والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَـك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجـوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَـك، وَعمَّر صدرك، ومنحـكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملـوك، وعَرفتَ به في شهـر، ما لا تعرفُه من أفـواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ مـن الغُرم، ومن كدِّ الطلـب، ومن الوقوفِ ببـاب المكتِسب بالتعليم، ومِن الجُلوسـ بين يَديّ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقًا، وأكرمُ منه.

---

(١) الحيوان ١/١٦- ٢٨.

وينبغـي لمن كَتبَ كتابًـا ألا يكتُبَه إلاّ على أَنَّ النَّاس كلَّهـم له أعداء، وكلُّهم عـالٌم بالأمـور، وكلُّهم متفرِّغ له، ثـم لا يرضى بذلك حتى يـدع كتابه غُفْلاً، ولا يرضـى بالرأي الفطـير، فإنَّ لابتداءِ الكتابِ فتنةً وعُجُبًـا، فإذا سكنت الطبيعةُ وهـدأت الحركة، وتراجَعَـتِ الأخلاطُ، وعادت النفسُ وافـرة، أعاد النَّظر فيه، فَيَتَوَقَّـفُ عنـد فصوله توقُّفَ من يكـونُ وزنُ طمَعه في السلامـة أنقَصَ من وزَنِ خوفِه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر:

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُه حتَّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقـفُ عند قولهم في المثل: كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ، فيخاف أن يعتريه ما اعـترى مَنْ أجرى فرسه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فقـدِ خصومه، وأهل المنـزلة من أهل صناعته.

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حَتَّى لا يحتاجُ السامع لمـا فيه من الرويَّـة، ويحتاجُ مِنَ اللفـظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفـاظ السِّفْلَةِ والحَشْـو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشِـيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدًّا، وينقِّحَـه ويصفِّيـه ويروِّقه، حتى لا ينطِقَ إلاّ بِلُـبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَـه، وأسقطَ زوائِده، حتَّى عاد خالصًـا لا شَوْب فيه ؛ فإنَّه إنْ فعل ذلك، لم يُفْهِمْ عنـه إلا بأن يجدِّد لهم إفهامًا مِرَارًا وتَكـرارًا؛ لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخـذ بها، ألا تَـرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهـذا الاسم، لو قرأتَه على جميعِ خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يـدور، وهـو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولـو سمِعه بعضُ الخطباء لمـا فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمـه من يريـد تعليمه؛ لأنَّه يحتـاج إلى أن يكون قد عرَف جهـةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام.

٢- الإذاعة المسموعة:

يُجمع الكثير من الدارسين على أنَّ ظهور الإذاعة قد أحدث تطورًا مذهلاً في وسائل الاتصال، فهي الوسيلة القادرة على عبور المسافات، والوصول إلى الناس على جميع فئاتهم، حتى الأميين منهم.

ومنذ أن بدأ البث الإذاعي في العالم الذي وصل إلى المستمعين في كل الأرجاء والأنحاء، وبخاصة أولئك الأميين، أو الذين لا تكاد تصل إليهم المطبوعات كالكتب والصحف والمجلات، كهؤلاء الذين يعيشون في الصحارى والقفار، أو في الأرياف البعيدة في شعف الجبال، صارت الإذاعة المسموعة لهم بمنزلة المُخْبِر، والمعلم، والمُثَقِّف، فالبرامج الإخبارية، والتعليمية، والتثقيفية، والترويحية، تمثلت بوضوح في هذه الوسيلة، إلى جانب ما لها من وسائل تأثيرية، وطرق فنية تعبيرية، وطرائق مشوقة وجذابة، ولمراعاتها للقدرات والفروق العمرية، ولذلك فهي تؤدي وظيفة في إحداث تغييرات: ثقافية، وعلمية، واجتماعية، وتزويدنا بمهارات الاتصال، وتكوينها، وتنميتها.

وبلا شك، فإنَّ تأثير هذه الوسيلة يكاد يفوق في تأثيره الوسائل المقروءة، وذلك لقدرتها على عبور حاجز القدرات القرائية عند السامع، فالأمي والمتعلم سواء في الاستماع، ونحن ننظر إلى ما تقدمه هذه الوسيلة من خلال ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: الإعداد اللغوي الجيد للمواد المقدمة، حيث تكون اللغة الصحيحة هي الأساس.

المستوى الثاني: ما يقدمه المتعلمون والمثقفون من مواد ارتجالية، وفي هذا المستوى نجد اللغة الوسطى التي تحرص على استخدام اللغة السليمة قدر الإمكان، مع ما يشوب الارتجال من ارتفاع وانخفاض في المستوى اللغوي.

المستوى الثالث: وهو ما يقدم في البرامج الترفيهية والاجتماعية من برامج ومواد تقدَّم بلهجات عامية متعددة.

ونحن نرى في المستويين الأول والثاني منهجًا مقبولاً في إيصال اللغة الصحيحة، مما يُوحِّدُ لغة السماع عند أبناء هذه اللغة، ويجعلها ميسَّرة، فتتركّز على ألسنتهم وأفئدتهم.

أما المستوى الثالث الذي يخلط بين اللهجات العامية من أقصى شرقنا العربي إلى غربه الأقصى، فيثير الحيرة والارتباك، إلى جانب تأثيره السلبي على لغة السامع.

٣- الإذاعة المرئية:

تُعدُّ هذه الوسيلة الأكثر فاعلية وخطورة، فهي تتفوَّق على جميع وسائل الاتصال الشفوية والمقروءة والمسموعة، في قوة التأثير، وشدَّة الجاذبية، والقدرة على استهواء جميع الفئات.

والتأثير الفاعل والشامل لهذه الوسيلة المرئية (التلفاز) يكاد يطغى على عديد من المشاهدين واهتماماتهم، بل يكاد يسرق أوقاتهم، فنسبة مشاهدة التلفاز تصل إلى نسب عالية كما تشير الإحصائيات، والدراسات الإعلامية، فالوقت الذي يقطعه المشاهدون أمام التفاز يمتد ويزيد مع ظهور الفضائيات، مما جعل التفاز يُعد من عوامل توحيد الأفكار؛ لأن الجميع (يشاهدون نفس المؤثرات، فهو يساعد على تحقيق وحدة الفكر والمعايير والثقافة والأذواق الجمالية[١]) ولهذا فإنَّ التلفاز يعدُّ (من أكبر مصادر الخبرة في حياة الطفل، فهو يشارك في شتى العمليات التربوية[٢]).

---

(١) الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي: ص ٢٥.

(٢) أثر مشاهدة التلفزيون على عادة القراءة عند الأطفال د. راشد الفضلي: ص٢٣.

فهـذا الأثر البالـغ لهذه الوسيلة يجعلها قادرة علـى أن تنهض بمسؤوليات جمـة من مثـل: التعليم، والتثقيف، والرقـي بالسلوك، والعـادات، والتهذيب في الألفاظ والعبارات، إذا ما أُحسن استخدامها وتوظيفها على الوجه الأمثل، كما أنها تستطيع جمع الأمة على لغة سليمة واضحة.

ومـع إيجابيات هذه الوسيلة، فإنَّ لها بعض الآثار السلبية على المشاهدين، فبعض الدراسات ترى (أنَّ مشاهـدة التلفاز تعطِّل ملكة القراءة عند الأطفال، ومن ثمَّ تُعطِّل ملكة التفكير أيضًا).

ومن هذه الآثار السلبية كذلك إهدار الوقت، وإضاعته فيما لا طائل وراءه، وبخاصة تلك المسلسـلات المخربة للعقل والدين، والمشاهد والبرامج التي تُدمِّر الأذواق والأخلاق.

ومـع كل مـا يُقال عـن الإيجابيـات والسلبيات، فـإنَّ الاستخـدام الناجح والفعّـال لهذه الوسيلة إنمَّا يعتمـد في الأساس على المسؤولين عن هذه الوسائل، فهـم المخططون الذين يضعـون الخطط، وهم المُعدّون الذيـن يعدّون البرامج، وهـم المقدِّمون الذيـن يقدمونها للجمهور، فالتخطيط الدقيـق، والموضوع المهم والجاد، والتقديم الصحيح والمشوِّق، إلى جانب التأثيرات الفنية والتعبيرية، كل ذلك يؤدي إلى وسيلة جيدة التوصيل، نافعة التحصيل.

٤- الشبكة الداخلية:

أو ما تسمى الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) هي من الوسائل التقنية الحديثة التـي فرضت نفسها علـى الإنسان والزمان والمكان، حتـى أصبحت عنوانًا للعلم والحضـارة والثقافـة، وغدت الوسيلـة الأسهل والأسرع والأغنـى، بل جمعت كل الوسائل السابقة، فهي: الكتاب، والمكتبة، والصحيفة، والمجلة، والإذاعة المسموعة

والمرئيــة، وخزانة المعلومات، والمركز الاستشــاري، كل هذه الصفات والخصائص والمزايا تتمتع بها الشبكة الداخلية، مما جعلها في مقدمة هذه الوسائل.

ومن أهم مزاياها:

١. سهولة الحصول على المعلومات ونسخها وتخزينها.

٢. القــدرة علــى البحــث والتنقيب عــن النصوص والقضايــا المطلوبة في البحث.

٣- إمكانيــة الســؤال عــن المعلومــات والنصوص، ومخاطبــة المختصين والعلماء والباحثين.

٤. التمكن من إرسال النصوص والأخبار والمعلومات بكل سهولة ويسر.

٥. التصحيح والتصويب اللغوي والإملائي.

٦- وأخيرًا الترجمة إلى اللغات المختلفة.

لكــن هــذه الشبكة، ومــع كل ما ذكرنــاه مــن إيجابياتها، يبقــى لها بعض السلبيات التي يجب أن نتنبه لها، من مثل عدم التأكد من صدق بعض المعلومات الــواردة، والتناقض أحيانًا بــين الأخبار والمعلومــات، إلى جانــب بعض المواقع المهتمة بالتخريب والدس، والتأثير على الآراء والأفكار والعواطف.

الباب الثاني

المهارات التحصيلية، ويندرج فيه سبعة فصول بسبع مهارات

هي:

(مهـارة الاستمـاع، ومهـارة القراءة، ومهـارة التحدث، ومهـارة الإلقاء، ومهارة الحوار، ومهارة الخطاب، ومهارتا السؤال والجواب).

- الفصل الأول: مهارة الاستماع.

(وكل علمٍ محتاجٌ إلى السماع).

ابن قتيبة الشعر والشعراء ١/٦.

الفصل الأول

مهارة الاستماع

١- ألفاظ ومصطلحات: (السماع، والاستماع، والإنصات، والإصغاء).

٢- أهميته.

٣- أهدافه.

٤- وسائله.

٥- تحققه.

٦- نصوص في الاستماع.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل.

والآية الكريمة ربطت التعلم بخلْقِ هذه الحواس؛ لأنَّ هذه المهارة تعدُّ من أهم المهارات لتحصيل العلم والمعرفة. فالسمع هو وسيلتنا إلى امتلاك اللغة، وإلى الفهم والتعلم. وقد لفت القرآن الكريم النظر إلى أهمية السمع في آيات عديدة، في مثل قوله تعالى مثلاً: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الأنعام.

ولإدراك قيمة هذه المهارة، ومعرفة دورها، ومكانتها، وأهميتها، فإن الإجابة عما سنطرحه من أسئلة توصلنا إلى الأهداف التي نسعى إليها، ومن الأسئلة العديدة التي تخطر بالأذهان، نطرح الآتي:

- ما قيمة حاسة الأذن بالسماع؟
- وما دورها في التعلم؟
- وما أهمية الاستماع ، ومميزاته، وأنواعه؟
- وما وسائل تحسينه وتطويره؟
- وما الفرق بين مصطلح: الاستماع، والإنصات، والإصغاء؟
- وما وسائل تحسين الاستماع؟

- ولعل قول ابن قتيبة: (**وكل علمٍ محتاجٌ إلى السماع**[1]) يتيح لنا الإجابة عن هذه الأسئلة، ويقفنا على هذه المنحة العظيمة التي وهبنا إياها الوهاب الكريم.

(١) الشعر والشعراء ٦/١.

وترد على أسماعنا مجموعة من الألفاظ والمصطلحات، مثل: «**السماع، والاستماع، والإنصات، والإصغاء**» فهل هي ذات معنى واحد؟ أم تحمل في طياتها تعدّدًا، وتجمع في ذاتها المعنى المؤتلف والمختلف؟

ولعل جولة يسيرة في معاجم اللغة تطلعنا على بعض الفروق في الدلالة، ومن خلالها نحاول توضيح مدلولاتها التي قد تتداخل في أذهاننا، وهي: (**السماع، والاستماع، والإنصات، والإصغاء**).

السماع:

تعريفه: إدراك الأصوات من خلال قوة في الأذن، وهو عملية غير إرادية، تتم دون بذل جهد أو مشقة، فنحن نسمع ما نعرفه، وما لا نعرفه، وما نرضاه، وما نأباه.

وورد في لسان العرب [1]: «السمع: حسُّ الأذن، واستمع له وإليه وتسمَّع إليه: أصغى، والسمع: ما وقر في الأذن من شيءٍ تسمعه (مادة سمع).

والسمع بمعنى الإجابة، كقول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي استجاب الله دعاءه.

الاستماع:

بينما يكون السماع عملاً غير مقصود، يكون الاستماع عملية مقصودة لذات المسموع، فيها من الاهتمام، وبذل الجهد ما يجعلها تحتاج إلى:

- إلقاء السمع.

- إحضار القلب.

(١) لسان العرب مادة (سمع).

- التدبر فيما يقال.

فالاستماع يبدأ بالسمع، ثمَّ بالفهم، ثمَّ بالإجابة والقبول، ويظهر لنا ذلك من قول الرسول ﷺ: «**نضَّر الله وجه امرئ سمع مقالتي فوعاها، ثم أدّاها إلى من لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه لأفقه منه** [1]».

فالسمع والوعي والإجابة هي خطوات الاستماع.

الإنصات:

يعني السكوت، قال ابن منظور: «الإنصاتُ هو السكوتُ والاستماعُ للحديث، ويُقال: أنصتوني، أي: استمعوا إليَّ» وعند ابن الأثير [2]: «أنصتَ يُنصِتُ إنصاتًا: إذا سكتَ سكوتَ مستمع» فالمقصود من الإنصات السكوت والسماع، وهو إنصاتان: إنصاتٌ باللسان، وإنصاتٌ بالجوارح، ويحتاج إلى:

- عدم التحدث.
- عدم الانشغال عن السماع فكرًا وجوارح.
- تركيز الانتباه في حاستي السمع والبصر.

واللفظان يتبادلان المواقع، ويبدو بعض الفرق عند من رأى أنَّ الإنصات باللسان، والاستماع بالأذنين، ويتضح الفرق اليسير بينهما في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ الأعراف.

ولا بد للاستماع من الإنصات؛ ليتحقق الفهم والإدراك.

---

(١) رواه أحمد برقم ٤١٥٧- وروايته: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ لَهُ مِنْ سَامِعٍ». وفي سنن أبي داود رقم ٣٦٦٢ وفيه برواية: «نضّر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه...».

(٢) المثل السائر ج٥ ص ٦٢.

الإصغاء:

جاء في لسان العرب: «أصغى إليه رأسه وسمعه: أماله».

والميل حسي ومعنوي، فقد يكون الميل ظاهريًّا بالجسد، كأن تميل إلى محدثك، وتقترب منه بسمعك ورأسك، وجسدك، وقد يكون داخليًّا بأن تميل إليه بقلبك، فالإصغاء يكون بالجسد والقلب، قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴿٤﴾﴾ التحريم.

وقال تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ الأنعام.

فإذا اكتملت هذه الأمور الثلاثة وتوافقت، فالأذن تسمع، واللسان يُنصت، والجسد والقلب يُصغيان، فقد تحقق المطلوب من الاستماع.

أهمية الاستماع:

ليست الأذن ممرًّا أجوف لعبور الأصوات، وإنما هي نافذة تنفذ منها أصوات الحروف وصورها، وعن طريقها نتملّى أشكال هذه الحروف ونغماتها، فالأذن هي نقطة البدء في التعلم، من هنا فإن كل المناهج التعليمية قديمًا وحديثًا تهتمُّ بلغة السماع؛ لأنها المنطلق السليم للتعلُّم.

ولقد فطن العرب القدماء إلى أهمية السماع والتلقِّي والمشافهة في تكوين ملكة اللغة والاقتدار عليها. فكان إرسالهم أبناءهم إلى البادية لسماع اللغة السليمة طريقًا إلى الفصاحة، ومعبرًا لاكتساب اللغة، وهذا رسولنا الكريم ﷺ يبين لنا سبب فصاحته، فيقول[1]: «**أدَّبني ربّي فأحسن تأديبي، ونشأتُ في بني سعد**».

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/١.

وهذا الحديث يبيّن أن القدرة اللغوية اكتسابًا وتنميةً تكمن في السماع.

وهذا الجاحظ يذكر أثر السماع الصحيح، وأهميته في الفصاحة وتكوين المَلَكَة، فيقول[1]: «**ليس في الأرض كلامٌ هو أمتعُ ولا آنَقُ، ولا ألذُّ في الأسماع، ولا أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتقُ لِلّسانِ، ولا أجودُ تقويمًا للبيان، من طول استماعِ حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء**».

ويقول ابن فارس في كيفية حصول الصغير على ملكة اللغة: (**تؤخذ اللغة اعتيادًا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، وتؤخذ تلقنًا من ملقن، وتؤخذ سماعًا من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُتَّقى المظنون**).

وقد ورد في أحد تقريرات اليونسكو أن الإنسان يحصل على نسبة ٩٨٪ من معلوماته عن طريق السمع والبصر.

وفي إحدى الدراسات الإحصائية يقضي الطالب في الاستماع من وقته يوميًّا ٤٥٪ وبعض الإحصائيات ترفعها إلى ٥٢٪.

إذن تكمن الأهمية في أنَّ الاستماع هو أحد المهارات الأساسية لتحصيل العلوم والمعرفة، بل إنه لا يتم حسن الفهم، والإدراك للحقائق، والأشياء، والأفكار، والمسائل إلّا به، إن أحسنا استخدامه وأتقناه.

والنتيجة: الأثر الإيجابي إذا كان المسموع هو الصواب، والأثر السلبي إذا كان المسموع هو الخطأ.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٤٧.

أهداف الاستماع:

تتعدّد أهداف الاستماع وتتنوّع، ونستطيع إجمالها في الآتي:

- وسيلة للنمو اللغوي.
- وسيلة للفهم والإدراك والتعليم والتعلُّم.
- وسيلة للحفظ والتمكن.
- وسيلة للاتصال والتواصل وكسب العلاقات والاحترام.

وترتبط مهارة الاستماع بالآتي:

- القدرة على الفهم.
- القدرة على الانسجام والاهتمام والتفاعل.
- القدرة على التفسير والتحليل والتعليل.
- القدرة على التقويم والنقد.

وسائل الاستماع:

- القصد والنية، فلا بد أن يقصد المستمع قصدًا لموضوع السماع.
- الصحة النفسية والبدنية، حيث إن الاعتلال النفسي والبدني، والانشغال بحاجات النفس والبدن من الصوارف التي تصرف عن الاستماع، مما يؤدي إلى تشويش عملية الاستماع.
- حسن الهيئة، وقد ذكر ابن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم: أنَّ على المستمع أن يكون كامل الهيئة، متطهر البدن والثياب، نظيفهما، وأن

يكـون قلبه فارغًا مـن الشواغل، وذهنه صافيًـا، لا في حال نعاس، ولا غضب، ولا جوع شديد، أو عطش أو نحو ذلك؛ لينشرح صدره لما يُقال، ويعي ما يسمعه.

كيف تُحقّق مهارة الاستماع؟:

تتحقَّـق مهـارة الاستماع مـن خلال أساليـب معرفية، وأدائيـة، واهتمامات وجدانية، ولكي ننجح في الوصول إلى هدف الاستماع الجيد علينا أن نقوم بالآتي:

- تعوُّد الاستماع، بحيث يصبح لنا عادة نألفها، ولا نتبرَّم منها.
- الضبـط والتحكم الجيدان في عملية الاستمـاع من خلال تدريب يقوم على اختبارات ذاتية، وتقويم أدائنا في كل مرة نستمع فيها.
- القدرة على المتابعة، وعدم الانشغال عن المسموع، والصبر والتحمل.
- القصد إلى الاستفادة والفهم أولاً.
- التمييز بين ما نعرفه وما لا نعرفه فيما نسمع.
- تحديد ما نستطيع عدم فهمه للسؤال عنه.
- تدريـب الحس النقـدي بالسماع، بالوقوف عند النقـاط التي قد يكون لنا فيها رأي.
- التمييز بين الحقائق المثبتة، والنظريات، وبين الموضوعي والعاطفي.

وأخـيرًا فتحقُّـق هـذه المهـارة مـن خـلال وسائل أخـرى معينـة ترتبط، بالسامـع، والمُسمِع، والمسموع، والمكان، والحـال، وكلما توافرت الوسائل الكفيلة بضمان سماع جيد: كالرغبة في السماع، والإقبال على الموضوع المسموع، ووضوح الأهداف، والمُسمع الفطن، الواعي، الصادق، المقبول، والمراعي لموضوعه ولحالة السامعين، يؤدي ذلك إلى تحقيق الاستماع ونجاحه.

السمع نوعان:

إذا كان جميع من يسمعون بآذانهم يشتركون في هذه العملية الظاهرة، فإنهم لا يشتركون جميعًا في عملية من السمع لا تبدو على السطح، (فمن وراء السمع الظاهر والإبصار الظاهر سمع آخر وإبصار آخر، يسمع به المؤمنون، ويبصر به الموقنون، ومن عداهم لا يسمعون ولا يبصرون، قد عطَّلوا ما وهبهم الله من أدوات الفهم والتدبُّر[1]) وما ورد في القرآن الكريم، يثبت لهؤلاء آذانًا وقلوبًا وعيونًا، فلم تغنِ عنهم شيئًا، ولم تفدهم الفائدة المرجوَّة، فقال تعالى ينعى عليهم ذلك: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الأحقاف.

والمتأمل للتركيز على آيات السمع في القرآن الكريم يصيبه العجب من ورود السمع وأدواته ومشتقاته أكثر من ١٨٥ مرة.

نصوص في الاستماع:

نصائح وتوجيهات لطيفة:

يروى عن أبي الدرداء قوله[2]: (**أنصف أذنك من فمك، فإنما جُعلَ لك أُذنان وفمٌ واحدٌ؛ لتسمع أكثر ممّا تتكلم**).

---

(١) الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم: ص٨.

(٢) الحيوان ١/١٧.

وفي ذلك يقول الشاعر[1]:

لا تخلعنَّ عن اللسان لجامهُ وتَوَقَّ فرطَ جِماحهِ المعتادا
وعن اثنتينِ منَ الكلامِ فلا تُجِبْ إلاّ بموجزةٍ تكـونُ أُحـادا
فاللهُ خصَّ الاسـتماعَ بآلـةٍ مثْنى وجارحةَ المقال فُرادى

قال سالم بن وابصة[2]:

أُحبُّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعهُ كأنَّ بـه عـن كلِّ فاحشـةٍ وقرا
سليم دواعي الصَّدر لا باسطًا يدًا ولا مانعًا خيرًا ولا قائلاً هُجرا

قال أحد الحكماء لابنه[3]: يا بني، تعلَّم حسن الاستماع، كما تعلَّم حسن الكلام، فإنَّ حسن الاستماع إمهالك المتكلم، حتى يُفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه والنظر، وترك المشاركة في حديث أنت تعرفه.

وقال آخر[4]: تعلَّم الصمت، كما تتعلم الكلام، فإن كان الكلام يهديك فإنَّ الصمت يقيك، ولك في الصمت خصلتان: خصلة تأخذ بها مِن علم مَن هو أعلم منك، وخصلة تدفع بها جهل من هو أجهل منك.

السماع والكتابة:

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثُر سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه.

أمثال عن السماع وردت في مجمع الأمثال، منها[5]:

(١) المصدر نفسه ١/١٧.
(٢) المصدر نفسه ١/١٧.
(٣) المصدر نفسه ١/١٧.
(٤) المصدر السابق ١/١٧.
(٥) انظر مجمع الأمثال للميداني ١/١٧٤.

- أصاخ إصاخة المنده للناشد.

الإصاخة، السكوت. والناشد الذي ينشد الشيء. والناده، الزاجر. والمنده، الكثير النده، أي الزجر للإبل. يضرب لمن جد في الطلب، ثم عجز فأمسك.

- أطرق إطراق الشجاع.

يعني الحية. يضرب للمفكر الداهي في الأمور. قال المتلمس:

وأطرقُ إطراقَ الشجاعِ ولو أَرى مساغًا لنابيه الشُّجاعِ لصمَّما

- أطرق كرا إنَّ النعامة في القرى.

يقال: الكرا الكروان نفسه. ويقال: إنه مرخم الكروان، وجمع الكروان كروان يضرب للذي ليس عنده غَناء ويتكلم، فيقال له: اسكت وتوق انتشار ما تلفظ به كراهة ما يتعقبه. وقولهم: إن النعامة في القرى، أي تأتيك فتدوسك بأخفافها.

- بأذن السماع سميت.

يضرب للرجل يذكر الجود ثم يفعله. وتقدير الكلام، بسماع إذن شأنها السماع سميت بكذا وكذا. أي إنما سميت جوادًا بما تسمع من ذكر الجود وتفعله. وهذا كقولهم: إنما سميت هانئًا لتهنئ، وأضاف الأذن إلى السماع؛ لملازمتها أياه. والتسمية تكون بمعنى الذكر. كما قال: وسمها أحسن أسمائها. أي واذكرها بأحسن أسمائها. ومعنى المثل: بما سمع من جودك ذكرت وشكرت، يحثه على الجود. قال الأموي: معناه أن فعلك يصدق ما سمعته الأذنان من قولك.

- ربَّ كلمة لبست عليها أذني؛ مخافة أن أقرع لها سني.

عبارات قيلت في الأذن:

الصَّمع: صغرها.

السَّكك: كونها في نهاية الصِّغر.

القنف: استرخاؤهما وإقبالهما إلى الوجه.

الخطل: غلظهما.

في ترتيب الصَّمم يقال:

بأذنه وقرٌ.

فإذا زاد، فهو صممٌ.

فإذا زاد، فهو طرشٌ.

فإذا زاد حتَّى لا يسمع الرعد، فهو صلخٌ.

الفصل الثاني

مهـــارة القـــــراءة

قـال الله تبارك وتعـالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ العلق.

قـال رسـول الله ﷺ: «**اسـتقرئُوا القرآن من أربعـة: من عبدالله بن مسـعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبَيٍّ بن كعب، ومعاذ بن جبل**».

١- أهميتها.

٢- غاياتها وأهدافها.

٣- وسائل اكتسابها.

٤- أنواعها.

٥- تنميتها.

٦- نماذج على القراءة.

(١) صحيح البخاري باب ١٤ ج٤ص٢٢٨.

١- أهميتها:

﴿اَقْرَأْ﴾ أول كلمة نزلت من السماء لتعانق الأرض في بدء رسالة الإسلام ونزول الوحي بالقرآن الكريم على قلب الرسول ﷺ.

قطرات الندى من غيث ﴿اَقْرَأْ﴾ نزلت لتسلك في قلب رسول الله ﷺ ومن قلبه إلى قلوب أمته ينابيع وأنهارًا تتفجر؛ لتزهو حضارة أمة اقرأ.

فأول كلمة تزهو الأرض بحروفها النورانية لتعمها بنورها وخيرها، كانت كلمة ﴿اَقْرَأْ﴾.

إنَّ فعل الأمر ﴿اَقْرَأْ﴾ هذا من الله عز وجل إلى نبيه ﷺ في أول اتصال بين السماء والأرض لبدء الرسالة السماوية الخاتمة؛ لتكون أول كلمة في أول سورة تنزل في الكتاب المحفوظ لدليل واضح على أننا مأمورون أمر إيجاب بفعل القراءة الذي هو أمر عام لم تُخصّ به فئة دون فئة، أو طائفة دون أخرى.

وإن تكرار هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿اَقْرَأْ﴾ ليؤكد لزومه، ووجوب التزامه، لا يعفى منه أحد، وإن اقترانه باسم الله تبارك وتعالى ليدل على أنَّ فعل القراءة في نيته وقصده، وتوجهه والهدف منه مرتبط بالله العلي القدير، وهذا الارتباط يؤكد على سمو القراءة، ورفعة درجتها، وعلو مكانتها، وعظيم فائدتها وأهميتها، ولولا ذلك ما كان هذا الربط.

والمتدبر لمعاني سورة (العلق) وألفاظها يلحظ من ترتيب الألفاظ للتوجيه الإلهي الكريم بالأمر بالقراءة عدة أمور، منها:

١- عمومية فعل الأمر ﴿اَقْرَأْ﴾ فالقراءة للجميع.

٢- ربط القراءة بالأهداف السامية، والغايات الجليلة، بحيث تكون للنفع في الدنيا والآخرة.

٣- التوجيه للعلم، فالقراءة مرتبطة بالبحث، حيث البدء بخلق الإنسان.

٤- إفادة أن العلم من الله ﷻ الذي علمنا ما لم نعلم، فالفضل يعود لرب العزة تبارك وتعالى في تعليمه لنا.

٥- النهي عن الاغترار والطغيان للنتائج التي قد تحصل للمتعلم من حصول على المال والجاه، إذ العلم هو أساسها وطريقها، وليعد إلى بداية خلقه، وليرد كل ما حصَّله إلى خالقه ﷻ، فله الفضل في الأولى والآخرة، فهو المحمود بفضله، المشكور بمنه وعطائه.

وقد ورد الأمر بالقراءة وقراءة القرآن الكريم عددًا يدل على مكانة القراءة في الإسلام، من ذلك، قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ المزمل.

فقراءة القرآن بأمر الله تعالى في كل حال، وعلى كل حال تبين أمورًا عدة: **أولها**: ربط المسلم بكتاب الله ﷻ ربطًا قرائيًا، فقراءة القرآن ليست مخصصةً للتعليم، أو إزجاء الوقت فقط، وإنمَّا هي عبادة، وهذه العبادة لها غاياتها التعبدية، ولها غاياتها التربوية من تهذيب الطباع، وتربية النفس، وغاياتها التعليمية من إقدار القارئ على امتلاك هذه المهارة؛ ليخوض في بحور قرائية أخرى، تنقله إلى ميادينها المختلفة.

ثانيها: صفات القراءة: قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٤﴾﴾ المزمل. أي في أثناء ما ذكر من القيام أي اقرأه على تؤدة وتمهل وتبيين حروف: ﴿تَرْتِيلًا﴾ بليغًا، بحيث يتمكن السامع من عدها.

وأخرج العسكري في المواعظ عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: «**بيِّنْهُ تبيينًا ولا تنْثُرْهُ نَثْرَ الدقل. ولا تهذُّه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكنْ همُّ أحدكم آخر السورة**».

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي فصلُّوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، عبَّر عن الصلاة بالقراءة، كما عبَّر عنها بسائر أركانها، وقيل: الكلام على حقيقته من طلب قراءة القرآن بعينها، وفيه بعد عن مقتضى السياق، فالأمر في الموضعين للوجوب [1].

ولو رحنا نتملى السيرة النبوية العطرة، لوجدنا رسول الله ﷺ يرفع درجة القراءة على المال، ويجعلها إلزامية، فهو ﷺ أول من فرض إلزامية التعليم لا على المتعلم فقط، بل على المعلّم.

غايات هذه المهارة وأهدافها:

١ - القراءة باب العلم وبوّابُه، وطريقته ووسيلته الأساسية.

٢- اكتساب الخبرات، وتطوير الذات.

٣- صقل الشخصية، وتربيتها، وترسيخ القيم والفضائل لديها.

٤- إكساب القدرة على البحث، والتعمق في العلوم.

---

(١) تفسير الألوسي ٢١/٣٩١.

وسائل اكتساب مهارة القراءة:

١- الاختيار والانتقاء للكتب نوعًا وكمًّا، من حيث الميول والرغبات والوضوح والسهولة.
٢- التدرج في القراءة كمًّا ونوعًا.
٣- وضع خطة قرائية محدّدة.
٤- الإفادة من الأوقات الضائعة في: السفر، وفترات الانتظار، وقبل النوم.
٥- التدوين للنقاط الرئيسة على هامش الكتاب، أو وضع خطوط تحتها.
٦- الممارسة والتدريب المستمر على القراءة.

أنواع القراءة:

تقسَّم القراءة إلى عدة أنواع، ويرتبط هذا التقسيم بالمفهوم والأداء، والحاجة أو الغرض، والطريقة، فحسب الغرض منها أو الهدف المرجو تكون للمعرفة، أو للإجابة عن تساؤل، أو حلٍّ لمشكلة، أو للمتعة والتسلية والترفيه. وحسب الأداء، تكون جهرية أو سرية (صامتة).

ولعلي ألخص أنواع القراءة في الآتي:

أولًا: حسب الطريقة:

فقد تكون قراءةً ناقدة، أو متصفحة، أو ابتكارية.

- فالناقدة تتسم بالعمق والفهم والتدبر، وتتصف بالتحليل والمقارنة والاستنباط؛ للوصول للرأي النقدي.
- أما المتصفحة فهي تلك القراءة الحدرية السريعة التي تريد إحاطة عجلى بفكرة أو خبر. كقراءة مجلة، أو صحيفة، أو استعراض كتاب، أو غير ذلك من المتطلبات السريعة.

- وأمّـا الابتكاريـة فهـي تلك التي تتدبَّـر المعاني وتتملاّهـا؛ لتخرج بفكرة جديدة، أو مطورة، كقول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد.

ثانيًا: حسب الغرض أو الهدف، ويندرج ضمنها:

١- **القـراءة التعليميـة:** وهدفها الأسـاس بلوغ المعرفة القرائية من خلال معرفـة الحـروف ونطقها النطق السليـم في الألفاظ والتراكيـب، وفهم المعاني المعبِّـرة عنهـا، وهذه هـي قـراءة التأسيس التي تنطلـق منها أنـواع القراءات الأخرى المرتبطة بهذه الأنواع.

٢- **القراءة التخصصـية:** وهي قراءة التخصص الدقيق، وينبغي لقارئها أن يستوعب المعاني والرموز والمصطلحات الخاصة بتخصصه الدقيق، فالعلاقة بين القراءة وبين فهم العلوم علاقة طردية، وقد أرجعت إحدى الدراسات أسباب ضعـف الطلاب في المسائـل الرياضية اللفظيـة إلى عدم تمكنهم مـن القراءة الصحيحـة، وأبان بعض (المهتمين بتعليم الرياضيات إلى أنَّ القدرة على قراءة المسألـة وفهمهـا يعد من أهم العوائـق التي تعيق الطالب عنـد حلها، وتقلّل من تحصيلـه فيها... وقد أشارت إحدى الدراسـات إلى أن ٢٩٪ من طلاب المرحلة الابتدائيـة يعود ضعفهم في المسائل اللفظيـة إلى ضعفهم في القراءة، وأن ١٩٪ منهم إلى عدم قدرتهم على تفسير ما تمت قراءته[١].

وقـد أجمع العديد من الدارسـين والباحثين على تأثير معرفة اللغة، وفهم معانيها، وربط ذلك بالتمكن من مهارة القراءة.

---

(١) مهـارات وإستراتيجيـات القراءة المعينـة على فهم المسائـل اللفظية في مـادة الرياضيات، مجلة جامعة الملك سعود، لعام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، مجلد١٥، ص٥٢٥.

٣- **القراءة التثقيفية:** وتشمل كل مقروء عدا التخصص، كالكتب العامة في السياسة، والأدب، والعلوم الشرعية، وغيرها، من: الاجتماع، والتربية. وتحتاج هذه القراءة إلى مران، وممارسة، وتشجيع؛ لأنها من القراءات التي تصب في صقل الشخصية، وتهذيبها، وتزويدها بعديد من المفاهيم، والمعارف التي تساعد في إنماء القدرات ومهارات التوصيل.

وتعد القراءة الحرّة ضمن هذا النوع، والقراءة الحرة ميدان واسع، وفضاء لا نهائي، يُتنسَّمُ فيه هواء الاختيار والحرية النقي، وفيه ينبت شجر الإبداع والمعرفة الحقيقية.

والقراءة مخرج فعّال من مخرجات الأنشطة الحرة، وتأثيرها وفعاليتها تنجم عن حرية الاختيار والهواية والميول، مما يجعلها تغرس في طالبها هواية البحث، كما تتيح له فرصة الاعتماد على النفس، والثقة فيها من خلال إكسابه القدرة على التعليم الذاتي، كما ترفع حصيلته اللغوية التي من خلالها يكتسب وينمي مهاراته في الاتصال اللغوي.

٤- **القراءة البحثية:** وهي المعنية بالبحوث العلمية، وهي قراءة تحتاج إلى الدقة والتركيز، وتمتاز بالسرعة والحيوية، والقدرة على الاختصار والإيجاز، والوصول إلى الهدف من أقصر الطرق، فالحصول على المعلومة يجب ألا يتطلب وقتًا طويلًا في القراءة، مما يؤدي إلى الملل منها، والزهد فيها، ومن هنا فإنَّ هذه القراءة تحتاج إلى مهارات خاصة متعلقة بالنظر السريع والتقاط النص المطلوب.

ثانيًا: القراءة حسب الأداء:

ومن القراءة حسب الأداء، القراءة الجهرية أو السرية (الصامتة)، أوالقراءة الاستماعية، أو القراءة الإشارية كقراءة الصم.

- **القراءة الجهرية:** وهي القراءة التي تقوم بتحويل الحروف والألفاظ من رموز صامتة إلى أصوات منطوقة معبرة.

ويحتاج هذا النوع من القراءة كي يكون سليمًا إلى مجموعة ضوابط، هي:

- مراعاة إخراج الحروف من مخارجها الأصلية، والحروف تختلف باختلاف مقاطع الصوت، وهي تسعة وعشرون حرفًا، أوردها حسب:

- **مخارج الحروف**، وهي من أقصى الحلق، حتى نهاية الشفتين: (**الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والقاف، والكاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والدال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والظاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو**) وبعضهم كأبي العباس محمد بن يزيد المبرد لا يعدّ الهمزة حرفًا، فتكون ثمانية وعشرين حرفًا.

- أمَّا ترتيبها الألفبائي فهو كالآتي: (**الألف، الباء، التاء، الثاء، الجيم، الحاء، الخاء، الدال، الذال، الراء، الزاي، السين، الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، العين، الغين، الفاء، القاف، الكاف، اللام، الميم، النون، الهاء، الواو، الياء**).

- وهناك طريقة ثالثة لترتيب الحروف، وهي الطريقة الأبجدية، وترتيب الحروف فيها كالآتي: (أبجد هوّز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ).

وناقش علماء اللغة الحروف المستحسنة في النطق والحروف التي لا تستحسن، وأبانوا عن مخارجها في جهاز النطق، وجعلوا لهذه الحروف ستة عشر مخرجًا: منها:

- ثلاثة في الحلق، أولها من أقصاه، ومنه تنطق حروف (الهمزة والألف والهاء).
- ووسط الحلق، ومنه مخرج (العين والحاء)، وفوق ذلك مع أول الفم مخرج (الغين والخاء).
- ومن أقصى اللسان مخرج (القاف) وأسفل ذلك وأدنى إلى مقدَّم الفم مخرج (الكاف).
- ومن وسط اللسان مخرج (الجيم والشين والياء).
- ومن أول حافة اللسان مخرج (اللام) ومن طرف اللسان مخرج (النون).
- ومن طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج (الصاد والزاي والسين).
- وبين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج (الظاء والثاء والذال).
- ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج (الفاء).
- ومن بين الشفتين مخرج (الباء والميم والواو).

ومخارج الحروف، كما وردت عند آخرين من أصحاب اللغة، تقع ضمن أربعة عشر مخرجًا، نوردها بطريقة أكثر وضوحًا، هي:

- ثلاثة حروف شفوية (ب، م، و).
- حرف واحد شفوي أسناني (ف).
- ثلاثة حروف من بين الأسنان (ث، ذ، ظ).
- سبعة حروف أسنانية لثوية (ت،ط،د،ض،س،ز،ص).
- ثلاثة حروف لثوية (ل، ر، ن).
- ثلاثة حروف غارية (ش، ج، ي).
- ستة حروف حلقية (ك،غ،خ،ق،ع،ح).
- حرفان جوفيان (ا، هـ).

وهنـاك تقسيمـات أخـرى: كالمجهـور، والمهموس، والرخـو، والشديـد، والمنطبق، والمنفتح، وحروف الاستعلاء، وحروف الانخفاض.

وتنقسـم الحـروف أيضًـا إلى: الصحـة والاعتـلال، والزيـادة والأصل، والسكون والحركة [1].

ومعرفـة هذه المخارج، وضبط حركة خـروج الحرف منها يؤدي إلى ظهور الصوت السليم للحرف.

ثانيًا: ضبط الألفاظ، وهذا يحتاج إلى معرفة الحركات من فتحٍ، وضمٍّ، وكسـرٍ، وتنوينٍ، وسكـونٍ. وإذا لم يضبـط الشكل فيجب أن يكـون القارئ ملمًّا بقواعـد اللغة إلمامًا جيدًا، ودون ذلك فـإنَّ التشويش سيتطرق إلى المعاني، وإلى بنية الكلمة، وإلى المواقع الإعرابية التي يتم على ضوئها تمييز علاقات الألفاظ بعضها ببعض، حيث يُعرف الفعل من الفاعل، والفاعل من المفعول... إلخ.

معايير القراءة الجهرية:

إذا تحققـت السلامـة اللغويـة، والأداء الواضـح المعبِّر عـن المعاني، مع التوظيف الصوتي، فإنَّ القـراءة تستتمُّ معاييرها التي لخَّصها الدكتور محمود الناقة في الآتي:

١- تجنُّب القارئ التردُّدَ والتلكُّؤَ، كتبعيض الجملة وتجزيئها كلمة كلمة.

٢- تسلسل الصوت والنُّطق تسلسلاً طبيعيًّا.

٣- أن يكون النَّبرُ والتنغيم معبِّرًا عن المعنى الموجود في النص المقروء.

وفوائد الجهرية، تكمن في الآتي:

(١) انظر سر الفصاحة: ص ٣٠ – ٣١.

١- إطلاق جهاز النطق بالحروف من مخارجها الصحيحة.

٢- معرفة طبقات الصوت.

٣- إعطاء الكلام حقه من الوقف والتساؤل والتعجب وغير ذلك.

٤- تساعد على التوثق من الحفظ والمراجعة.

وأما سلبياتها، فتكمن في:

١- عدم القدرة على مواصلة القراءة مدة طويلة؛ للشعور بتعب جهاز النطق.

٢- عدم إمكانية القراءة الجهرية في كل مكان أو زمان، فوجودك مع مجموعة يقف حائلاً بينك وبينها؛ خوفًا من إزعاجهم، والتشويش عليهم.

القراءة السرية (الصامتة)

وهي: القراءة الذاتية التي تُتابعُ فيها العينان الحروفَ والألفاظَ والعباراتِ، دونَ إظهارٍ للصوت، وقد تتحرك الشفتان خلال القراءة حركة خافتة وغير مسموعة.

وللقراءة السرية جوانب إيجابية وسلبية أيضًا، **فمن إيجابياتها:**

١- إمكانية القراءة مدة طويلة من الزمن دون الإحساس بالإرهاق والتعب.

٢- إمكانية القراءة في أي مكان وزمان، حيث تتم بصمت، وبمعزل عن إزعاج الآخرين.

٣- مفيدة في قطع الأوقات الطويلة في أماكن الانتظار، والسفر، والسهر.

٤- اختصار زمن القراءة، فهي أسرع من القراءة الجهرية؛ لما يبذله القارئ في الجهرية من جهد، ومن وقفات للراحة والتقاط الأنفاس.

ومن سلبياتها:

١- عدم معرفة الأخطاء التي يقع فيها القارئ.

٢- قد يشوبها عدم التركيز.

٣- فائدتها محدودة بحدود قارئها، بعكس الجهرية التي تفيد المستمع.

القراءة للصم:

حركات الشفاه التي تحوَّلت إلى حركات بأصابع اليدين بوصفها لغة يتفاهم بها الصم إلى بعضهم البعض، ويفهمون عن غيرهم، ليست طريقة حديثة، وتعيدها كتب التراجم لشخصية إبداعية من شخصيات تراثنا الأدبي، فتذكر عبد الرحمن بن محمد بن عثمان الأسدي الأصم، والملقب بالأطروش الذي بلغ من ذكائه وفطنته أنّه كان باستطاعته أن ينظر إلى حركة الشفاه لمكلمه، فيفهم عنه ما يريد قوله، وكان يستطيع قراءة الكتابة في الهواء.

ذكر ابن الفرضي في معرض ثنائه عليه، قال: (وكان نحويًّا لغويًّا، فصيح اللسان، شاعرًا جزل الشعر مرسلاً بليغًا طويل القلم، وكان يُرمزُ إليه بالشفاه، فيفهم[١]).

ويؤكد هذا الأمر الزبيدي، ويعده (شاعرًا مجوِّدًا، وأكثر أشعاره على مذاهب العرب، وله أراجيز فصيحة، وكان أصم أصلخ، فإذا أحبَّ المرء إخباره كتب له في الهواء، أو رمز له بشفتيه، فيفهم ويكتفي بذلك[٢]).

القراءة من حيث الإفراد والجمع، فقد تكون القراءة فردية، أو جماعية.

---

(١) تاريخ علماء الأندلس: ص ٢٦٢.

(٢) طبقات النحويين: ص ٣٠٦.

وللقـراءة الفرديـة أهميـة كبـيرة، وبخاصة قـراءة البدايـات التعليمية، فالقـراءة الفرديـة التعليمية مهمة للقـارىء، إذ هي تبين عن أمـور تحتاج إلى تقويم في بداية الأمر، مثل:

١- العيوب الخِلقية في اللسان.

٢- العيوب الاجتماعية والبيئية في اللسان.

٣- الأخطاء النحوية.

٤- الأخطاء في حق الكلام.

أما القراءة الجماعية، فإيجابياتها تكمن في:

١- تشجيع القُرَّاء على القراءة، وبخاصة أولئك الذين يعانون من الخجل، أو بعض عيوب الصوت والنطق.

٢- التدريب على القراءة بمعزل عن التصويب.

وأما سلبياتها فتقع في:

١- عدم معرفة أخطاء القُرَّاء في: الصوت، واللسان، واللحن.

٢- عدم التأكد ممن يقرأ، أو لا يقرأ.

القراءة حسب الغرض:

وتكمن أنواعها في: قراءة التعلم، وقراءة البحث، وقراءة التثقيف، وقراءة الإمتاع.

فقراءة التعلم والفهم:

ترتبـط بشريحة واسعة من المجتمع هي شريحـة طلاب المدارس، وينضم إليها فئة متعلمي اللغات صغارًا وكبارًا.

أمّا قراءة البحث والتحصيل:

فهي تلك القراءة المرتبطة بطلبة الجامعات والمتخصصين علميًّا.

وقراءة التثقيف:

وهي القراءة الموسوعية التي لا ترتبط بعلم معين، أو تخصص محدد، وإنمَّا يسعى صاحبها من ورائها إلى تكوين حصيلة ثقافية تعينه في تخصصه، أو مكانته الاجتماعية والوظيفية، فالكاتب، والسياسي، والعالم الشرعي، والإعلامي وغيرهم يحتاجون إلى مثل هذه القراءة؛ لتوسيع مداركهم، وإظهار معرفتهم، ولذلك قال الجاحظ في تعريف الأدب: **(هو الأخذ من كل علم بطرف)**.

وقيل عن الخليفة العباسي المأمون إنه [1]: **(تكلم المأمون يومًا فأحسن، فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك ! إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجم فأنت هرمس في حسابه، أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في علمه، وإن ذكر السخاء كنت حاتمًا في جوده، أو الصدق فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو الكرم فأنت كعب بن مامة في إيثاره على نفسه، أو الوفاء فأنت السموأل بن عاديا في وفائه)**.

وتأتي قراءة الإمتاع: للترويح عن النفس، وتزجية أوقات الفراغ، مثل قراءة القصص والروايات، والأخبار والحكايات والطرائف، وتشتدُّ الحاجة إليها في وقتنا الحاضر، نتيجة لضغوط العصر، من ظروف اقتصادية، وحروب دموية، ومشكلات اجتماعية، وتوفر التقنية الإلكترونية يسَّر هذا النوع من القراءة التي توفر عليك الجهد والوقت، فتستطيع الدخول إلى مواقع الترويح

---

(١) التذكرة الحمدونية ١/٤٤١.

والترفيه ونشراتها وكتبها ومجلاتها، وتعليقاتها، بكل يسر وسهولة، وفي كل وقت، وعلى أي حال.

تنمية مهارة القراءة:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]: **(اقرؤوا القرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله).**

الانحسار الثقافي الذي رافق التراجع الحضاري بسبب من آثار الاستعمار، تبعه انحسارٌ وتراجع قرائي آخر نتيجة ما أفرزته آلة العلم الحديث، من: فضائيات، وحاسبات، وشبكات اتصال.

ومن منطلق الإيمان بأنَّ أمة اقرأ معنية بالقراءة لأن الاهتمام بالقراءة وتنميتها والتشجيع عليها هي رسالة الإسلام، وللنهوض بالأدب والعلم والثقافة، فلا بدَّ من تفعيل دور القراءة في حياة الفرد والمجتمع، من خلال أمور عدة نذكر منها:

١- تشجيع حركة النشر، للمؤلفين والناشرين على السواء، ووضع حوافز وإعانات لهم.
٢- إيجاد أماكن للاطلاع والقراءة في: جميع الاستراحات، وأماكن الانتظار، والإدارات الحكومية، والمستشفيات، والمطارات، والحدائق العامة، والمتنزهات، والنوادي. وجعل القراءة متاحة للجميع في كل مكان وزمان.
٣- زيادة عدد المكتبات في الأحياء، والعناية بمكتبات المدارس.

---

(١) البيان والتبيين ٢/٧٠.

٤- وضع مسابقات في القراءة على مختلف مستويات القرَّاء، وعلى جميع الأصعدة.

٥- التوسع في إقامة معارض الكتب، والمهرجانات السنوية للكتاب: تأليفًا، ونشرًا، وقراءة.

٦- الاهتمام بمؤسسات التعليم الجامعي، وتنشيط حركة التأليف والترجمة والنشر لدى هذه المؤسسات.

٧- العمل على تخفيض أسعار الكتب، وجعلها في متناول الجميع، تيسيرًا للحصول عليها واقتنائها.

٨- تركيز وسائل الإعلام على ابتكار العديد من البرامج القرائية، وإقامة حملات إعلامية؛ للقضاء على الأمية.

٩- العناية بالطفل وتعويده القراءة من خلال تشجيع طباعة كتب الأطفال، ومجلاتهم.

نماذج على القراءة:

وصف القرآن الكريم للباقلاني[١]: (طبَّق الأرضَ أنوارُه، وجلَّل الآفاقَ ضياؤُه، ونفذَ في العالم حُكْمُه، وقُبِلَ في الدُّنيا رسمُه، وطمسَ ظلامَ الكفرِ بعدَ أنْ كانَ مضروبَ الرواق، ممدودَ الأطناب، مبسوطَ الباعِ مرفوعَ العمادِ،... فكان كما وصفه الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى ٥٢).

وقال الجاحظ[٢]: (الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والقعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم

(١) إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف: ١٨٦.

(٢) الحيوان ١/١٧.

المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنـزيل، الكتاب وعاء مليء علمًا، وظرفٌ حشي ظرفًا، إن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ مـن سحبان وائل، وإن شئت ضحكت من نـوادره، وإن شئت بكيت من مواعظه، ومـن لك بواعظٍ مُلّهٍ،وبناسك فاتـك، وناطق أخرس، ومن لك بطبيب: أعرابيّ، ورومـيّ، وهنديّ، وفارسيّ، ويونانيّ، ونديم مولَّد، ووصيف ممتّع، ومن لك بشيء يجمـع الأول والآخر، والناقص والوافي، والشاهد والغائـب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده، وبعد، فما رأيت بستانًا يحمل في ردن، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء غيره، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من في الأرض، وأكتم للسـر من صاحب السـر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جارًا أبر، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية ولا عنايـة، ولا أقـل إملالاً وإبرامًا، ولا أبعد عن مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جـدال، ولا أكـف عن قتال من كتاب، ولا أعم بيانًـا ولا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافـأة، ولا شجـرة أطول عمرًا، ولا أطيـب ثمرًا، ولا أقرب مجتنـىً، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجـد في كل إبـان من كتاب، ولا أعلم نتاجًـا في حداثة سنه، وقرب ميـلاده، ورخصـ ثمنه، وإمكان وجـوده، يجمع من التدابـير العجيبة، والعلوم الغريبـة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمـود الأذهان اللطيفة، ومن الحِكم الرفيعة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية والسائرة، والأمم البائدة، ما يجمع من كتاب.

ولـولا الحكم المخطوطة، والكتب المدونـة، لبَطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيـان سلطـان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضـع استذكار، ولو لم يتم

ذلـك لحرمنـا أكثر النفع، ومن لك لا يبتدئك في حال شغلك، ولا في أوقات عدم نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل والتذمم، ومن لك بزائر إن شئت جعلت زيارته غِبًّا، ووردِه خِمسًا، وإن شئت لزمك لزوم ظلك.

والكتـاب هـو الجليس الذي لا يطريـك، والصديق الـذي لا يقليك، والرفيق الـذي لا يملُّك، والمستميح الذي لا يؤذيك، والجار الـذي لا يستبطئك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق.

والكتـاب هو الذي إن نظـرت فيه أطال إمتاعك، وشحـذ طباعك، وبسط لسانك، وجـود بيانك، وفخّم ألفاظك، وعمّر صـدرك، وحباك تعظيم الأقوام، ومنحـك صداقة الملوك، يطيعك في الليل طاعتـه بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضـر، وهو المعلم الـذي إن افتقرت إليه لم يحقّرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطـع عنك الفائـدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبـت عليك ريح أعدائك لم ينقلـب عليـك، ومتى كنت متعلقًا به ومتصلاً منـه بأدنى حبل لم يضرك منه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم، وأصحاب الكفايـات ساعة ليلهم، نظرة في كتاب، لا يزال لهم فيه ازدياد أبدًا، في: تجربة وعقل، ومروءة، وصون عرض، وإصلاح دين ومال، ورب صنيعة وابتداء إنعام، ولـو لم يكـن من فضله عليـك، وإحسانه إليـك، إلا منعه لك مـن الجلوس على بابـك، ونظرك إلى المارة بـك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومـن فضـول النظر، وملابسة صغـار الناس، ومن حضـور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهـم الفاسدة، وأحوالهم الردية، وطرائقهـم المذمومة، وأفعالهم الخبيثة القبيحـة، لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولـو لم يكـن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنـى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعـب وكل ما أشبهه، لقد كان في ذلك على صاحبه أسبغ النعمة، وأعظم المنة،

وهو الذي يزيد في العقل، ويشحذه، ويداويه، ويهذبه، وينفي الخبث عنه، ويفيد العلم، ويصادق بينك وبين الحجة، ويقودك للأخذ بالثقة، ويُعمر الحال، ويكسب المال، وهو منبهة للمورث، وكنز عند الوارث، غير أنه كنز لا زكاة فيه، ولا حق للسلطان يخرج منه، هو كالضيعة التي لا تحتاج إلى سقي، ولا إسجال بإيغاز، ولا إلى شرط ولا أكار، وليس عليها عشر للسلطان ولا خراج، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدناها بها من غاب عنا، وفتحنا بها كل منغلق علينا، فجمعنا في قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم لقد كان بُخِس حظنا منه، وأكثر من كتبهم نفعًا وأشرف منها حظًا وأحسن موقعًا كتب الله ﷻ التي فيها الهدى والرحمة والإخبار عن كل عبرة وتعريف كل سيئة وحسنة، ومازالت كتب الله جل وعلا في الألواح والصحف والمصاحف، فقال جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ النجم.

فذكر صحف موسى الموجودة وصحف إبراهيم البائدة، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة.

وقال ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾﴾ الأنعام.

وقال تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ الانفطار.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾ الانشقاق.

وقال ﷻ: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ الإسراء.

ولو لم تكن تكتب أعمالهم لكانت محفوظة، لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه تعالى جده، علم أن نسخه أوكد وأبلغ وأهيب في الصدور، فقال جل ذكره: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ الجاثية.

ولو شاء الله أن يجعل البشارات بالمرسلين على الألسنة، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تبارك وتعالى علم أن ذلك أتم وأبلغ وأكمل وأجمع.

وفي قول سليمان، عليه السلام قال تعالى: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ النمل.

وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عفريت وإنسي وغيرهما، فرأى الكتاب أبهى وأحسن، وأكرم وأفخم وأنبل من الرسالة، ولو شاء النبي، ﷺ، ألا يكتب إلى: قيصر، وكسرى، والنجاشي، والمقوقس، وإلى بني الجُلندي، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هوذة، والملوك العظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلغ المعصوم من الخطإ والزلل والتبدّل، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبه بتلك الحالة، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب، وحمله إن كثُر ورقه فليس مما يمل؛ لأنه وإن كان كتابًا واحدًا فإنه كتب كثيرة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول، حتى يهجم على الثاني، ولا الثالث حتى يهجم على الرابع، فهو أبدًا مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون حاثًّا لبعض، ولايزال نشاطه زائدًا متى خرج من أثر صار في خبر، حتى يخرج من خبر إلى شعر، ومن الشعر إلى النوادر، ومن النوادر إلى نتف وإلى مواعظ، حتى يفضي به إلى كل معرفة.

تعليق:

إنَّ هذه المقالة للجاحظ في الكتاب لتنبئ عن وعي تام بأهمية الكتاب، ومكانته، ورفعة شأنه، وعظيم فائدته، وبالغ أثره.

وقد استطاعت هذه المقالة الوصفية جمع كل رائق في أوصاف الكتاب، ووضع كل فائق في تصوّر أثره، وبيان خبره، فلم يترك الجاحظ صفة محببة، ووسيلة مقربة، إلا وأتى بها من أجل توجيه الهمم والغايات إلى اقتناء الكتاب

وقراءته، وصرف الوقت في مرافقته ومزاملته، وجعله الأساس الذي نبني عليه، والمصدر الذي نصدر عنه، والمرجع الذي نؤول إليه، بل البناء الذي يأوينا، والشجرة التي تفيء علينا بظلالها، وتُهدي لنا ثمارها.

ولعل أهم الصفات التي خلعها الجاحظ على الكتاب في هذه المقالة هي:

- الكتاب ذخر وكنز، وجليس صالح، ورفيق مؤنس، وصاحب في العسر واليسر، وحافظ للسر، ومعلم دائم.
- والكتاب وعاء علم حشي بكل مفيد ورائع وماتع.
- وفي الكتاب صفات إنسانية، فصفات: الواعظ، والناسك، والطبيب، والنديم، والوصيف هي صفاته.
- ويجمع خلال الطبيعة فهو بستان، وروضة، وحديقة، لا تحتاج لكلفة وتعهد، وشجرة طيبة أصلها ثابت، ومجتناها قريب.
- وهو ناطق عن الأحياء ومترجم عن الموتى.
- وهو موافق للقارئ في كل أحواله، ومطيع له على كل حال.
- وفي الكتاب كل التجارب، والحكم، والأخبار، والآثار، والمعرفة.
- وأخيرًا، فالكتاب منحة عظيمة، فيه من الفوائد ما لايحدّ، من: المتعة، وشحذ الطبع، وتقويم اللسان، وتجويد البيان، ورفعة الشأن، وزيادة العقل، وكسب المال، وحسن المآل.

الفصل الثالث

مهـارة التحـــدث

وفيـــه:

١- أهميتها ومكانتها.

٢- وسائل تنميتها.

٥- عناصرها.

٦- أغراضها.

٧- نصوص في مهارة التحدث:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ الزمر.

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ»[1].

(١) صحيح البخاري باب في الهدي الصالح رقم (٦٠٩٨)

مهارة التحدُّث:

لعل هـذه المهارة تعد مع مهارة القراءة جامع المهـارات وأساسها، فمنهما وعنهمـا ينبثـق باقـي المهـارات، فمهـارات: الحـوار، والإلقـاء، والمحاضـرة، والخطـاب، والندوة، والأحاديـث الإذاعية والمرئية كلها تخـرج من تحت عباءة مهارة التحدث.

وإذا كانـت اللغة هي التعبير عـن الأغراض، كما سبق في تعريف ابن جني لهـا، فـإنّ مهارة التحدث تُعنى بكل هـذه الأغراض، من: مشاعـر، وأحاسيس، وأفـكار، ومعتقـدات، وتنقلها إلى الآخر من خلال تعبـير راقٍ وأداءٍ سليم، وتُعدُّ هـذه المهارة من الوسائـل الأساسية في التعبـير، وذلك لسهولتهـا، ويُسرها في التوصيـل بـين الأفراد والجماعـات، ونحن نقوم بالعديد مـن أفعالنا من خلال هـذه المهارة، ويرى بعض الباحثين أن مـا يتجاوز ٩٣٪ من النشاط اللغوي الذي يُمارسه الناس هو نشاط شفوي.

أهميتها ومكانتها:

الحديث يتفاضل، فمنه ما يصل الغاية، ومنه ما ينحدر، حتى يصل الدرك الأسفـل، وتحسين الحديـث وتجميله أمـرٌ مطلوب، والله ﷻ، وصـف لنا كتابه الكـريم بأنه أفصح الـكلام، وأحسنه وأجمله وأبلغه،فقـال عزَّ من قائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ الزمر.

ومن الأبيات السائرة قول أحد الشعراء[1]:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلمْ يبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدَّمِ

فهـذا الشاعر يقسم الإنسان مناصفة بـين لسانه وعقله، أمّا اللحم والدم فيتساوى فيه الجميع. ولذلك فإن القدماء من: ساسة، وحكماء، وعلماء، وأدباء، ومربّـين، اهتموا لهذه المهـارة وبها، وجعلوها عنوانًا على مـروءة الرجل، وبهاء منظره، وحسن مجلسه، فقال يونس بن حبيب: (**ليس لعَيي مروءة، ولا لمنقوص البيـان بهاء، ولو حـكَّ بيافوخه أعنان السـماء**[1]) وجعلوا اللسان دليلاً كاشفًا عـن طبيعة الشخصية، فقالوا: (**المـرءُ مخبوءٌ تحتَ لسـانه**[2]) وجعلوا الحسن والجمال للبيان، يقول أحد الشعراء[3]:

كفـى بالمـرء عيبًا أن تـراه له وجهٌ وليسَ لـهُ لسـانُ

وما حُسْنُ الرّجالِ لهم بزينٍ إذا لم يُسعدِ الحسْنَ البيانُ

وسائل تنمية مهارة التحدث:

وسائـل تنمية هذه المهارة متعـددة ومتوافرة، وسهلـة، فالطفل منذ بداية نطقـه يبـدأ يسمـع الحديث من والديـه، ومن نقطـة البداية هـذه، وإلى نقطة النهايـة في حياته، وهو يُتحدَّثُ إليـه ويَتحدَّثُ إلى غيره، ونستطيع أن نوجز هذه الوسائل في الآتي:

١- **التعلُّم:** بلا شك، فالتعلُّم هو الينبوع الذي يفيض علينا من مائه العميم، فهـو ميـدان يتدرّب فيـه الطفل، ومن خلالـه تَمْهُرُ ناطقتـه، وينطلق

(١)(١) البيان والتبيين ١/٧٧.

(٢) هذا القول منسوب إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في نهج البلاغة ٦٩٤ وبهجة المجالس ١/٥٥.

(٣) عيون الأخبار ٢/١٦٩.

لسانُـه، وقد كان السلف يـرون أن تعلُّم اللغة من الدين، فمما جاءَ عن أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: تعلّموا العربية كما تعلَّمونَ القرآن[1].

٢- **الحفـظ:** إذا كانـت الذاكـرة تزودنا بحاجاتنا، وتخـزن لنا المعلومات الضروريـة، فـإنّ الحفـظ مـادة التعلّـم، ووقـود الخواطـر، وفي رأي القدماء: (أنّ كلّ حافظ إمـام... فلما جاءت التربية الحديثة زهّدتنا في الحفظ، فأضرّت بنا إضرارًا شديدًا [2]).

٣- **التـزوّد بالمعارف** المختلفة من خلال القراءة المعمقة، وحضور الندوات، والمحاضرات، ومتابعة كل جديد في الساحات الثقافية.

٤- **التدريب** على التعبير التلقائي، والحوار البنّاء، والنقاش الجاد.

عيوب يجب تجنبها:

إنّ كل متعرض للحديث أيًّـا كان شكله يجب عليـه أن يتخلص ممّا يلحق الحديث من بعض العيوب والهنات مثل:

١- **الاسـتطراد** في غـير موضعه والإطالة الممجوجـة، والحشو والثرثرة في غـير طائل، قال الجاحـظ [3]: (**للكلام غاية، ولنشـاط السـامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل الهذَر**) ونحن نفرُّ من الملال، ونعوذ بالله من الهذر.

٢- **الإغراب** والتفاصح والتشدق والتكلّف؛ لأن أكثر أدواء الكلام من ذلك، وقـد ورد النهي عن الثرثرة، والتشـادق، والتفيهق، وكثرة السؤال، والكلام فيما لا طائل وراءه، والمطلوب هو الوضوح والتبيين، وسلاسة القول.

فدعـوا إلى حسن المنطـق، وحلاوة اللفـظ، وكرم المعنى، فقـال بعضهم:

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١١٦/٦ رقم ٢٩٩١٥.
(٢) الفنون الصغرى: ص ١٦٥.
(٣) البيان والتبيين ٢٥٤/١.

(أُنذركم حُسْنَ الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإنّ المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلاً...، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملى، والمعاني إذا كُسيتْ الألفاظ الكريمة وأُلبست الأوصاف الرفيعة، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، وأربتْ على حقائق أقدارها).

٣- **التسرّع والعجلة** دون تروٍّ وتفكير، فالحديث الذي يخرج دون تأمّل ونظر قد يؤدي إلى الخطأ والخطل، ولذلك قيل[١]:

نار الروية نارٌ جدُّ منضجةٍ ... وفي البديهة نارٌ ذاتُ تلويح

فلا بدَّ للكاتب أو المتحدث من رَويَّةٍ وهدوء، وتثبُّتٍ وتنقيح، وبذلك فإن على المتحدّث أنْ يُعْمِلَ عقلَهُ وفكرَهُ حتّى يمخُضَ أقوالَهُ، ولذلك كان منهج السابقين التروي وإعادة النظر، والتثبُّت.

٤- **الاعتداد والغرور بالرأي:** قال الشافعي: **(رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب).**

فالرأي الذي تتخذه اليوم قد تغيره غدًا؛ نظرًا لظهور دلائل وشواهد، والفكرة التي تتبناها اليوم، قد تلفظها في الغد؛ لأنك لم تكن قد اطلعت على دليل جديد، أو شاهد أكيد، أو حقيقة ثابتة.

ومن الأمور التي تمنع الإنسان من إعادة النظر فيما يكتب، وعرضه على المختصين؛ ليروا رأيهم فيه، شدة إعجاب المرء بعمله، وقديمًا جاء في الأمثال قول الشاعر:

زَيَّنَهُ اللهُ في الفُؤادِ كما ... زُيِّنَ في عينِ والدٍ ولَدُه

---

(١) ديوان ابن الرومي ١/١١٣٣ والعمدة ١/٦٢.

ويقول أبو تمام[1]:

ويُسيءُ بالإحسانِ ظنًا لا كَمَنْ هو بابْنِه وبِشِعْرِهِ مَفْتونُ

فالافتتان بالعمل يُنَقِصُهُ، يقول الجاحظ[2]: **(ومن آفات صناعة الكلام أن يرى مَنْ أحْسَنَ بعضَها أَنَّهُ أَحْسَنَها كلَّها، وكلُّ مَنْ خاصَمَ فيها ظنَّ أَنَّهُ فوقَ مَنْ خاصَمَهُ، حتى يُرى المبتدئ أَنَّهُ كالمُنْتَهي، ويُخيَّلُ إلى الغبيِّ أَنَّهُ فوقَ الذَّكيِّ)**.

٥- **بذاءة اللسان:** البعد عن عوار الكلام، وتجنب قبيح الألفاظ من سباب وشتم، وتعرض لتنقص الآخرين والنيل منهم، هو أساس الحديث النافع، أما البذاءة والتلفظ بقبيح الألفاظ، وسلاطة اللسان كل ذلك يؤدي إلى نتيجة سلبية لدى الآخر الذي يستمع إلى حديثك، والله ﷻ يقول: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ الحج.

وقد كان بعض الشعراء يرفض الهجاء، ويأبى أن يقوله، كما في قول الشاعر[3]:

وأغفرُ عوراءَ الكريمِ ادخاره وأعرضُ عن شتمِ اللئيمِ تكرُّما

ويقول آخر:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني فمضيتُ ثمَّتَ قلتُ لا يعنيني

---

(١) التذكرة الحمدونية ١/٣٣٧.

(٢) رسائل الجاحظ: ص ٢٤٦.

(٣) ديوان حاتم الطائي: ص ٥٦.

عناصر التحدُّث:

إذا كان لكل قول أسباب تسنده، وعناصر تدعمه وتقويه، فإنّ التحدُّث يحتاج إلى ما يلي:

١- **الحاجة:** وهي الدافع الرئيس للحديث، فقضاء حاجات معاشنا، وحياتنا يدفعنا للحديث. فحاجتك إلى التعلم، أو السؤال عن شيء، أو الوظيفة، أو إيصال رسالة، دوافع للحديث.

٢- **موضوع الحديث:** لكل حديث موضوعه وفكرته التي يقوم عليها، فهناك فرقٌ بين خطبة تُلقى في جمهور حاشد، أو محاضرة في حضور متخصّص، أو حديث جانبي لدعوة، أو سؤال عن الأهل والحال والأولاد والوظيفة، والجو والسياسة والأدب، وغير ذلك.

٣- **الأسلوب:** يتوقف البناء الأسلوبي للحديث على موضوعه وشكله، فهناك فرق بين أسلوب الإلقاء أو الحوار أو الجدل، أو في طلب حق، أو الدفاع عن متهم، أو الهجوم على باطل، فالألفاظ والمعاني يجب أن تتوافق مع الفكرة المطروحة للنقاش، وقد جعل الجاحظ أسلوب الحديث طبقات.. وعقد الجاحظ بابًا في أنّ قول كل إنسان على قدْر خُلُقه وطبعه[1].

٤- **طبقات الصوت:** لا نشعر، ونحن نتحدّث بتغيّر طبقات صوتنا، فنجد الحدّة والشدّة التي تنتاب أصواتنا في حالة الغضب، واللين والرقة في حالة الرضا، كما أنّ الضغط على الحروف، وإخراج الألفاظ من مخارج فيها ترقيقٌ أو تفخيمٌ يُنبئ بنوعية الحديث المثار، ونستطيع أن نستشفّ طبيعة الحديث من خلال استماعنا للأداء الصوتي، فالهمس يُنبئ عن حديث ذي طبيعة

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٧٥.

سريـة، والحديـث المصحوب بالابتسـام والقهقهة يدل على الطرافـة، أمّا تلك النـبرات الآمرة أو الناهية، فموضـوع الحديث يدل على أنه من الأعلى للأدنى، والاستعطاف والرجاء يُعطي انطباعًا بأنّ الحديث من الأدنى للأعلى.

والتدريـب على الصـوت وتحسينه وتجويـده وضبطه ضـرورة، كالتدريب علـى القـراءة والكتابة، يقول الجاحـظ: (**وكانوا يُـروّون صـبيانهم الأرجاز، ويُعلّمونهـم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصـوت، وتحقيق الإعراب؛ لأنّ ذلك يفتـق اللهـاة، ويفتـح الجرم. واللسـان إذا أكـثرت تقليبـه رقّ ولان، وإذا أقللتَ تقليبه، وأطلتَ إسكاتهُ جسأ وغلُظ**[1]).

أغراض التحدُّث:

للتحدّث ـ كونه وسيلة التعامل الأساسية ـ أغراض عديدة، نوجزها فيما يلي:

- **القـدرة علـى التعامل مع الآخرين**، فالإنسـان في تعامله اليومي يحتاج لهذه المهارة حاجته إلى طعامه وشرابه.
- **الأداء الوظيفـي**، فالقـدرة علـى التحدّث قـد تكونُ شرطًـا من شروط القبـول الوظيفـي، فكثير مـن الوظائف يرتبـط بالقدرة علـى الإقناع، مثـل: المعلمين، و موظفـي المتاجر، ومندوبي الشـركات، ورجال الإعلام والاستعـلام، وممن تقـوم وظائفهم على مقابلة النـاس، مثل: الأطباء، والمحامين، والسماسرة... إلخ.
- **الدعوة إلى فكرة أو منهج**، أو اتجاه، وأصحابها من أكثر الناس اهتمامًا بالحصـول على هـذه المهـارة؛ لأنها تجعلهـم قادرين علـى التعبير عن أفكارهـم بطلاقـة وحيوية، وإبـراز مناهجهم في صـورة لائقة، وتقديم اتجاهاتهم في ثوبٍ أخّاذ من القبول والإقناع.

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٧٢ .

- **تكوين الشخصية:** السعي إلى تملّك هذه المهارة، والرغبة في إتقانها، كونها أساسًا في تكوين الشخصية، وتكميلها وتجميلها.

نصوص في مهارة التحدث:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (**رحم الله امرءًا أصلح لسانه** [1]) وقال ابن سيرين: (**ما رأيتُ على رجل أحسن من فصاحة** [2]) وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: (**اطلبوا الأدب، فإن استغنيتم به كان لكم جمالاً، وإنْ احتجتم إليه كان لكم مالاً**[3]) وقال شبيب بن شبة: (**اطلب الأدب فإنّه دليل على المروءة، وزيادة في العقل، وصاحب في الغربة، وصلةٌ في المجلس**[4]).

فصاحة القول:

قال الله عز وجل على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ القصص.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (**إنَّ من البيان لسحرًا**[5]).

وقال صلى الله عليه وسلم من خطبة له: (**إنَّ أحسن الحديثِ كتابُ الله، قد أفلحَ من زيَّنَهُ اللهُ في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنَّهُ أحسنُ الحديثِ وأبلغهُ** [6]).

---

(١) بهجة المجالس ١ / ٦٤.

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١٥٥.

(٣) بهجة المجالس ١/ ٦٥.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٥٢.

(٥) سبق وروده وتوثيقه .

(٦) إعجاز القرآن للباقلاني: ص١٣٠.

ومن اللطائف في مهارة التحدث:

وقف رجل حسن الشارة، جميل الملبس، على أحد العلماء، فسأله فأخطأ ولحن.

فقال له العالم: **البس على قدر لسانك.**

القول السيئ:

نظـر بعضهم إلى رجـل يفحش في القول، فقال له [1]: **يا هـذا، إنمَّا تُملي على حافِظَيْكَ كتابًا إلى ربِّكَ، فانظرْ ماذا تقول.**

وجاء في نهاية الأرب[2]:

مما قيل في اللسان:

مـن محاسـنه: إذا كان الرجل: حادّ اللسان قادرًا على الكلام، فهو: ذرب اللسان، وفتيق اللسـان. فإذا كان جيِّده، فهو لسن. فإذا كان يضعه، حيث أراد، فهو ذليق. فإذا كان فصيحًا بيِّن اللهجة، فهو حُذاقيّ. فإذا كان مع حدّة اللسان بليغًـا، فهـو مسلاق. فإذا كان لا يعترض لسانه عُقـدة، ولا يتحيَّفُ بيانه عُجمة، فهو مصقع. فإذا كان المتكلم عن القوم، فهو مدّرهٌ.

فصل في عيوبه:

الرُّتَّة: حُبْسةٌ في لسان الرجل، وعجلة في كلامه.

اللُّكنة والحُكْلة: عقدة في اللسان وعُجْمة في البيان.

---

(١) نثر الدر ٧/ ١١٨.

(٢) ١/١٤٣.

الهتهتة بالتاء والثاء:حكاية التواء اللسان عند الكلام.

التَّعتعة بالتاء والثاء: حكايةُ صوت الألكن والعيّ.

اللُّثْغة: أن يصيِّر الراء لامًا من كلامه.

الفأْفأة: أن يتردّد في الفاء.

التَّمتمة: أن يتردد في التاء.

اللَّفف: أن يكون في اللسان ثقل وانعقاد.

اللَّيغ: ألا يُبيِّن الكلام.

اللَّجْلجة: أن يكون فيه عيّ وإدخال بعض كلامه في بعض.

الخنْخنة: أن يتكلم من لدن أنفه. ويقال: هي ألا يُبيِّن الرجل كلامه، فيخنخن في خياشيمه.

المقمقة: أن يتكلم من أقصى حلقه.

في ترتيب العيّ:

يقال: رجل عيِيٌّ، ثم حصر، ثم فهٌّ، ثم مفُحْمٌ، ثم لجلاجٌ، ثم أبْكمُ.

قال عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«المرء مخبوء تحت لسانه»**.

وقال شاعر:

وما المرء إلاَّ الأصغران: لسانه ومعقوله والجسم خلقٌ مصوَّرُ

وقال امرؤ القيس:

وذلك من نبأ جاءني ... وخُبِّرته عن أبي الأسْودِ

ولو عن نثا غيره جاءني ... وجرح اللسان كجرح اليدِ

النَّثا القبيح من الكلام.

وقال جرير:

لساني وسيفي: صارمان كلاهما! وللسيفُ أشوى وقعةً من لسانيا!

قوله أشوى إذا أخطأ المقتل.

وقال آخر:

وجرح السيف تدمله فيبرى وجرح الدّهر ما جرح اللسانُ!

حسن الحديث والنغمة:

فمن ذلك قول ذي الرمّة:

ولمّا تلاقينا، جرت من عيوننا دموعٌ كففنا غَرْبَهـا بالأصـابعِ

ونلنا سُقاطًا من حديثٍ كأنه جنى النَّحلِ ممزوجًا بماء الوقائعِ

وقال أيضًا:

وإنّا ليجرِي بيننا حينَ نلتقي حديثٌ له وشيٌ كوشي المطارفِ!

حديثٌ كوقع القطرِ في المحل يُشتفى به من جوىً في داخل القلب، لاطفِ

وقال ابن الروميّ:

ولقـد سـئمتُ مآربِـي فكـأنَّ طيِّبهـا خبيثْ

إلاَّ الحديث فإنَّـــهُ مثلُ اسمه أبدًا حديثْ

وقال بشّار:

وكـــأنَّ رجْـــعَ حـديـثِـهـا قطعُ الرياض كُسين زهرا

وكـــأنَّ تحـت لـسـانـهـا هـاروتَ يـنـفـثُ فـيـه سـحـرا
وتـخـالُ مـا اشـتـمـلـت عـلـيـ ـه ثـيـابـهـا: ذهـبًـا وعـطـرا

وقال البحتريّ:

فلمَّا التقينا والنَّقا موعدٌ لنا تعجَّبرائيالدُّرّحُسنَاولاقطه
فمنلؤلؤٍتجلوهعندابتسامها ومنلؤلؤعندالحديثتُساقطه!

وقال آخر:

ظللْنا نشاوي عند أمِّ محمدٍ بنومٍ،ولم نشرب شرابًاولا خمرا!
إذاصمتتعنَّا،صحونابصمتها وإن نطقت، هاجت لألبابنا سُكرا

وقال ابن الروميّ عفا الله عنه:

وحديثُها السِّحر الحلال، لو انَّه لم يجنِ قتل العاشق المتحرِّزِ
إن طال لم يملل، وإن هي أوجزتْ ودّ المحدِّثُ أنـهـا لم تُـوجـزِ
شركُ القلوب، وفتنةٌ ما مثلها للمطمئنِّ، وعقْلةُ المستوفزِ

وقال القطاميّ:

فهنَّ ينْبذن من قولٍ يُصبن به مواقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي

وقال عليّ بن عطية البلنسيّ:

كلَّمتني فخلْت دُرًّا نثيرًا وتأملت عقدها هل تناثر
فازدهاها جمالها، فأرتني عقد دُرٍّ من التبسُّم آخر!

وقال الوأواء الدّمشقيّ:

وحـديـثٍ كـأنَّـه أوبـةٌ مـن مـسـافـرِ
كـان أحـلـى مـن الـرُّقـا د لـدي طـرف سـاهـرِ

بـــتُّ ألـــهـــو بـطـيـبـه ... في ريـــاضٍ زواهـــرِ
بـــين ســـاقٍ وســـامـــر ... ومُـــغـــنٍّ وزامـــرِ

وقال الطائيّ:

مـدَّتْ إلـيـك بـنـانـةً أُسـروعـا ... تشكو الـفـراق، ومُـقـلـةً ينبوعا
كـادت لـعـرفـان الـنَّوى ألـفـاظـهـا ... مـن رقَّـة الشَّكوى تكون دموعا

وقال ابن المعتزّ:

وسـر أحـاديـثٍ عـذابٍ لـو انَّـهـا ... جنى النحل، لم تمْجُج حلاوتها النحلُ

ومما قيل في الأذن:

الصَّمَع: صغرها.

السَّكك: كونها في نهاية الصِّغر.

القنف: استرخاؤهما وإقبالهما إلى الوجه.

الخطل: غلظهما.

في ترتيب الصَّمم يقال:

بأذنه وقرٌ.

فإذا زاد، فهو صممٌ.

فإذا زاد، فهو طرشٌ.

فإذا زاد حتَّى لا يسمع الرعد، فهو صلخٌ.

الفصل الرابع

مهـــارة الإلقـــاء

١- تعريف.

٢- ضوابطه وأنواعه.

٣- عوارضه وعوائقه.

٤- تدريب وتطبيق.

الإلقاء:

عِلمٌ وفنٌّ لهُ وقعُه وأهميَّتُهُ وأثره على النفوس، فقد يغيّر رأيًا، أو اتجاهًا، وقد يحيي همّةً،ويُعلي نخوةً، أو يرفع طموحًا، أو يدفعُ حماسةً، وله تأثيره في ذات المُلقي، من صقل لشخصيته، وتأكيد ثقته بنفسه.

وترتبط هذه المهارة بالصوت في طبقاته، وحُسن أدائه، واللسان في سلامة نُطقه، وخلوِّه من العيوب الخَلْقية.

وجـودة الإلقاء مرتبطة بالحكـم على قدرة صاحبهـا في التأثير، فكم من كلمة بليغة ضاع أثرها؛ لسوء إلقائها، وكم من قصيدة متوسطة ارتفع مقدارها بجودة إلقائها، ولذلك فإن كثيرًا من أصحاب البيان كانوا يحرصون على تجويد قدراتهـم ومهاراتهـم الإلقائية، بـل كان منهم من لا يتمتع بهـذه المهارة فيقوم بالإيعاز لمن يمتلكها؛ لينوب عنه، وأمثلة ذلك عديدة في الماضي والحاضر.

مراحل الإلقاء:

يمر الإلقاء في مراحل ثلاث هي:

١- **المرحلة التعليمية:** وهذه المرحلة لا تكتفي بتعلم اللغة، وسلامة اللسان فقط، بل يتعلم المُلقي إعطاء الكلام حقه من: التفخيم، والترقيق، وتلبّس معاني الكلمـات والعبارات، وإيماءاتها، والقدرة علـى تمثّل الحالات: كالفرح والحزن، والاستبشار، والعزة والفخر، والهدوء والاطمئنان، والانفعال وغير ذلك.

٢- **المرحلـة التدريبيـة:** التدريب على الإلقـاء بأشكاله المختلفة من: شعر وخطابة، وحوار مسرحي، يؤدي إلى تحسين الأداء الإلقائي، وكلما كان التدريب كافيًا وملمًّا بأصول الإلقاء كلما أدّى نتائجه وثماره المرجوّة.

٣- **المرحلة الأدائية:** وهي المرحلة الأخيرة التي يتحوَّل فيها المُلقي مِنْ مُتَلَقٍّ للإلقاء إلى صانع له، وماهر فيه، وعامل عليه.

ومن ظواهر الأداء وأساليبه:

- **التنغيم:** وهو ارتفاع الصوت وانخفاضه في أثناء إلقاء النص، لا بطريقة عشوائية، وإنَّما بمقدار الحاجة التي يتطلبها النص المُلقى، فتتابع الدرجات الصوتية على الكلمة أو الجملة الكاملة، فحدَّة النغمة، أو انخفاضها يتماشى مع حالة الجملة، وحالة النص، وحالة المُلقي، فالارتباط بين النغمة وهذه الحالات يبين عمّا يعبِّر عنه النص، وعن مشاعر المُلقي كذلك.

وإذا كان علماء الصوتيات قد اتفقوا على أنَّ صور التنغيم تتمثّل في خمس صور هي:

- **نغمة صاعدة:** وتصلح هذه النغمة القوية الواسعة للإلقاء الذي تصحبه الانفعالات والعواطف المثيرة، مثل: الخطب الحماسية في السياسة والوطنية، والدعوة للجهاد، أو تلك الخطب الغاضبة المعبرة عن آراء مغايرة، أو المحاضرات التي تُلقى في أعداد كبيرة.
- **نغمة هابطة:** وفيها ينخفض الصوت إلى درجة الهمس، ويكون ذلك في التعبير الهامس بين متحاورين يحرصان على ألا يتجاوز الكلام آذانهما، أو في حالات الإحباط واليأس، وبخاصة في الجمل المعبِّرة عن الحزن والبؤس.
- **نغمة صاعدة هابطة:** وتظهر في الجمل المشددة والمؤكدة، كالتشديد والتأكيد في حالتي: الإثبات والاستفهام، فالتشديد على كلمة بعينها يدل على ما يعني بها المتكلم، فردك على من أنكر أنه فعل فعلاً مشينًا،

فتقـول له مشددًا ومركزًا ومؤكـدًا على كلمة بعينها كأن تقول: (أنت مَنْ قام بالعمل) فعندما تضغط على حروف (أنت) فأنت تؤكد فعله وقيامه بهذا العمل.

- **نغمةٌ هابطة صـاعدة:** وهـو تضييق ما بين أعلى نغمة وأدناها، كعبارات التمني والترجّي، والأسف والتحسُّر، والعتاب.
- **نغمة ثابتة أو مسـتوية** أي ليست صاعدة أو هابطة، وتكون عند الإلقاء الطبيعـي البعيـد عـن المؤثـرات الأخـرى، مثـل العبـارات الشارحة أو الموضحـة، أو عبارات التسليم والاعتراف، وغير ذلك من العبارات التي تتسـم بالهدوء والبعد عـن الانفعال، وبخاصة عبـارات الحديث العلمي التي لا ترتبط بالعاطفة.

عوامل نجاح الإلقاء:

مـن عوامل نجـاح الملقي في إلقـاء نص مؤثـر في المتلقين عوامل **شكلية، ونفسية، وتدريبية**، ولعل أهم هذه العوامل يكمن في الآتي:

١- **المظهر اللائق** الذي يعين على قبول المتلقي، وهذا لا يعني أن الشكل هو الذي يؤكد النجاح، وإنما يسنده ويدعمه.

٢- **شروط فنية**، من: إتقان النص، وضبط ألفاظه، وحُسن تَمَثُّله، وتعرُّف معانيه.

٤- **التهيئة والتحضير:** فلا يعتد المُلقي بسجله الحافل بالإلقاء، فالماضي يمثل الخبرة، ولكنه قد يفشل أمام المستقبل، وأمام ما يستجد، ولذلك فالاستعداد للإلقاء دائمًا يجب أن يكون وكأنه الأول، فإذا كانت التهيئة والتحضـير مـن العوامـل المهمة لنجـاح المبتدئ، هي كذلـك في غاية الأهميـة للماهر في الإلقاء، فالاعتماد على السجل التاريخي، والسيرة

الذاتيـة في ميدان الإلقاء، بـل وفي أي ميدان تحتاج من صاحبها عدم الاستهانة بكل ما يستقبله في حياته من أقوال أو أعمال.

تجويد الإلقاء:

١- **مراعـاة الصـوت** للنصـ واعتداله، فـلا ينحرف للغلظـة الشديدة، أو الارتخـاء والضعف المشين، بل يكون قـادرًا على تنويع طبقات الصوت ومناسبته للأساليب والمعاني.

٢- **الصـحة الصـوتية**، فسلامة الصوت من الأمراضـ التي تعتريه تؤدي إلى نجاح الإلقاء.

٣- **إعطاء النص المُلقى حقه** من علامات الوقف، فلا يكون الإلقاء سريعًا متهـورًا، ولا بطيئًـا متلكئًـا، فعلامات الوقـف يجب احترامهـا تمامًا كإشارات المرور، فبعضها يقـف لها، وبعضها يتمهل قبل أن يجاوزها، وبعضهـا ينطلق لها، وهكذا في علامات الوقف، فالسكتة الخفيفة بعد المنـادى، أو القسـم، أو القول، أو عند جذب انتبـاه السامعين والتأثير فيهـم، أو عنـد شاهـد أو دليـل، ليترسخ في الأذهـان، أو لبيـان أمر وتأكيده.

الفصل الخامس

مهـــارة الحـــوار

قـال تعالـــى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل.

وقال رسول الله ﷺ: «**أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصيم**»[1].

١- أهداف الحوار.

٢- تعريف: (الحوار، الجدل، المناظرة).

٣- أصول الحوار.

٤- أهميته.

٦- آدابه.

٧- ضوابط الحوار.

٨- أقسام الحوار.

٩- الحال والموقف والمهارة.

١٠- نماذج حوارية من: (القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر، والنثر).

١١- نموذج على المناظرات.

١٢- نصوص في مهارة الحوار.

(١) صحيح البخاري باب ١٥ ج٣ص٨٥.

أهداف الحوار:

للحوار أهداف عديدة، نذكر منها:

١- صقل الشخصية وتهذيبها.

٢- امتلاك القدرة على الحوار وإجادته.

٣- تحقيق النجاح والوصول إلى الغايات في القضايا موضوع الحوار.

تعريف الحوار:

الولوج إلى معنى الحوار يتطلب عبور المعجم اللغوي، والحوار من: (حور)، والحَوْر الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والمحاورة: المجاوبة، أي أنت تقول ويجيبك، وهو يقول وتجيبه، ولذلك قالوا: (لا يحير جوابًا) أي لا يرد جوابًا.

وجاء في لسان العرب[1]: (الحَوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حارَ إلى الشيء وعنه حَوْرًا ومَحارًا ومَحارَةً وحُؤُورًا: رجع عنه وإليه؛ وكلَّمته فما رَجَعَ إِلَيَّ حَوَارًا وحِوارًا ومُحاوَرَةً وحَوِيرًا ومُحورَة، بضم الحاء، بوزن مَشُورَة أَي جوابًا.

والفعل الرباعي (حاور) على وزن فاعل يأتي للمشاركة، فلا يتم هذا الفعل دون اشتراك طرفين، فلا نقول: (دارَسَ) إلا ويكون دارسان يشاركان بعضهما بعضًا في الدراسة، وكذلك (لاعَبَ، وقاوَمَ، وساوَمَ).

والحوار يحتاج إلى طرفين متحاورين، يحاور الواحد الآخر حول موضوع معين، أو قضية ما.

---

(١) مادة حور.

ولا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فهو: مراجعة الكلام بين طرفين، والأخذ والرد فيما بينهما.

ولعل بعض المصطلحات القريبة من الحوار تدخل معه، وتتداخل فيه، وأحيانًا تصيبنا بالحيرة، فالحوار والجدل والمناظرة هل هي ثلاثة في واحد؟ أم أنّ كل مصطلح من هذه المصطلحات له ميزاته، وخصوصيته؟ ولعل في العرض السريع لهذه المصطلحات ما يوقفنا على مدى القرب أو البعد بينها، وما يمثله كل واحد منها.

الجدل:

جاء في لسان العرب[1]: (والجَدَل: اللَّدَدُ في الخُصومة والقدرةُ عليها، وقد جادله مجادلة وجِدالًا. ورجل جَدِل ومِجْدَل ومِجْدال: شديد الجَدَل. ويقال: جادَلْت الرجل فجَدَلته جَدْلًا أي غلبته. ورجل جَدِل إذا كان أقوى في الخِصام. وجادَله أي خاصمه مُجادلة وجِدالًا، والاسم الجَدَل، وهو شدَّة الخصومة.

وفرّقوا بين: الحوار، والجدل، والمناظرة، وجعلوا لكل واحد من هذه المصطلحات ميزات، في: الأسلوب، والعرض، والنتيجة، والخصم، أو الطرف الآخر، ولا نستبق الأمور؛ لأن العرض التعريفي، والتوضيح للآراء يوصلنا إلى مواطن التلاقي والاختلاف.

وتعريف الجدل من: شدة فتل الحبل، وكأنك تجدله أي تفتله فتلًا محكمًا، وفي كتاب التعريفات للجرجاني يرى أن الجدل هو[2].

---

(١) مادة جدل.

(٢) التعريفات مادة نظر.

(دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة). وقد ورد في كتاب الله عزّ وجلّ قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ المجادلة.

المناظرة:

وقريب من المجادلة المناظرة، وهي تعني عند الجرجاني[1]: **(النظر بالبصيرة من الجانبين، في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب)**.

أصول الحوار:

إذا كان الحوار هو الوسيط الذي يقوم بتبليغ طرفيه المتحاورين رغباتهما، ومواقفهما، وحالاتهما النفسية، فإنَّهُ يُعدُّ المعبرَ إلى الآخر، والمُعَبِّرَ عن طبيعة الشخصية، وإمكاناتها، وقدراتها، فهو الذي يجلو لنا الشخصيةَ، ويُجلِّي جوانبها المضمرةَ، ويُبدي عما استكنَّ بدواخلها، ويكشفُ عن أهدافها وأمانيها، ويحدِّد لنا آفاق آمالها وتطلعاتها، فهو الشارح والمعلِّلُ والمحلِّلُ للطبائع والعلاقات، والمبينُ عن الأهداف والأفكار والقدرات، ويبقى الحوار هو الجسرُ الذي نعبرُ عليه إلى الفكرة من النص، فالحديث المتبادل بين طرفي الحوار الذي يُدعى محاورة، هو: فنٌّ من فنون الكلام يضعُ فيه كل طرف كل إمكاناته وإبداعاته وملكاته؛ ليكون هو الفاعل وصاحب التأثير، والفائز في نهاية المحاورة.

جاء في كتاب الفقيه والمتفقه، الأصول سبعة[2]، وهي:

١- الحس، فالحواس خمس.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/٣٦- ٣٧.

٢- والعقل، والعقل على ضربين: (غرزي ومستجلب).

٣- معرفة الكتاب.

٤- والسنة.

٥- والإجماع.

٦- واللغة.

٧- والعبرة.

ونضيف إلى هذه الأصول:

٨- إتقان العلم والمعرفة بالموضوع أصل الحوار بالتحضير والتهيئة له، والاهتمام به.

٩- العلم بشبهات الخصم للرد عليها، ومعرفة طرائقه وأساليبه.

١٠- حفظ اللسان من إطلاق الكلام بما لا نعلم.

أهمية الحوار:

والحاجة إلى الحوار مع الآخر حاجة دائمة ملحّة؛ لأنها الأسلوب الأمثل لغايات التفاهم والتعبير عن الحاجات والمصالح، فجلب المصالح، ودرء المفاسد، والحصول على المكاسب بأنواعها المختلفة: معنوية أو مادية، والوصول إلى عقول الآخرين وقلوبهم، كل ذلك يتم عن طريق الحوار.

والحوار ينطلق بنا من أبسط صور الحياة إلى أكثرها تعقيدًا، فأنا أُحاور ابني الصغير؛ لأقنعه بتأجيل طلبه في شراء دراجة، ويحاورني ليقنعني في أن شراء دراجة له غاية الأهمية، وأنا أُحاور التاجر، ويحاورني من أجل أن أحصل على سلعة جيدة بسعر مُرْضٍ، وهو يحاول الحصول على ربح جيد. كما أُحاور

طلابي؛ لإقناعهم بأنّ الذكاء في أغلبه اكتسابي، وهم يحاولون إقناعي بأنه خِلْقي.

وأُحاور مخالفي في السياسة لأقنعه برأيي، وهو يحاورني ليقنعني برأيه، وهكذا في الدين والأخلاق والاجتماع...إلخ.

ومن هذا المنطلق، فإنّ من واجب كل محاور أن يستقر على قناعة بأنّ الاختلاف هو الأساس الذي نشأ عليه الناس، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الروم.

فالاختلاف في: اللون، والشكل، واللسان، والمعتقد، والرؤية، وفي: التفكير، والعادات، والتقاليد، والبيئة، هي الحقائق التي نراها ونشاهدها ونعايشها، فلا أفترض أنّ على الآخرين موافقتي تمامًا، وإلّا صببتُ عليهم جام غضبي، وشواظ ناري، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ يونس.

والمتتبع لهدف الحوار وغايته في القرآن الكريم يصل إلى حقيقة واحدة، وهي أن الدعوة إلى الحوار جاءت تهدف للوصول إلى الحق، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ آل عمران.

والكلمة السواء هي كلمة التوحيد.

ولعل التوجيه الربّاني في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ

﴿ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ البقرة. يبين لنا قاعدة مهمة في ميدان الحوار، وهي قاعدة الاختيار والحرية، فعليَّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح، فأنا وأنت نبذل قصارى جهدنا في الحوار والمناقشة ووضع الأمور في نصابها، ونحاول إزالة الفهم، وتوضيح الصورة، وندلل على الرأي، ونأتي بالشواهد والحجج، بناء على هذا المنهج الإلهي المؤسِّس لمدرسة الحوار الذي يعرض ولا يفرض، ويبين ولا يُجمجم، ويؤلِّف ولا ينفّر، ويقبل ولا يدبر، وفي النهاية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الكافرون.

آداب الحوار:

هل نضع في أدبيات حوارنا ونقاشاتنا ومجادلاتنا أن نخضع للحق، وأن نرضى به، وأن نجعل همَّنا وغايتنا الوصول إلى برِّه، والأُنس ببرِّه؟ أم نكابر ونعاند؟

إنَّ عشق الإنصاف، وتعلُّمَ الخضوع للحق أمران ليسا سهلين أو يسيرين على كثير منّا، ففيهما من الشدَّة والمجاهدة الشيء الكثير، قد يتقبَّلهما بعضنا، وقد يكونان فوق القدرة عند الآخرين.

وللحوار آداب يجب مراعاتها، ومن أهمها تلك التي نتحدّث عن:

- حسن الاستماع.
- عدم المقاطعة ورفع الصوت.
- الرفق والأناة.
- عدم التعجل في الحكم والقول.
- التدرج في الحوار.
- إقناع المحاور بالحجة والدليل.
- الوصول إلى الحق هو الغرض والغاية، والرجوع إلى الصواب لا يخجل.

ضوابط نجاح الحوار:

لعل من أهم وسائل النجاح في الحوار ضابطان:

الأول في المُحاوِر:

يجب أن تتمثل في المحاور تلك الصفات التي ذكرناها في آداب الحوار، ومن أهمها:

١- الاهتمام الجدي بالمحاور واحترامه وإنصافه.

٢- ذكره ونداؤه بأحب الأسماء إليه.

٣- الهدوء والاتزان وعدم رفع الصوت.

٤- عدم الاستئثار بالحديث.

٥- الاستعانة بالكلمة الطيبة والأسلوب الأمثل.

الثاني في الموضوع:

ومن أظهرها:

١- إظهار الجدية وعدم السخرية من الموضوع.

٢- الإخلاص في الوصول إلى الحق.

٣- تبيان الخطأ بطريقة موضوعية منهجية غير جارحة.

٤- طرح الأفكار بعيدًا عن المبالغات والتضخيم.

٥- التدرج في موضوع الحوار من المسلمات إلى المختلف فيها.

٦- عدم خلط الأفكار، واستتمام الفكرة والانتقال منها بعد تمام انتهائها إلى ما يليها.

التحضير للحوار:

من الأمور التي تعطي الحوار أهميته ونجاحه أنّ نحضِّرَ له تحضيرًا جيدًا، ومن ذلك:

١- اختيار الزمان والمكان المناسبين.

٢- اختيار موضوع الحوار ووضْع مَحاوره.

٣- التدرج في نقاط الاختلاف على حسب درجة الاختلاف.

٤- إعطاء الفرص المتكافئة في الوقت للطرفين.

أقسام الحوار:

من الممكن تقسيم الحوار إلى: حوار خاص، وعام، فأما الخاص فيتضمن:

١- **حوار طلب العلم والمعرفة**، وهو ما يقع في قاعات الدرس للوصول إلى حقائق العلم وطرائقه وأساليبه.

٢- **حوار الصفوة**، من: علماء، ومفكرين، ونقاد، وأدباء، ورجال السياسة، والاقتصاد، والتربية، والاجتماع.

٣- **حوار الدعوة إلى تبني قضية**، أو الانضمام لاتجاه أو حزب، كحوار الدعاة وأصحاب المناهج والأفكار والاتجاهات.

وأما العام فمنه:

١- **حوار المصالح وتبادل المنافع**، وهو ما يجري في الحياة العامة من: بيع وشراء وطلب حاجات، ولقاء ووداع، واتفاق وخصام، وغير ذلك مما تتسع له الحياة في كل شؤونها وشجونها.

٢- **الحوار الوظيفي أو الأدائي:** وهو ما يتعلق بأداء عمل في طبيعته وتنظيمه ووضع الخطط له، ونتائجه، وهذا ما نجده في المؤسسات والشركات، والجهات الحكومية، مما له ارتباط بالوظيفة والمسؤولية عنها.

٣- **حوار الأجيال:** ويتم بين جيلين مختلفين كجيل الشباب والشيوخ حول بعض القضايا المتمثلة في الجديد والقديم، أو ما يمثله جيل الشيوخ من محافظة وتعقل وتجربة، وما يمثله جيل الشباب من حيوية واندفاع والبحث عن الجديد.

الحال والموقف في المهارة:

هل الإنسان في كل حالاته يواتيه البيان الواضح، والأسلوب الجيد؟ أم تعتريه حالات قد لا تدلُّ على فصاحته وبيانه، وجودة تعبيره؟

يقول أبو الفتح البستي:

إذا أحسستَ في لفظي فتورًا ... وحفظي والبلاغة والبيان

فلا ترتَبْ بفهمي إنَّ نُطْقي ... على مقدار إيقاعِ الزَّمان

وقيل: إنَّ الفضل بن الربيع أتى إلى أبي عياد في نكبته يسأل حاجة، أُرْتِجَ عليه. فقال له: بهذا البيان خدمْتَ خليفتين؟

فقال: إنَّا تعودنا أنْ نُسْأَل ولا نَسْأَل.

وقف جديٌّ على سطح يشتم ذئبًا على الأرض.

فقال له الذئبُ: لست الذي يشتمني، ولكن مكانك يفعلُ ذلك.

قال الربيع: كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فغدا إلى غيرها يقول: نفرغ من هذه المسألة، ثم نصير إلى ما تريد، ويتلطف في دفع ذلك في مباديه قبل انتشاره وثوران النفوس. ويذكر الحاضرين بما جاء في كراهة المماراة، لا سيما بعد ظهور الحق، وأن مقصود الاجتماع ظهور الحق وصفاء القلوب،

وطلب الفائدة. وأنه لا يليق بأهل العلم تعاطي المنافسة والشحناء؛ لأنها سبب العداوة والبغضاء، بل يجب أن يكون الاجتماع ومقصوده خالصًا لله تعالى؛ ليثمر الفائدة في الدنيا والسعادة في الآخرة، ويتذكر قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ الأنفال. فإنه يفهم أن إرادة إبطال الحق أو تحقيق الباطل صفة إجرام، فليحذر منه.

تصدَّرَ للتَّدريسِ كلُّ مُهوَّسٍ ... جَهولٍ ليُسْمى بالفقيهِ المدرِّسِ
فحُقَّ لأهلِ العلمِ أنْ يَتَمثَّلوا ... ببيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مجلسِ
لقدْ هَزُلَتْ حتى بدا مِنْ هُزالها ... كُلاها وحتَّى سامَها كلُّ مفلسِ

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق:

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس.

ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من: الكِبْرِ، والعُجْبِ، والحسدِ، والمنافسةِ، وتزكيةِ النفسِ، وحبِّ الجاه، وغيرها.

نماذج حوارية من:

١- القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ۚ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى

لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ الكهف.

٢- من الحديث الشريف:

أوفدت قريش أبا الوليد عتبة بن ربيعة؛ ليعرض عليه هذه الأمور، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال:

يا ابن أخي، إنَّك منا حيث قد علمتَ من السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنَّك قد أتيتَ قومك بأمرٍ عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ به منْ آبائهم، فاسمع مني أعرض عليكَ أمورًا تنظرُ فيها؛ لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال رسول الله ﷺ: قلْ يا أبا الوليد، أَسمع.

قال: يا ابن أخي،إنْ كنتَ تُريدُ بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإنْ كنتَ تُريد شرفًا سودناكَ علينا، حتى لا نقطعُ أمرًا دونك، وإنْ كنتَ تُريدُ به مُلْكًا مَلَّكناكَ علينا، وإنْ كان هذا الذي

يأتيـكَ رئيًا تراهُ لا تستطيع ردَّهُ عن نفسك طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا، حتـى نُبرئكَ منهُ، فإنَّهُ ربمَّا غلب التابـع على الرجل حتى يُداوى منه.. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقدْ فرغتَ يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: أفعل.

فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ فصلت.

ثمَّ مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه.

فلمـا سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه.

ثـم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد، ما سمعت، فأنتَ وذاك.

فقـام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعضـ: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي إنيٌّ سمعتُ من محمد قولاً، والله، ما سمعتُ مثله قط! والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

يـا معشـر قريش، أطيعوني واجعلوهـا بي، وخلّوا بين هـذا الرجل وبين ما هـو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونـنَّ لقوله الذي سمعت منه نبأٌ عظيم، فإنْ تُصبه العـرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ مُلْكُكُم، وعزُّهُ عزُّكُم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد، بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1]).

٣- من الشعر:

قال المجنون في حوارية لطيفة: [2]

وقـالـوا لـو تشـاءُ سـلوتَ عنها ... فـقـلـتُ لـهـم: فـإنّي لا أشـاءُ

وكـيـفَ وحبُّـهـا عَـلِـقٌ بقلبي ... كـمـا عَـلِـقَـتْ بـأرشـيـةٍ دِلاءُ

وقالوا: أينَ مسكنُها؟ وَمَنْ هي ... فقلتُ: الشمسُ مسكنها السماءُ

فقالوا: مَنْ رأيتَ أحبَّ شمسًا؟ ... فقلتُ: عليَّ قد نـزلَ القضاءُ

وقال جميل بن معمر في حوارية عذبة، تدور كثيرًا بين الأحباب والمتزوجين، حيث يتهم كل طرف الآخر بأنه قد كَبُرَ [3]:

بـثـيـنـة قـالـت وقـد راعـهـا ... تـفـاريـق مـن شيبي المسفرِ:

جـمـيـلُ، كـبرتَ وجـاءَ المشيبُ ... فـقـلـتُ: بُـثـيـنُ ألا أقـصـري

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٩٤.

(٢) ديوان مجنون ليلى: ص ٤٢- ٤٣ .

(٣) ديوان جميل بن معمر: ص ٤٨ .

أتنسينَ أيامنا باللوى ... وأيامنا بذرى معمرِ
وإذْ لِمَّتي كجناحِ الغُداف ... تضمَّخُ بالمسكِ وبالعنبرِ
وأنتِ كلؤلؤةِ المرزبانِ ... بماءِ شبابكِ لم تُعصري
صغيرينِ مرتعنا واحدٌ ... فإنّي كبرتُ ولم تكبري

وقال وضّاح اليمن [1]:

قالتْ: ألا تَلِجَنْ دارَنَا ... إنَّ أبانَا رجلٌ غائرُ
أما رأيتَ القصرَ مِن دوننا ... فقلتُ: إنيٌّ فوقَهُ ظاهرُ
قالتْ: فإنَّ اللَّيثَ غادٍ به ... فقلتُ: سيفي صارمٌ باترُ
قالتْ: فإنَّ البحرَ قدَّامَنَا ... قلتُ: فإنِّي سابحٌ ماهرُ
قالتْ: أليسَ الله من فوقنا ... قلتُ: بلَى، وهو لَنَا غافرُ
قالتْ: فأمَّا حينَ أعييتنا ... فأْتِ إذا ما هجَعَ السَّامرُ
فاسقُطْ علينا كسُقوطِ النَّدَى ... ليلةَ لا ناهٍ ولا آمرُ

وقال صفي الدين الحلي:

قالت: كحلت الجفون بالوسن ... قلت: ارتقابًا لطيفك الحسنِ
قالت: تسليت بعد فرقتنا ... فقلت: عن مسكني وعن سكني
قالت: تشاغلت عن محبتنا ... قلت: بفرط البكاء والحزنِ
قالت: تناسيت قلت: عافيتي ... قالت: تسليت قلت: عن وطني
قالت: تخليت قلت: عن خلدي ... قالت: تغيرت قلت: في بدني
قالت: أذعت الأسرار قلت لها: ... صير سري هواك كالعلنِ
قالت: فماذا تروم؟ قلت لها: ... ساعة سعد بالوصل تسعدني

(١) حماسة الظرفاء ٢/١٠٠ .

قالت: فعين الرقيب ترصدنا قلت: فإني للعين لم أبنِ
أنحلتني بالصدود منك فلو ترصدتني المنون لم ترني

نماذج حوارية نثرية:

حوار بين معاوية وصحار العبدي[1]:

قال ابنُ الأعرابيّ: قال معاوية بن أبي سفيان لصُحارِ بن عَيّاش العبديّ:

ما هذه البلاغةُ التي فيكم؟

قال: شيء تَجيش به صدورُنا فتَقذفُه على ألسنتنا.

فقال له رجل من عُرَض القَوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبُسْر والرُّطَب، أبصرُ منهم بالخُطَب.

فقال له صُحار: أجَلْ واللهِ إنّا لنَعلم إنّ الرِّيح لَتُلْقِحُه، وإن البرَد ليَعقِدُه، وإن القمرَ ليَصْبِغُهُ، وإن الحَرّ ليُنْضِجهُ.

وقال له معاوية: ما تعدُّون البلاَغَةَ فيكم؟

قال: الإيجاز.

قال له معاويةُ: وما الإيجاز؟

قال صُحار: أن تُجيب فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ.

فقال له معاوية: أو كذلك تقول يا صُحَار؟

قال صُحار: أقِلْني يا أمير المؤمنين، ألا تُبْطِئ ولا تُخْطئ.

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٨.

قال: وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان: ما اسمك؟

قال: خالد بن صفوان بن الأهتم.

قال: إن اسمك لكذب ما أنت بخالد، وإن أباك لصفوان وهو حجر، وإن جدك لأهتم والصحيح خير من الأهتم.

فقال له خالد: من أي قريش أنت؟

قال: من بني عبد الدار من هاشم.

قال: لقد هشمتك هاشم، وأمتك أمية، وجمحت بك جمح، وخزمتك مخزوم، وأقصتك قصي فجعلتك عبدها وعبد دارها، تفتح إذا دخلوا، وتغلق إذا خرجوا.

قيل: ومرّ الفرزدق بالمربد، فرأى خلف بن خليفة الشاعر، فقال للفرزدق: يا أبا فراس، من القائل:

هو القين وابن القين لا قين مثله لقطع المساحي أو لقدّ الأداهم

فقال الفرزدق: الذي يقول:

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لقطع جدارٍ أو لطرّ دراهم

وحكي عن جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن غلامًا له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

قال: قد كظمت غيظي.

قال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

قال: قد عفوت عنك.

قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال: اذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى.

كان للمغيرة بن عبد الله الثّقفيّ - وهو والي الكُوفة - جَدْيٌ يوضع على مائدته، فَحَضره أعرابي فمد يَده إلى الجَدْي؟ وجَعل يُسرع فيه، قال له المُغيرة: إنّك لتَأكله بحَرّد كأن أُمَّه نَطحَتْك.

قال: وإنك لَمُشْفِق عليه كأن أُمه أَرْضعتك.

جاء في معجم الأمثال:

وقعت آجرة ولبنة في الماء، فقالت الآجرة: وابتلالاه.

فقالت اللبنة: فماذا أقول أنا؟

نموذج على المناظرات:

مناظرة أبي بكر محمد بن أبي الطيب الباقلاني مع قيصر ملك الروم [1]:

المجلس الأول:

- ملك الروم: هذا الذي تدَّعونه في معجزات نبيكم: من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ص ٢٩- ٣٢ وأبو بكر الباقلاني هو: محمد بن الطيب، ولد بالبصرة، ولم يعرف تاريخ ولادته على التحديد، تفقه وتعلم، وكان قوي الحجة، بارع المحاورة، سريع البديهة، رأس بعثة إلى ملك الروم، وكانت هذه المناظرة، تولى القضاء بالثغر، وشغل بالتدريس والتأليف، وله العديد من المؤلفات منها إعجاز القرآن، وتوفي عام ٤٠٣ هـ.

- الباقلاني: هـو صحيح عندنا، انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك، وإنمَّا رآه الحضور، ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال.
- ملك الروم: وكيف ولم يره جميع الناس؟!
- الباقلاني: لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره.
- ملـك الروم: وهذا القمر بينكم وبينـه نسبة وقرابة؟ لأي شيءٍ لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنمَّا رأيتموه أنتم خاصة؟
- الباقـلاني: فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد، وخاصة يونان جيرانكم، فإنَّهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم؟
- فتحيَّـر الملك، وقال بكلامه: سبحـان الله. وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلمنـي، وقال: نحـن لا نطيقه؛ لأن صاحبه قال: مـا في مملكتي مثله، ولا للمسلمـين في عصـره مثله، فلم أشعر إذ جـاء برجل كالذئب، أشقر الشعـر، فقعد، وحُكيت عليه المسألة، فقال الـذي قاله المسلم لازم، وهو الحق، لا أعرف له جوابًا إلاّ ما ذكره.
- الباقـلاني: أتقول: إنَّ الخسوف إذا كان يراه جميع أهل الأرض؟ أم يراهُ أهل الإقليم الذي بمحاذاته؟
- القسيس: لا يراه إلاَّ من كان في محاذاته.
- الباقـلاني: فما أنكرت من انشقاق القمر إذا كان في ناحية ألا يراه أهل تلـك الناحية، ومـن تأهَّب للنَّظر لـه، فأمَّا من أعرض عنـه، أو كان في الأمكنة التي لا يرى القمر منها فلا يراه.
- القسيـس: كما قلت، لا يدفعك عنه دافـع، وإنمَّا الكلام في الرواة الذين نقلوه، فأمَّا الطعن في غير هذا الوجه فليس بصحيح.
- الملك: وكيف يُطعنُ في النَّقلة؟

- القسيس: شبه هذا من الآيات، إذا صحَّ وجب أن ينقله الجم الغفير حتى يتصل بنا العلم الضروري به، ولمَّا لم نعلم ذلك بالضرورة دلَّ على أنَّ الخبر مفتعل وباطل.
- الملك: يطلب الجواب من الباقلاني.
- الباقلاني: يلزمه في نزول المائدة ما يلزمني في انشقاق القمر، ويُقال لو كان نزول المائدة صحيحًا لوجب أن ينقله العدد الكثير، فلا يبقى يهودي ولا نصراني، ولا وثني إلاَّ ويعلم هذا بالضرورة، ولمَّا لم يعلموا ذلك بالضرورة دلَّ على أنَّ الخبر مكذوب.

فبُهِتَ الملك والقسيس ومن ضمَّه المجلس على هذا.

المجلس الثاني:

قال الباقلاني: ثمَّ سألني الملك في مجلس ثانٍ.

- الملك: ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم؟
- الباقلاني: روح الله وكلمته وعبده ونبيه ورسوله، كمثل آدم خلقه من تراب، ثمَّ قال له كن فيكون، وتلوت عليه النص.
- الملك: يا مسلم، تقولون: المسيح عبد؟
- الباقلاني: نعم، كذا نقول، وبه ندين.
- الملك: ولا تقولون: إنَّهُ ابن الله؟
- الباقلاني: معاذ الله، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ (المؤمنون: ٩١) إنَّكم لتقولون قولاً عظيمًا، فإذا جعلتم المسيح ابن الله، فمن أبوه، وأخوه، وجده، وعمه، وخاله؟ وعددت عليه الأقارب، فتحيَّر.
- الملك: يا مسلم، العبد يَخْلقُ، ويحيي، ويميتُ، ويبرئ الأكمه والأبرص؟
- الباقلاني: لا يقدر العبد على ذلك، وإنمَّا ذلك كلّه من فعل الباري عزَّ وجلَّ.

- الملك: وكيف يكون المسيح عبدًا لله وخلقًا من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كلَّه؟

- الباقلاني: معاذ الله، ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص. فتحيَّر الملك وقلَّ صبره.

- الملك: يا مسلم، تنكر هذا مع اشتهاره في الخلق، وأَخْذِ الناس له بالقبول؟

- الباقلاني: ما قال أحدٌ من أهل الفقه والمعرفة: إنَّ الأنبياء - عليهم السلام - يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنمَّا هو شيءٌ يفعله الله تعالى على أيديهم؛ تصديقًا لهم يجري مجرى الشهادة.

- الملك: قد حضر عندي جماعة من أولاد نبيكم، وأهل دينكم، المشهورين فيكم، وقالوا: إنَّ ذلك في كتابكم.

- الباقلاني: أيها الملك، في كتابنا أنَّ ذلك بإذن الله تعالى، وتلوت عليه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴿١١٠﴾ ﴾ المائدة. وقلت: إنَّ ما فعَلَ ذلك كلِّه بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته، لجاز أن يقال: إنَّ موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته، وليس معجزات الأنبياء عليهم السلام من ذاتهم وأفعالهم دون إرادة الخالق، فلمّا لم يَجُزْ هذا: لم يجز أنْ تُسندَ المعجزات التي ظهرت على يد المسيح إليه.

- الملك: وسائر الأنبياء كلهم، من آدم إلى من بعده كانوا يتضرَّعون للمسيح؛ حتى يفعل ما يطلبون!!

- الباقلاني: أَوَ في لسان اليهود عظمٌ لا يقدرون أن يقولوا: إنَّ المسيحَ كان يتضرَّع إلى موسى؟ وكل صاحب نبي يقول: إنَّ المسيح كان يتضرَّع إلى نبيّه، فلا فرق بين الموضعين في الدعوى.

المجلس الثالث:

- الباقلاني: لِمَ اتحدَ اللّاهوت بالنّاسوت؟
- الملك: أراد أنْ يُنَجّي الناس من الهلاك.
- الباقلاني: وهل درى بأنَّه يُقتلُ ويُصلبُ، ويُفعلُ به كذا، ولم يأمن من اليهود؟ فإن قلت: إنَّهُ لم يدرِ ما أراد اليهود، بَطُلَ أنْ يكونَ إلهًا، وإذا بَطُلَ أن يكونَ إلهًا بَطُلَ أنْ يكونَ ابنًا. وإنْ قلتَ: قد درى ودخل في هذا الأمر على بصيرةٍ، فليس بحكيم؛ لأنَّ الحكمة تمنع من التعرُّض للبلاء.

فبُهِتَ، وسأل الباقلاني أحد المطارنة: كيف أنتَ؟ وكيف الأهلُ والأولاد؟

- الملك: وقد عجب من قوله، ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الأمة، ومتقدّمٌ على علماء الملّة! أما علمتَ أنّنا نُنَزِّهُ هؤلاء عن الأهل والولد؟
- الباقلاني: أنتم لا تنزّهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد، وتنزّهونهم؟ فكان هؤلاء عندكم أقدسَ وأجلَّ وأعلى من الله سبحانه وتعالى!! فَسُقِطَ في أيديهم، ولم يردُّوا جوابًا.
- الملك: أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم، وما قيل فيها؟
- الباقلاني: هما اثنتان، قيل فيهما ما قيل: زوج نبينا، ومريم ابنة عمران، فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وكلٌّ قد برَّأها الله مما رُمِيَتْ به، فانقطع الملك ولم يُحِر جوابًا.

جاء في كتاب التذكرة الحمدونية:

في الكتاب العزيز من الحجج البالغة ما يكون غايةً لمن تمثل به، وكيف لا يكون ذلك، وهو برهان الشريعة ودليلها، ومحجة الهداية وسبيلها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ يس.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ القيامة.

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ الروم.

أي في تقرير عقولكم وقياس ظنونكم المأخوذين من معارفكم.

وقوله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ الأنعام.

ومن آيات الحجاج القاطع في إقامة التوحيد وتوهين الشرك قوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ الإسراء.

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ المؤمنون.

وقوله تعالى في تفرده بخلق البرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ الحج.

ومن الحجة في أمر كتابه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ البقرة.

وقال في الدلالة على إثبات نبوة رسوله ﷺ وعلى آله وسلم بتأمل أحواله وتدبر ما جاء به: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ المؤمنون.

فإنه كان صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعرف في قريشٍ قبل البعثة بالصادق الأمين.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ يونس.

ولما بعث رسول الله ﷺ قام، فقال: يا معشر قريشٍ، لو قلت لكم: إن خيلاً تطلع عليكم من هذا الجبل أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم.

قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد.

فلما أقروا بصدقه خاطبهم بالإنذار، ودعاهم إلى الإسلام.

وجاء في المستطرف:

قال الحكماء: إذا أراد الله بعبد خيرًا ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد به شرًّا حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بدنياه، ووكله إلى هواه، فركب الفساد وظلم العباد.

- الثقة بالله أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عمل.
- من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ.
- من سره الفساد ساءه المعاد.

- كل يحصد ما زرع، ويجزى بما صنع.
- لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة. من أطاع هواه، باع دينه بدنياه.
- ثمرة العلوم العمل بالمعلوم.
- من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد.
- أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه.
- خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعمي هواه في طاعة ربه.
- نصرة الحق شرف، ونصرة الباطل سرف.
- البخيل حارس نعمته، وخازن لورثته.
- من لزم الطمع، عدم الورع.
- إذا ذهب الحياء، حل البلاء.
- علم لا ينفع، كدواء لاينجع.
- من جهل المرء أن يعصي ربه في طاعة هواه، ويهين نفسه في إكرام دنياه.
- أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا ندري ما حاله، ولا تعرف من أهله.
- من كثر ابتهاجه بالمواهب، اشتد انزعاجه للمصائب.
- عظِ المسيء بحسن أفعالك، ودل على الجميل بجميل خلالك.
- إياك وفضول الكلام، فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن.
- لا يجد العجول فرحًا، ولا الغضوب سرورًا، ولا الملول صديقًا.
- حسن النية من العبادة.
- حسن الجلوس من السياسة.

- من زاد في خلقه نقص في حظه.
- من ائتمن الزمان خانه.
- أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء.
- لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما في أيدي الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويثق بمواعيد الله.
- إياك والحسد، فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويذهب المروءة.
- قيل لأفلاطون: ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال، وإن كان حقًّا؟
- قال: مدح الإنسان نفسه.
- أربعة تؤدي إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة.
- من ساء تدبيره أهلكه جده.
- الغرة ثمرة الجهل.
- آفة القوة استضعاف الخصم، وآفة النعم قبيح المن، وآفة الذنب حسن الظن.
- الحزم أسد الآراء، والغفلة أضر الأعداء.
- من قعد عن حيلته، أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه، أيقظته المكايد.
- من قرب السفلة واطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان.
- من عفا تفضل، ومن كظم غيظه فقد حلم. ومن حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر. من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار: حين يغضب، وحين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي.
- من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل.

- كل امرئ يعرف بقوله، ويوصف بفعله، فقل سديدًا وافعل حميدًا.
- مـن عرف شأنه، وحفظ لسانـه، وأعرض عما لا يعنيه، وكف عن عرض أخيه، دامت سلامته، وقلّت ندامته.
- كن صموتًا وصدوقًا، فالصمت حرز، والصدق عز.
- من أكثر مقاله سئم، ومن أكثر سؤاله حرم.
- من استخف بإخوانه خذل، ومن اجترأ على سلطانه قتل.
- ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه.
- خير النوال ما وصل قبل السؤال.
- أولى الناس بالنوال، أزهدهم في السؤال.
- من حسن صفاؤه، وجب اصطفاؤه.
- من غاظك بقبيح الشتم منه، فغِظْه بحسن الحلم عنه.
- من يبخل بماله على نفسه، جاد به على زوج عرسه.
- إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره.
- من جاور الكرام، أمن من الإعدام.
- من طاب أصله، زكا فرعه.
- من أنكر الصنيعة، استوجب القطيعة. ومنّ منَّ بمعروفه، سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط أجره.
- من رضي من نفسه الإساءة، شهد على أصله بالرداءة.
- من رجع في هبته بالغ في خسته.
- من رقي في درجات الهمم، عظم في عيون الأمم.
- من كبرت همته، كثرت قيمته.
- من ساء خلقه، ضاق رزقه.

- من صدق في مقاله، زاد في جماله.
- مـن هان عليه المال، توجهـت إليه الآمال. ومن جاد بماله جل، ومن جاد بعرضه ذل. خير المال ما أخذ من الحلال، وصرف في النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام، وصرف في الآثام.
- أفضل المعروف إغاثة الملهوف.
- مـن تمـام المـروءة أن تنسـى الحق لك، وتذكـر الحق عليـك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك.

الفصل السادس

مهـــارة الخطـــاب

١. حاجتنا لهذه المهارة.

٢- التهيئة والتدريب.

٣- أساسيات الخطاب.

٤- عيوب الخطاب.

٥- سمات الخطيب المؤثر.

٦- عيوب الخطيب.

٧- نموذج وتحليل.

٨- نصوص في مهارة الخطاب.

مهارة الخطاب:

قيل: (كلام المرء بيان فضله، وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل).

مهارة الخطاب:

١- التهيئة والتدريب.
٢- أساسيات الخطاب.
٣- عناصر قوة الخطاب، وتكمن في: (المتكلم، والخطاب، والسامع).
٤- عيوب الخطاب.
٥- نماذج وتحليل.

هل نحن بحاجةٍ إلى هذه المهارة؟

كلُّ متخصِّصٍ في غير اللغة العربية، أو العلوم الشرعية، وبخاصةٍ أولئك الذين يتخصصون في العلوم البحتة والتطبيقية يطرحون على أنفسهم سؤالاً، هو: ما علاقتي بفن الخطاب أو الخطابة؟ وترتسم على محياه ابتسامة ساخرة، وهو يردِّدُ، وهل سأصبحُ خطيب جمعةٍ؟ ولم كلُّ هذا العناء؟ وهذه الدراسة التخصصية في الكيمياء، أو الكهرباء، أو الميكانيكا...إلخ؟

وتأتي الإجابة بأنَّ الخطابة لأهلها، وأنَّ وقتًا يُصرَفُ في معرفتها، والتدرُّب عليها هو وقتٌ ضائعٌ، لو صُرف في التخصص لكانَ أجدى وأنفع.

وحقيقة الإجابة ألا تكون كذلك، فلو استغنى عن فن الخطاب والخطابة أحد، لاستغنى الأنبياءُ عليهم السلام بمعجزاتهم، فها هو سيدنا موسى عليه السلام يأتي فرعون وقومه بعشر آيات معجزات، ومع ذلك يطلب من ربِّه عز وجل، قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ

﴿قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ طه.

وهل النبي يحتاج إلى غيره لينوب عنه في مخاطبة الناس؟ أفلا يكفيه ما يحمله من تبليغ عن ربه ﷻ، وما يؤتاه من معجزات تحسم الأمر، وتفرضه بقوتها لا بقوة الكلام؟ نعم، كان الأنبياء وسيدنا موسى عليهم السلام بأمس الحاجة إلى المهارة الخطابية، حتى جعل صاحب معجزة العصا واليد سيدنا موسى عليه السلام يدعو ربه، كما جاء في كتابنا العظيم، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ القصص.

وجاء في معجم كامبردج لتاريخ الأدب الأمريكي أن الرئيس «لنكولن» صاحب الشعبية الواسعة لم يفز بموقع الرئاسة في حزبه عام ١٨٦٠م بسبب سياساته أو أعماله، وإنما بأسلوبه المؤثر في التخاطب والتعبير، وهكذا الحال في كل الحركات التغييرية، فإن الأقدر على قوة التعبير والخطاب هم الأقدر على القيادة [١].

وعلى الرغم من التأثير الكبير لوسائل الإعلام بأنواعها، فإن من الباحثين[٢] من يذهب إلى أن الحديث المباشر بين الأشخاص، والمخاطبة المباشرة تؤدي إلى تغيير الآراء، والتأثير في الآخرين أكثر من الاستماع إلى الإذاعة، أو مشاهدة التلفاز، أو قراءة الجريدة، أو المجلة ونحو ذلك.

(وكم من خطبة تناقل الناس عباراتها، واحتجوا بأفكارها، وتداولوها بينهم إعجابًا واستحسانًا بها، وكم من خطبة أحدثت تحولًا في عادات الناس وتصوراتهم، وكم من خطبة فتحت باب الأمل والتوبة لدى بعض المخاطبين.

(١) انظر دليل التدريب: ص ٦٥.

(٢) انظر الاتصال الجماهيري والمجتمع: ص ٢٣٢.

غير أنه بالمقابل ربما كان للخطبة آثار سيئة، وأضرار خطيرة على المخاطبين، من: تهييج، أو تيئيس، أو تناقل أخبار من قبيل الشائعات، أو نشر بدعة، وطمس سنة، أو بث فتنة وفساد بين الناس[1]).

ومن الأمثلة على تغيير الآراء والاتجاهات لمجرد سماع خطبة، ما ورد في الحديث عن الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي مناظرته لهم رجع معه منهم ألفان من حروراء انقادوا لرأيه، وأطاعوه بعدما سمعوا ما قاله.

وقد ورد في مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير، بعد أن تم قتل القيصر من قبل الثائرين عليه، ومن ضمنهم صديقه بروتس الذي قال فيه عندما رآه يستلُّ خنجره: « حتى أنت يا بروتس؟! فذهبت مثلاً، والشاهد أن بروتس كان من أعظم خطباء روما، فأقنع الشعب الهائج والداعي للانتقام من القتلة، بصحة رأي الثوار، فانحاز الشعب إليهم، ثم قام من بعده ابن أخت القيصر أنطونيوس، وألقى خطبة أعادت الجماهير إلى رأيها الأول، فهاجمت الثوار، وقضت عليهم.

وفي عصرنا الحاضر، وبعد نكبة حزيران عام ١٩٦٧م أصيب كل العرب بخيبة أملهم في الزعيم جمال عبد الناصر، ولكنه ما إن ألقى خطبةً تحمَّل فيها المسؤولية، وقدم استقالته، حتى عادت الجماهير تنادي به زعيمًا وقائدًا.

ولذلك، فالحاجة إلى فن الخطاب حاجة ماسة لكل الرياديين والقادة، والمختصين، فرجال: السياسة، والعلم، والإعلام، والأدب، والتجارة، والاقتصاد، وكل من يقود فريقًا، ويدير منشأة، ويرأس مجموعة، بل وكل عضو مهما كانت مرتبته يحتاج هذه المهارة، حتى أولئك الذين قد يظنون أنهم فعلاً لن يأملوا في

(٢) خطبة الجمعة وأثرها في تربية الأمة ٢/١.

أن يتعرّضوا للوقوف أمام باب الخطاب وفي ساحاته، ومنابره، ستعرض لهم الحاجة، وعندها لا تنفعهم إجابتهم السابقة.

وقد اهتم العرب بهذا الفن، وجوّدوه، وأعطوه من أنفسهم، وقد قال صاحب العقد الفريد [1]: **(ونحن قائلون بعَون الله وتَوْفيقه في الخُطب التي يُتخيرّ لها الكلامُ، وتفَاخرت بها العربُ في مَشاهدهم، ونَطقت بها الأئمة على مَنابرهم، وشُهرت بها في محافلهم، وقامت بها على رُؤوس خُلفائهم، وتَباهت بها في أعيادهم ومَساجدهم، ووصلَتْها بِصَلَواتهم، وخوطب بها العوام، واستُجزلت لها الألفاظ، وتُخيِّرت لها المعاني).**

وفن الخطاب هو وسيلة الاتصال المثلى القادرة على تكوين: الاتجاهات، والمذاهب، والأفكار، والأحزاب، والرؤى، والقناعات، وهو وقود تغيير الرأي، والانقياد لأمرٍ، والاستعداد لحالة.

التهيئة والتدريب:

يقول عبد الملك بن مروان: «شيَّبتني المنابر» وإنَّ منْ شيَّبَتْهُ المنابر لجدير بأن ينقل لنا هذه التجربة، ويخبرنا عن أن تؤخذ بحقها، فهي ليست مهمة سهلة، وإنمَّا تحتاج إلى عدةٍ واستعداد، وإلى تهيئة وتدريب، وتلقٍّي فن الخطاب لا يتأتّى إلاَّ بعد طول تهيئة.

وقد ورد في مناهج القدماء كيفية إعداد الخطيب الناجح، وذلك من خلال مجموعة طرائق يأخذون بها من يعدونه لهذه المهمة، ومنها:

- **الفطرة والميل والموهبة**، التي هي البذرة والأساس، ولكنها تحتاج إلى غيرها من الأسباب والدواعي، حتى تصبح شجرة وارفة الظلال، ومن

(١) العقد الفريد ١ /٤٨٦.

دونها تظـل بذرة تحمل في طياتها القوَّة والإمـكان، ولكنها لا تستطيع الانطلاق والانعتاق، لتشـق الأرض، وتصعد عالية تتمايل غصونها وثمارها، فالبذرة دون تـراب، وهواءٍ، وشمسٍ، ومـاءٍ، وسمادٍ، تبقى على حالها، وهذا حال الموهبة دون علمٍ، وصقلٍ، وتهذيبٍ، وتدريبٍ.

- **الإعداد والتأهيل من خلال التعليم، وإتقان اللغة**، فالعلم أساس العمل، والفقهاء يقولون: «العلم قبل القول والعمل» وإتقان اللغة شرطٌ لإتقان الخطابة؛ لأنَّ البنـاء لا يقـوم إلّا علـى أساسٍ صالحٍ قـوي، واللغةُ أساس البنـاءِ، ولبناته، وفنيته، وجماله، وقوتهُ، وبهاؤه.

- **حفـظ أجزاء من القرآن الكريم، والحديث الشـريف، وأشـعار العرب، وأخبارها**، وخطبها، وحكمها، وأمثالها، وأقوالها المأثورة.

فالحفـظ كنـزٌ ورصيـدٌ يستعين به الخطيـبُ عند حاجتـه، ويتمثّل به في الحالات، ويستخدمه في أدلته وحججه.

قال الفُضَيل[1]: «**نعمت الهديَّة الكلمةُ من الحِكمة يحفظُها الرَّجُل حتى يلقيَها إلى أَخيه.**

وكان يقال: يكتب الرَّجلُ أحسنَ ما يسمع، ويحفظ أحسن ما يكتب.

وكان يقال: اجعل ما في كتبك بيتَ مال، وما في قلبك للنَّفَقة.

وقال أَعرابيّ: حَرْفٌ في قلبك خير من عشرة في طُومارك».

- **المـران والدربـة**: فالدربـة خير وسيلـة لاكتمال المهارة، وحسـن أدائها، وقـد كان العرب يقومـون بتدريب أبنائهم على ممارسـة: الخطابة، والمساجلةِ،

(١) البيان والتبيين ١ /٧٧ .

والمقافـاة، ويـروى أنَّ الخليفة هـارون الرشيد، كان يطلب من مـؤدب أولاده أن يضـع لهم الخطب؛ ليلقوها في المناسبـات الاجتماعية؛ ليكون ذلك تدريبًا لهم، وأهمية التدريب والممارسة تكاد توازن التعليم نفسه.

ومثال ابن مقلة الخطاط خير مثال على أنَّ الدربة هي الوسيلة المثلى للإتقان، حيث يقـول[1]: (**إنّي أُراني يوم الخميس أخطُّ منّي يوم السـبت**) وهذا القول من أعظم الخطاطين إنّما يدلّ على أهمية المران والدربة، والممارسة والتجربة، ولذلك قيل: (**المران يؤدي إلى الاكتمال**)، ويقول الشاعر أبو إسحاق الغزي [2]:

ركبتهُ وهو مثلُ السيفِ مُنصَلتًا وكلُّ صَعْبٍ إذا مارَسْتَهُ هانا

- **الثقافـة الواسـعة**: يحتـاج الخطيب إلى ثقافةٍ تعينـهُ في تمثل الحالات، ومعرفة الاتجاهات، وتحليل الظواهر، واستنباط العلل، واستكشاف الغوامض.

وورد في كلام العرب[3]: «**رأْسُ الخطابة الطبع، وعَمودها الدُّرْبة، وحَلْيها الإعراب، وبَهاؤها تَخُيّر اللفظ، والمحبّة مَقْرونة بقلّة الاستكراه**».

أساسيات الخطاب:

نجـاح الخطاب يتطلَّب مجموعة من الأسس؛ حتـى يؤثر تأثيرًا إيجابيًّا في المخاطبين، ومن ذلك:

---

(١) الـوافي بالوفيـات ٤ / ١٠٩ وهو محمد بن علي بن مقلة أشهـر خطاطي العصر العباسي، وزر عدة مـرات، وسجن وصودرت أمواله، وقطعـت يمينه، ومات في السجن، سنة ٣٢٨هـ وانظر ترجمته في معجم الأدباء ٦/ ٢٥٧٤.

(٢) ديوان الغزي: ص ٤٣٩.

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٢.

- **تخيُّر الألفاظ والأفكار الموائمة للموضوع والجمهور**، فما يُقال في حرب، غير ما يُقال في سلام، وما يُقال في جِدٍّ غير ما يُقال في هَزْل، وما يقال في فرح غير ما يُقال في حزن، فمناسبة الخطاب للمخاطب، والموقف من أساسيات نجاح فن الخطاب.

- **مخاطبة العقل والعاطفة**، والاعتماد على أحدهما قد يُفضي إلى السير على رجل واحدة، فمخاطبة العقول للإقناع، والقلوب للتأثير، وبمخاطبة العقول نستعين: بالتمثيل، والاقتباس، والاستنباط، والدليل، والحجة، والبرهان، وفي مخاطبة القلوب نثير العواطف: الدينية، والوطنية، والأسرية، والاجتماعية.

- **القوة والجزالة في الألفاظ والأسلوب**، وذلك يتم من خلال، فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، فصحَّةُ العبارة وفصاحتها، وجزالة السبك وقوته، وجمال الصورة والتشبيه وروعتهما، وتناسب الجمل، وعذوبة الإيقاع، كل ذلك له تأثيره الفعّال في النفوس.

- **الوضوح في العبارة والفكرة**، ولا يعني الوضوح: السطحية، والابتذال، والركاكة، فالصورة الفنية والبلاغية من شروط الخطبة المؤثرة. وقدوتنا كتاب الله ﷻ، حيث جاء واضحًا بيِّنًا، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ الشعراء.

والإبانة: هي الوضوح، والظهور، والإشراق، ومع وضوح القرآن الكريم، فقد كان إعجازًا بيانيًّا، تحدّى بإعجازه الكفار أصحاب القدرة البيانية، والجدل والخصام، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ البقرة.

- **الموازنة بين الطول والقصر** على حسب الحاجة وما يستدعيه الموقف، و(**أعلم أنّ جميع الخُطب على ضَرْبين: منها الطِّوال، ومنها القِصَار؛ ولكُلّ ذلك مَوْضع يَليق به، ومكانٌ يَحسُن فيه**[1]).

- **مراعاة أحوال السامعين ودرجاتهم**، فالخطاب في الحاجة غيره في الاستغناء، وفي حالات الخوف غير الأمن، وفي الشدة غير الرخاء، ودرجاتهم من العلو والدنو، وفي العلم والجهل، وقد ورد عن رسول الله ﷺ: قوله: (**أمرنا أن نخاطبَ الناسَ على قدْرِ عقولها**[2]).

ومثله قول ابن مسعود: «**ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُه عقولهُم إلا كانَ لبعضِهم فتنةً**[3]».

وكذلك فخطاب القريب غير خطاب البعيد، وخطاب الموافق غير خطاب المخالف، والمؤيد غير المعارض، فمن المنطق ألا نخاطب الناس بطريقة واحدة، وذلك لاختلاف الرؤى والمناهج، والعقول، والمدارك، والثقافات.

وقد قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله**»[4].

وفي هذا الحديث الشريف مراعاة لحال المخاطبين، فهؤلاء هم أهل كتاب، لديهم من العلم الديني ما ليس للكفار والمشركين، فمخاطبتهم تختلف عن دعوة غيرهم من الوثنيين الذين ليس لديهم أدنى معرفة بأساسيات العقيدة.

---

(١) العقد الفريد ٤٨٦/١.

(٢) رواه مسلم ١١/١.

(٣) صحيح مسلم المقدمة ١١١.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، وهذا لفظه (الزكاة ١٤٥٨) ومسلم (الإيمان ٣١).

عيوب الخطاب:

كما للخطاب محاسن وإيجابيات، فله عيوب ومساوئ وسلبيات، وقد اهتم القدماء بذكر هذه المساوئ، وذلك لتجنبها، والتخلص منها، ومنها:

- **استعمال غريب الكلام الذي لا يُفْهَم**، وغامضه الذي لا يَبين، إظهارًا للتعالم، وإدلالاً بالمعرفة.

- **الإسهاب والإطالة في غير حاجة**، والاستطراد مما يؤدي إلى عدم استكمال الفكرة. وإملال السامع، وإضاعة الوقت.

- **الثرثرة في غير طائل**، قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا،الذين يألفون و يؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدِكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتفيهقون**[1]».

سمات الخطيب المؤثِّر:

يزداد تأثير الخطيب في الجمهور المخاطَبِ إذا توفَّرت فيه سماتٌ بلاغية، وشخصية ومعنوية.

أولًا: الصفات البلاغية: وتبدو من خلال بيانٍ آسر، ولسانٍ فصيح، ومنطقٍ جهوري.

ثانيًا: الصفات الشخصية: وتتمثَّل في الآتي:

- **المكانة:** كلما ارتقت مكانة الخطيب: العلمية، أو الاجتماعية، أو السياسية، زاد تأثيره، والاهتمام بما يقول.

(١) جاء في صحيح مسلم في حديث رقم ٦١٧٧: «**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا**».

- **جهارة الصوت وقدرته على تمثل الحالات**، وخلوه ممّا يشينه من حبسةٍ وتلكؤٍ وعنعنةٍ، واستعانة، وغير ذلك ممّا يعرض للصوت، فيضعفه.

- **حسن السمت وكمال الهيئة:** من كمال الأعضاء، وحسن اللباس، مما يؤدي إلى الاحترام والتوقير، ولا يعني كلامنا أنَّ نقصَ شيءٍ من ذلك يعني عدم القدرة على التأثير، فامتلاك الصفات السابقة الذكر، من: فصاحة، وبلاغةٍ، وجمال صوتٍ، وروعةِ أداءٍ، وقوّةِ إلقاء، تغطي على بعض النقص هنا أو هناك، فالأحنف بن قيس كان مع حنف رجليه وعوره، خطيبَ قومه ورئيسَهم، والحطيئةُ على دمامته، فقد كان يُقدَّمُ؛ لجودة شعره.

ثالثًا: الصفات المعنوية: من: حسن خلق، ولطيف معشر، وتودّد إلى الناس، وما يتبعهما من: التؤدة، والجدية، والوقار، والإخلاص، والصدق.

عيوب الخطيب:

يجدر بكل خطيب أن يتخلص مما يشين خطابه من مساوئ وعيوب، قد ترجع إليه، لا إلى الخطاب، ومن العيوب التي تتمثل في الخطيب:

- **الاستعانة:** وهي استعمال ألفاظ: افهم عني، واسمع مني، أو استخدام أصوات يستعين بها، حتى تأتيه الفكرة أو العبارة.

- **الاضطراب وكثرة الالتفات.**

- **عيوب في جهاز النطق**، كضعف الصوت، أو تحشرجه، وتقطعه، أو شدته وغلظته، وعدم قدرته على مواءمة حال العبارة، من سعادة وأمل، أو بؤسٍ وتشاؤم، أو فرح وحزن، وتساؤل واندهاش، وتعجب وحيرة، بل يسير في طبقة واحدة، ونغمةٍ لا تتغير، فلا يُعطى الكلام حقه، ولا الموقف أهميته.

- **عيوب في اللسان:** كاللثغة، والفأفأة، والتأتأة، والعنعنة، وغيرها من العيوب الخِلقية التي تؤثِّر في صاحب الخطاب والمخاطب تأثيرًا سلبيًّا.

ومما ورد من المساوئ عند العرب، قولهم [1]:

«الاستعانة بالغَريب عَجْز، والتّشادق في غَير أهل البادية نَقْص، والنَّظر في عُيون الناس عِيّ، ومَسْح اللِّحية هُلْك، والخُروج عَمّا بُني عليه الكلامُ إسهاب.

وأَنشدوا في عِيّ الخَطِيب، واستعانته بمَسْح العثْنون، وفَتْل الأَصَابع:

مَلِيءٌ ببُهْر والتفات وسُعْلة ومَسْحةِ عُثْنون وفَتْلِ الأصابعِ

نموذج لتعليم الخطابة[2]:

مَـرّ بِشرّ بن المُعتمر بإبراهيم بن جِبلة بن مخْرمة السَّكوني الخَطيب، وهو يعَلِّم فِتْيانهم الخَطابة، فوقف بِشرٌ يستمع، فظنّ إبراهيم أنه إنما وَقف ليَسْتفيد، أو يكـون رجلاً من النظّارة. فقـال بشر: اضربوا عمّا قـال صفْحًا، واطووا عنه كَشْحًا، ثم دفع إليهم صَحيفة من تَنْميقه وتحْبيره، فيها:

(خُذْ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإنّ قليل تلك الساعة أكرمُ جوهرًا، وأشرفُ حَسبًا، وأحسن في الأسماع، وأَحْلى في الصُّدور، وأسلم من فاحش الخَطأ، وأجلبُ لكُلّ عين وغُرّة، من لفظ شريف، ومَعنى بديع، واعلم أنّ ذلك أَجدى عليك مما يُعطِيك يومُك الأطْول بالكدّ والمُطاولة، والمُجاهدة بالتّكليف والمُعاودة، ومهما أَخطأك لم يُخطئك أن يكون مقبولاً قصدًا، وخَفيفًا على اللسان سَهْلاً، كما خَرج من يَنبوعه، ونجَم من

---

(١) كتاب الصناعتين ١ / ٢٠.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٠ .

مَعدنه ؛ وإياك والتوعّرَ، فإن التوعّر يُسلمك إلى التَّعقيد، والتّعقيد هو الذي يَسْتهلك مَعانيك، ويَشين ألفاظَك.

ومَن أراد معنًى كريمًا فَلْيَلْتمس له لفظًا كريمًا، فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريفُ ؛ ومن حقِّهما أن تَصونَهما عما يُفسدُهما ويهجِّنُهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تَلتمسَ إظهارهما، وتَرتهنَ نفسَك بمُلابستهما وقضاء حقهما.

وكن في ثلاث منازل: وإن أَوْلَى الثلاث أن يكون لفظُك رشيقًا عَذْبًا، وفخمًا سهلاً، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إمّا عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت، وإمّا عند العامة، إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من مَعاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من مَعاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحرازِ المَنفعة مع مُوافقةِ الحال، وما يَجبُ لكلِّ مَقامٍ من المقالِ، وكذلك اللفظُ العاميُّ والخاصيُّ، فإن أمكنَك أن تبلغَ من بيان لسانك، وبلاغةِ قلمك، ولُطفِ مَداخلك، واقتدارك على نفسِك، على أن تُفْهِمَ العامةَ معاني الخاصة، وتَكسوَها الألفاظَ المتوسطةَ التي لا تَلطفُ عن الدهماء، ولا تَجفو عن الأكفاء، فأنت البليغُ التام).

ونحن نلحظ في هذه الصحيفة أن بشر بن المعتمر، وهو من كبار العلماء والمؤدبين والمختصين بالتعليم قد راعى في صحيفته أو في بيانه هذا المناهج الآتية:

١- **مراعاة المدارك**، فما يقدَّم للصغير غير ما يقدم للكبير، وللمبتدئ غير المتمرس، إلى جانب مراعاة البيئة، والحال.

٢- **التفاوت في الاستيعاب والعلم**، وهذا الأمر يلفتنا إلى أنَّ القدرة على الاستيعاب، وتحصيل العلم ليست متساوية عند الجميع، وذلك راجع

إلى الظـروف: الصحيـة، والعقليـة، والاجتماعيـة، والبيئية، فالجهد المبذول لتقديم العلم لفرد قد يقلّ أو يزيد عند آخر.

٣- **الجانب النفسـي** (التنـوع والاختلاف) والجد والهزل، والنثر والشعر، والطـول والقصـر، والسـرد والحفـظ، والفهـم والتعليـق، والتطبيق التعبيري، والتطبيق الخطابي، والتطبيق الشعري.

ومعرفـة نفسية المتلقي أو المستقبل ضرورية لنجـاح عملية الاتصال، ومن ذلـك ما أورده الجاحظ في بخلائه، من أنَّ بخيلاً سقط في بئر، فاجتمع الناس عليه، كلٌّ ينادي عليه، ويقول له:

أعطني يدك، فلم يعطِ أحدًا.

فجاءه أحدهم، فقال له: خذ يدي، فتلقفها.

وهذه الطرفة تبين عن فهم نفسية المتلقي الذي يأخذ ولا يعطي؛ لشدة بخله.

ومـن قراءة هذا النص- نص بشـر بن المعتمر- نجد تلك التوجيهات التي تضـع ضوابط الخطاب بشكل خاص، والإبداع بشكل عام، في: إبداعه وإنشائه، وإلقائه، وذلك في:

- **اختيار الأوقات المناسـبة**، وبخاصـة تلك التي لا يكون فيها القلب والفكر مشغولين، واختيار الوقت المناسب يوفر الوقت والجهد، ويعين على الإجادة.
- التحذير من وعورة الألفاظ، وغرابتها.
- المعاني قرينة الألفاظ، وتجانسهما وتآلفهما رهينٌ بالمواءمة بينهما.
- عذوبة اللفظ، وفخامته، وسهولته، ووضوحه، وقربه، ومناسبته للسامع.
- رفعة المعنى وشرفه يقوم على الصواب، والنفع، وموافقة الحال.

نصوص في مهارة الخطاب:

وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه[1]:

إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا.

وقال بعضهم: الزيادة في الحدّ نقصان.

وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز، فإنَّ له إفهامًا، وللإطالة استبهامًا.

وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خيرٌ من كثير غير شافٍ.

وقال آخر: إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلّف، ولا خير في شيء يأتي به التكلّف.

وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز.

قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وقول رسول الله ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**»[2].

وقيل لبعضهم: لم لا تطيل الشّعر؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل ذلك لآخر، فقال: لستُ أبيعه مذارعة.

وقيل للفرزدق: ما صيّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ فقال: لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول.

وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق.

---

(١) كتاب الصناعتين ١/٥٤.

(٢) ورد الحديث في صحيح البخاري برواية «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب» باب١٢٢ ج٤ص١٢.

وقال أبو سفيان لابن الزبعري: قصرت في شعرك؟ فقال: حسبك من الشّعر غرّة لائحة، وسمةٌ واضحة.

وقيل للنابغة الذبياني: ألا تطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر؟

فقال: من انتحل انتقر.

وقيل لبعض المحدثين: مالك لا تزيد على أربعة واثنين؟

قال: هنّ بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ وأوجز.

وقيل لابن حازم: ألا تطيل القصائد؟

فقال:

أبَى لي أن أطيلَ الشعرَ قصدِي ... إلى المعنى وعلمِي بالصَّوابِ

وإيجازي بمختصرٍ قريبٍ ... حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ

فأبعثهنَّ أربعةً وستًّا ... مثقفةً بألفاظٍ عذابِ

خوالدَ ما حَدَا ليلٌ نهارًا ... وما حسنَ الصّبا بأخي الشّبابِ

وهنّ إذا وسمتُ بهنَّ قومًا ... كأطواقِ الحمائم في الرّقابِ

وكنَّ إذا أقمتُ مسافراتٍ ... تهادَاها الرّواةُ مع الرّكابِ

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما رأيت بليغًا قطّ إلّا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة.

وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيبٌ غير أنك كثير الكلام.

قال: أفتسمعون صوابًا أم خطأً؟

قالوا: بل صوابًا.

قال: فالزيادة من الخير خيرٌ.

وليس كما قال، لأنّ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سببًا للملال، فذلك هو الهذر والإسهاب والخطل، وهو معيب عند كل لبيب.

وقال بعضهم: البلاغة بالإيجاز أنجعُ من البيان بالإطناب.

وقال: المكثار كحاطب الليل.

وقيل لبعضهم: من أبلغ الناس؟

قال: من حلّى المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبّق المفصل قبل التحزيز.

المزيز: الفاضل، والمزّ: الفضل. وقوله: «وطّبق المفصل قبل التّحزيز». مأخوذ من كلام معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو قوله لعمرو بن العاص لما أقبل أبو موسى: يا عمرو، إنه قد ضمّ إليك رجلٌ طويل اللسان، قصير الرأي والعرفان، فأقلل الحزّ، وطبّق المفصل، ولا تلقَه بكلّ رأيك.

فقال عمرو: أكثر من الطعام، وما بطن قومٌ إلا فقدوا بعض عقولهم.

والإيجاز: القصر والحذف.

فالقصر تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني، وهو قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ البقرة.

ويتبيّن فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل». فصار لفظ القرآن فوق هذا القول؛ لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص، وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرّغبة والرّهبة لحكم الله به ولإيجازه في العبارة.

فإنّ الذي هو نظير قولهم: «القتلُ أنفى للقتل» إنما هو «القصاص حياة» وهذا أقلّ حروفًا من ذاك، ولبعده من الكلفة بالتكرير، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل». ولفظ القرآن برئ من ذلك، وبحسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحسّ؛ لأنَّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة.

وقال إسحاق بن حسان بن قُوهيّ: لم يفسِّر البلاغَة تفسيرَ ابنِ المقفَّع أحدٌ قَطُّ، سُئِل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سَجعًا وخُطبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامّةُ ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها، والإشارةُ إلى المعنى، والإيجازُ هو البلاغة، فأمّا الخُطَب بين السِّماطَين، وفي إصلاح ذاتِ البَين، فالإكثارُ في غير خَطَل، والإطالةُ في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أنَّ خيرَ أبياتِ الشعر البيتُ الذي إذا سمِعْتَ صدْرَه عرَفْتَ قافيتَه.

كأنّه يقول: فرِّقْ بينَ صدر خطبة النكاح وبين صَدْر خُطْبة العيد، وخُطبة الصُّلْح وخُطبة التّواهُب، حتَّى يكونَ لكَ فنٌ من ذلك صدرٌ يدلُّ على عَجُزِه؛ فإنّه لا خيرَ في كلامٍ لا يدلُّ على معناك، ولا يشير إلى مَغْزَاك، وإلى العَمود الذي إليه قصدتَ، والغرضِ الذي إليه نزَعت.

قال: فقيل له: فإنّ مَلَّ السامعُ الإطالةَ التي ذكَرْتَ أنّها حقٌّ ذلك الموقِف؟

قال: إذا أعطَيْتَ كلَّ مَقام حَقَّه، وقمتَ بالذي يجبُ من سياسة ذلك المقام، وأرضيْتَ من يعرف حقوقَ الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتَكَ من رضا الحاسد والعدُوّ؛ فإنّه لا يرضيهما شيءٌ، وأمّا الجاهلُ فلستَ منه وليس منك، ورِضَا جميعِ النَّاس شيءٌ لا تنالُه، وقد كان يُقال: رضا النَّاسِ شيءٌ لا يُنال.

قال: والسُّنّة في خطبة النكاح أن يطيل الخاطبُ، ويقصِّر المُجيب.

وقال قيس بن عاصم المِنَقَريّ يذكُر ما في بني منقِر من الخَطابة:

إنّي امرؤٌ لا يعتري خُلُقي ... دَنَسٌ يُفَنِّدهُ ولا أفْنُ

من مِنْقَرٍ في بيت مَكْرُمةٍ ... والأصلُ ينبتُ حولَه الغُصْنُ

خطباءُ حينَ يقومُ قائلُهمْ ... بيض الوُجوهِ مَصاقعٌ لُسْنُ

لا يَفْطُنون لعَيب جارِهم ... وهُمُ لحفظ جِوَارهم فُطْنُ[1]

خطبة من خطب رسول الله ﷺ: [2]

قال: خطَبَ رسول الله ﷺ بعشْر كلمات: حَمِد الله وأَثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناس، إنّ لكم معالِمَ فانتهُوا إلى مَعَالمكمْ، وإنّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم، إنّ المؤمنَ بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مَضَى لا يدري ما الله صانعٌ به، وبين أجلٍ قد بَقِيَ لا يدري ما اللهُ قاضٍ فيه، فليأخُذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دُنياه لآخرته، ومن الشّبيبة قبل الكِبرَة، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نَفسُ محمدٍ بيده، ما بَعْدَ الموت من مُسْتَعْتَبٍ، ولا بَعد الدُّنيا من دارٍ، إلاَّ الجنَّة أو النار.

محاسن المخاطبات[3]:

قال: ذكروا أن ابن القرية دخل على عبد الملك بن مروان، فبينا هو عنده إذ دخل بنو عبد الملك عليه، فقال: من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين؟ قال: ولد أمير المؤمنين. قال: بارك الله لك فيهم، كما بورك لأبيك فيك، وبارك لهم فيك، كما بورك لك في أبيك. فحشا فاه درًّا.

---

(١) ورد هذا الشعر ما سبقه في البلاغة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ٦٧/١.

(٢) الأربعون الودعانية: ص ٤.

(٣) نثر الدر ج٧: ص٢٩٦.

وقال رجل للعتابي: ما البلاغة؟

قال: كل ما أبلغك حاجتك وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، قالوا: قد فهمنا الإعادة والحبسة فما معنى الاستعانة؟

قال: أن يقول عند مقاطع الكلام: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عثنونه، أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته، أو يسعل من غير سعلة، أو ينبهر في كلامه.

قال بعض الشعراء:

مليءٌ بِبَهْرٍ والتفاتٍ وسعلةٍ ومسحةِ عُثنونٍ وفتلِ الأصابعِ

قالوا: ولما أغار سُفيان بن عَوف الأسديّ على الأنبار في خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعليها حَسّان البكْري، فَقَتله، وأزال تلك الخَيْل عن مَسارحها، فَخرج عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى جَلس على باب السدّة، فَحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[1]:

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجَنَّة، فمن تَركه ألبسه الله ثوبَ الذُّل، وأشْمله البَلاء، وألزمه الصَّغارَ، وسامَه الخَسْف، ومَنعه النَّصَف. ألا وإني دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهارًا، وسرًّا وإعلانًا، وقُلت لكُم: اغزُوهم قبلَ أن يَغزوكم، فوالله ما غُزي قومٌ قط في عُقر دارهم إلّا ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم وثَقُل عليكم قَوْلي، فاتخذتمُوه وراءَكم ظِهْريًّا، حتى شنّت عليكم الغارات. هذا أخو غامِد، قد بلغت خيلُه الأنبار، وقَتل حَسّان البَكْريّ، وأزال خَيْلَكم عن مَسارحها، وقَتل منكم رجالاً صالحين. ولقد بَلغني أنّ الرجل منهم كان يَدْخل على المَرأة المُسلمة والأخرى المُعاهَدَة فَينْزِع حِجْلها وقُلْبها ورِعاثَها، ثم انصرفوا وافرِين، ما كُلِم رجلٌ منهم. فلو أنّ رجلاً مُسْلمًا ماتَ من بعد هذا أسفًا ما كان

(١) نهج البلاغة: ص ١٢١- ١٢٧.

عنـدي مَلُومًا، بل كان عنـدي جدِيرًا. فواعجبًا مِن جِد هؤلاء في باطلهم، وفَشَلكم عن حَقّكم! فقُبحًا لكم وَتَرَحًا! حين صرتم غرضًا يُرمى، يُغارُ عليكم ولا تُغيرون، تُغزَوْن، ولا تَغْزُون ويُعصى اللهُ وتَرْضون! فإذا أمرتكم بالمَسير إليهم في أيام الحَرّ قُلتـم: حَمَّارةُ القَيْظ، أَمهلنا حتـى ينْسلخ عنَّا الحـرُّ، وإذا أمرتُكم بالمسير إليهم ضُحى في الشّتاء، قلتم: أمْهلنا حتى يَنسلخ عنا هذا القرّ.

كُلّ هـذا فِـرارًا من الحَـرِّ والقـرِّ، فأنتم والله مـن السَّيف أفرّ، يـا أشباهَ الرِّجـال، ولا رِجـال! ويـا أحلام أطفال، وعُقـولَ ربّات الحِجَـال! وَدِدْتُ أن الله أخرجنـي مـن بين أظْهُركم وقَبضنـي إلى رَحْمته مِن بينكـم، وأنِّي لم أركم ولم أعرفكم، معرفةً والله جَرّت وَهْنًا، وورّيتم والله صَدْري غَيْظًا، وجَرّعْتموني الموت أنفاسًا، وأفسدتُم عليّ رأيي بالعِصْيان والخذْلان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالـب شُجاعٌ، ولكـنْ لا عِلْم له بالحَـرب، لله أبوهم! وهَلْ منهم أحـدٌ أشدُّ لها مِرَاسًـا وأطـولُ تجربة منّي! لقد مارستُهـا وأنا ابنُ عِشْرين، فهـا أنذا الآنَ قد نَيَّفت على الستين، ولكنْ لا رأيَ لمن لا يُطاع.

ومن محاسن المخاطبات[1]:

قال: وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس، وقد أمر له بجوهر نفيس: وصلك الله يـا أمير المؤمنين، وبرّك، فوالله، لئن أردنـا شكرك على إنعامك، ليقصرن شكرنا عن نعمتك، كما قصر الله بنا عن منـزلتك.

قـال: ودخـل شبيب بن شيبة على المهدي، فقال: يـا أمير المؤمنين، إن الله جـل وعز حيث قسم الدنيا لم يرضَ لك إلا بأرفعها وأشرفها، فلا ترضَ لنفسك مـن الآخـرة إلا بمثل ما رضي لك من الدنيا، وأوصيك يـا أمير المؤمنين، بتقوى الله، فإنها عليكم نزلت ومنكم قُبلت وإليكم تُردّ.

(١) المحاسن والمساوئ ١/١٨٨.

جاء في رسائل الجاحظ:

وقال شـدادٌ الحارثيُّ -وكان خطيبًا عالمًا[1]-: قلت لأمـةٍ سوداء بالبادية: لمن أنت يا سوداء؟

قالت: لسيد الحضر يا أصلع.

قال: قلت: أو لستِ سوداء؟

قالت: أو لست أصلع؟

قلت: ما أغضبك من الحق.

قالت: الحق أغضبك، لا تشتُمْ حتى تُرهب، ولأن تتركه أمثل.

وقـال شداد: لقد كلَّمتهـا، وأنا أظنُّ أنِّي أفي بأهل نجد، وما نزعت عنِّي إلا وأنا عند نفسي لا أفي بأمَتِي.

ومن أجْل الحاجة إلى حُسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقَها من الفصاحة رامَ أبـو حذيفـةَ إسقاطَ الراء من كلامـه، وإخراجَها من حـروفِ منطِقه، فلم يـزل يكابِد ذلك ويغالبُه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لسَتره والراحةِ من هُجْنته، حتَّـى انتظم له ما حـاول، واتَّسق له ما أمَّل، ولـولا استفاضةُ هذا الخبر وظهورُ هـذه الحال حتّى صـار لغرابته مثلاً، ولطَرافته مَعْلمًا، لمـا استجزنا الإقرارَ به، والتأكيـدَ لـه، ولستُ أَعْنِي خُطَبـه المحفوظة ورسائله المخلَّـدة؛ لأنَّ ذلك يحتمل الصَّنعة، وإنما عَنيْتُ محاجَّة الخصوم ومناقلَة الأكْفاء، ومفاوضةَ الإخوان.

خطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا[2]:

صَعد قطـريّ بن الفُجَاءة مِنْبر الأزارقة، وهم أحد بني مازن بن عمرو بنِ تميم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

---

(١) رسائل الجاحظ.

(٢) العقد الفريد ٢/٢٧.

أما بعد، فإني أحَذِّركم الدُّنيا، فإنها حُلوة خضِرة، حُفت بالشَّهوات، وراقت بالقليـل، وتحبّبت بالعاجلة، وغُمِرت بالآمال، وتَحلت بالأماني، وازّيّنت بالغُرور، لا تَدُوم خضرتها، ولا تُؤْمَن فَجْعَتها، غَدَّارة ضَرَّارة، وحائلة زائلة، ونافدة بائدة، لا تَعْدو إذا هي تَنَاهت إلى أمنية أهل الرغْبة فيها والرِّضا عنها أن تكون كما قال الله ﷻ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ الكهف.

مـع أنَّ أمـراً لم يكن منهـا في حَـبْرة إلا أعْقبته بعدها عَـبْرة، ولم يَلْقَ من سَرّائها بَطْنًا إلا مَنَحته من ضَرّائها ظَهْرًا، ولم تَطُلّه منها دِيمة رَخاء، إلا هَطلت عليـه مُزْنـة بَلاء؛ وحَرِيٌّ إذا أصبحتْ له مُنتصـرة أنْ تُمْسي له خاذلة مُتَنَكِّرة، وإنْ جانبٌ منها اعـذوذب واحلولى، أمرّ عليه منها جانب فأوْبى، وإن لَبِس امرؤ مـن غَضَارتها ورفاهِيتهـا نِعمًا، أرْهَقَتْه من نوائبها غممًا، ولم يُمْس امرؤ منها في جَناح أمْن، إلا أصْبح منها على قوادم خَوْف.

غـرارة غرُور ما فيها، فانيـة فانٍ ما عليها، لا خيْرَ في شـيء من زادها إلّا التّقوى، مَن أقل منها استكثر مما يؤمّنه، ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه. كم واثق بها قد فَجَعَته، وذي طمأنينة إليها قد صَرَعَته، وكم من ذي اختيال فيها قـد خَدَعَته، وكم من ذي أبهة فيها قد صيَّرتـه حَقيرًا، وذي نخْوَة فيها قد ردَّته ذليـلًا، وذي تـاجٍ قد كَبَّته لليدين والفـم. سُلطانها دُوَل، وعيشهـا رَنِق، وعذْبُها أجَاج، وحُلْوها مُرّ.

وسمع الأحنفُ رجلاً يقول[1]:

(١) البيان والتبيين ١/٧٦.

التعلُّم في الصِّغَر كالنَّقش في الحجر، فقال الأحنف: الكبيرُ أكبرُ عقلاً، ولكنه أَشْغَل قلبًا.

ومما ذمُّوا به العِيَّ قولُه [1]:

وما بيَ مِن عِيٍّ ولا أنطقُ الخَنَا إذا جمع الأقوامَ في الخطب مَحْفِلُ

بدء الخطب وختامها:

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار[2]: تتبعت خطب رسول الله ﷺ، فوجدت أوائل أكثرها الحمد لله نحمده ونستعينه،ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ووجدت في بعضها: أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد فإن مفتاحها التكبير.

وروى ابن عبد ربه في العقد قال[3]: وكان آخر كلام أبي بكر الذى إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته: اللهم، اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاك.

وكان آخر كلام عمر الذى إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته: اللهم، لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني على غرة، ولا تجعلنى من الغافلين.

---

(١) المصدر نفسه ١/١.

(٢) عيون الأخبار١/٢٢١.

(٣) ١٥٠/٣.

وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته: اللهم، إن ذنوبي قد عظمت وجلّت أن تحصى، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعفُ عني.

ومن مساوئ المخاطبات: خطب أحدهم في حفل زواج، فقال: (الحمدُ للهِ مفرِّقِ الأحبةِ، ومعيدِهم إلى التربةِ، خالقِ الموت، ومبدِّدِ الشَّملِ، ومُبَعِّدِ الآمالِ، ومُدني الآجال [1].

(١) نثر الدر ج٧: ص ٢٩٤- ٢٩٦.

الفصل السابع

مهارتا السؤال والجواب

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**العلم قفْلٌ ومفتاحهُ المسألةُ**».

«البديع ٢١، والصناعتين ٢١٣

قال المنتصر لأبي العيناء: **ما أحسنُ الجواب؟**

قال: ما أسكت المُبْطِلَ، وحيَّرَ المُحِقَّ. (زهر الآداب ٢/٧٩٣ والمنتخب والمختار ٤٢٧).

١- ماهية السؤال.

٢- أدوات السؤال.

٣- مهارة الجواب:

أ. تعريفها.

ب. صفات المجيب.

٤- نصوص قرآنية في السؤال والجواب.

٥- نصوص تراثية في السؤال والجواب.

مهارتا السؤال والجواب:

مهارتـان في مهـارة واحـدة، إذ إنَّ كلَّ واحدة تقتضي الأخـرى، فمن كان ماهرًا في السؤال فلا بدَّ أن يكون ماهرًا في الجواب.

وماهية السؤال ثلاثة أحوال:

- **فـالأول: الطلب ببذل شـيءٍ**، وكيفية السـؤال بطلب شيء، يتعدى الفعل بنفسه، فنقول: سألته عطاءً، أو رتبة، أوقضاءَ حاجةٍ. وجاء في كتاب التعريفات للجرجاني «السؤال: طلب الأدنى من الأعلى».

- **والثـاني طلـب المعرفـة**، أو كما قال أهل البلاغة: طلـب العلم بشيءٍ لم يكـن معلومًا من قبل، كالإخبار عن شيءٍ، فيتعدّى الفعل بـ (عن) فنقول: سألته عـن مسألة رياضية، أو سألته عـن اسم فاتح الأندلس. هذا إذا استخدمنا لفظ الفعـل سأل، وما تصرَّف منه. ونستخدم في ذلك أيضًا أدوات الاستفهام، وهي: (**الهمـزة، وهـل، ومَنْ، وما، ومتى، وكم، وأين، وأيّـانَ، وأنَّى**) ولكل أداةٍ من هذه الأدوات خاصية ليست للأخرى، ويقيَّدُ استعمالها بالمسؤول عنه.

أدوات السؤال.

فـ (**الهمزة**) تأتي لمعرفة أحد شيئين أنت متردّدٌ في معرفة أيِّهما قام بالفعل أو وقع عليه، كسؤالك: أأنتَ الناجحُ أم عليّ؟ أفريقكَ انهزم أم فريقه؟

وتأتـي كذلك لإثبات النسبة هل تصح أم لا؟ كسؤالك: أيلتئمُ جرحُ مريض السكري؟

و(**هل**) تأتي لمعرفة الإثبات أو النفي، كسؤالك: هل سافرت؟ ويأتي الجواب، بنعم، أو لا.

و(مَنْ) يسأل بها عن العاقل، كسؤالك: من أمر ببناء مدينة بغداد؟ ويكون الجواب بتعيين المسؤول عنه، فتجيب: أبو جعفر المنصور.

و(ما) تأتي لشرح الاسم وتوضيح حقيقة المسمى، كسؤالك: ما الأوزون؟ وإذا سُئل بها عن العاقل كسؤالك: **ما زيد؟ تعني: أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟ فكأنك تسأل عن صفاته.**

و(متى) تأتي لتعيين الزمان، ماضيًا كان أو مستقبلاً، كسؤالك: متى إجازة الصيف؟

و(أيّان) تأتي لتعيين الزمان للمستقبل فقط، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾ القيامة.

و(أين) وتأتي للسؤال عن المكان، كسؤالك: أين وقع الإعصار؟

و(أنَّى) وتأتي ليسأل بها عن معانٍ عدة، فتأتي بمعنى: كيف، ومِنْ أينَ، ومتى.

كقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾ آل عمران.

و(كيف) يسأل بها عن الحال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ الرعد.

و(كم) يسأل بها عن العدد كقوله تبارك وتعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾ الدخان.

و(أي) يسأل بها لمعرفة أحد المتشاركين، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾ مريم.

وحقيقة الثالث التحوُّل من حقيقة السؤال إلى معانٍ أخرى، تُفهمُ من سياق الكلام، كخروج السؤال إلى: النفي، والإنكار، والتقرير، والتوبيخ، والتعظيم، والتمني والتشويق، والتحقير، والاستبطاء، والتعجب.

النفي:

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ البقرة.

وكما يقول الزمخشري: «أي ما كنتم حاضرين يعقوب عليه السلام إذ حضره الموت.

الإنكار:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ الفرقان.

أنكروا أن يكون الرسول بَشَرًا يأكل الطعام، ويمشي في الطُّرق، كما يمشي سائر الناس يطلب المعيشة؛ والمعنى: أنه ليس بملَك ولا ملِك؛ لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذَّل في الأسواق، فعجبوا أن يكون مساويًا للبشر لا يتميَّز عليهم بشيء؛ وإنما جعله الله بشرًا؛ ليكون مجانسًا للذين أُرسل إليهم.

ومثال آخر:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ البقرة.

التقرير:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ الروم.

يقول الزمخشري: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ تقرير لسيرهم في البلاد، ونظرهم إلى آثار المدمّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ البقرة. تقرير، بل الله أعلم.

الاستبطاء:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ البقرة

التوبيخ:

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ البقرة.

الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم،... ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توبيخ عظيم بمعنى: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول؛ لأن العقول تأباه وتدفعه.

الاستهزاء والسخرية:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ الفرقان.

تهكم وتوبيخ:

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الصافات.

يقول الزمخشري: هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين.

التفضيل:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ الزمر.

الجواب ببلى: إذا اجتمع الاستفهام مع النفي بلا أو ليس، كقوله ﷻ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ النور.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ يس. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ الفرقان.

قضايا في السؤال:

من هذه القضايا آداب السؤال، ومن آدابه:

١- التلطف وحسن الخطاب في توجيه السؤال.

٢- عدم الحياء من سؤال ما نحتاج إلى فهمه، قالت عائشة رضي الله عنها: «رحم الله نساء الأنصار، لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن في الدين».

٣- الإيجاز في السؤال؛ لأن الإطالة في السؤال يُنسي آخرها أوَّلَها، ولذلك جاءت الأسئلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، موجزة، فالسؤال عن الساعة، أو الأهلة، أو المحيض، أو الشهر الحرام، أسئلة موجزة غاية الإيجاز.

٤- الإقلال من الأسئلة؛ لأنَّ كثرتها والإلحاح فيها يؤديان إلى عكس المطلوب. وقد ورد النهي عن كثرة الأسئلة، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إنّ الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال[١]».

٥- إيراد السؤال بأسلوب واضح لا لبس فيه ولا غموض.

٦- عدم توجيه أسئلة تعجيزية، أو محرجة، أو معروفة لدى السائل، أو مثيرة قد تحدث ما لا تحمد عقباه، وقد ورد عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: سل تفقهًا، ولا تسأل تعنتًا [٢].

٧- اختيار الوقت المناسب للسؤال.

السؤال والنهي عن السؤال:

وقوله عز وجل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الصافات.

قال الزجاج: سُؤَالُهم سُؤَالُ توبيخ وتقرير لإيجاب الحجة عليهم؛ لأن الله جل ثناؤه عالم بأعمالهم وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ الرحمن.

أي لا يُسْأَل ليُعْلم ذلك منه؛ لأن الله قد علم أعمالهم والسُّوال ما سأَلتَه، وفي التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ طه.

أي أُعْطِيت أُمْنِيَّتك التي سَأَلْتها.

---

(١) مسند الإمام أحمد رقم ١٨١٧٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٧٣٢.

وسَأَلْتُه الشيءَ وسَأَلْته عن الشيء سُؤالاً ومَسْأَلة، قال ابن بري: سَأَلته الشيءَ بمعنى اسْتَعْطَيته إياه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ محمد.

وسأَلْته عن الشيء استخبرته.

وفي الحديث: «**أَعْظَمُ المسلمين في المسلمين جُرْمًا من سَأَلَ عن أَمر لم يُحَرَّم فحُرِّم على الناس من أَجل مَسْأَلته**[1]».

قال ابن الأَثير: السؤال في كتاب الله، والحديث نوعان: أَحدهما ما كان على وجه التبيين والتعلم مما تَمَسُّ الحاجة إِليه، فهو: مباح، أَو مندوب، أَو مأْمور به، والآخر ما كان على طريق التكلف والتعنُّت فهو مكروه ومَنْهِيٌّ عنه، فكل ما كان من هذا الوجه ووقع السكوت عن جوابه فإِنما هو رَدْعٌ وزَجْرٌ للسائل، وإِن وقع الجواب عنه فهو عقوبة وتغليظ.

النهي عن السؤال:

إذا كان للسؤال كل هذه الأهمية، فقد يسأل سائل، ولماذا ورد في القرآن الكريم النهي عن السؤال في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ المائدة.

قال ابن كثير: «هذا تأديب من الله [تعالى] لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا ﴿عَنْ أَشْيَآءَ﴾ مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، كما جاء في الحديث:

(١) سنن أبي داود رقم ٤٦١٢.

أن رسول الله ﷺ قال[1]: «**لا يُبْلغني أحد عن أحد شيئًا، إني أحب أن أخرج إليكم، وأنا سليم الصدر**». وقول الرسول ﷺ [2] وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَفَعَهُ: «**مِنْ حُسْن إِسْلاَم الْمَرْء تَرْكه مَا لاَ يَعْنِيه**» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ.

قَوْله: (بَاب حِفْظ اللِّسَان).

أَيْ عَنْ النُّطْق بِمَا لاَ يَسُوغ شَرْعًا مِمَّا لاَ حَاجَة لِلْمُتَكَلِّمِ بِهِ. وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخ فِي «كِتَاب الثَّوَاب» وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَب» مِنْ حَدِيث أَبِي جُحَيْفَةَ رَفَعَهُ: «**أَحَبّ الْأَعْمَال إِلَى الله حِفْظ اللِّسَان**».

والآية الكريمة والحديث الشريف لا يدلُّ نهيهما على أنه نهي مطلق شامل، ولكنه نهي محدد بحدود الأدب والمنفعة، والانشغال بالمهم من الأمور.

فالأدب مع رسول الله ﷺ الانتظار حتى يبين لنا، فلا نكثر عليه، ولا نضطره للإجابة التي قد تكون في غير الصالح العام، وكذلك عدم الإلحاح والإلزام والاختبار، كما كانت تفعل اليهود.

فعلى المرء أن يسأل عمّا ينفعه، ويترك السؤال عمَّا يضرُّه، ولا يعنيه بحال من الأحوال.

مهارة الجواب:

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (**إذا ازدحم الجواب خفي الصواب**) نهج البلاغة ٧١١ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٤٨٦.

(٢) موطأ مالك باب ما جاء في حسن الخلق رقم ١٦٣٨.

قلنـا: إنَّ مهـارة السؤال تقتضي مهـارة الجواب، فهمـا متلازمتان تلازم وجـوب، ومترابطتـان ترابط استدعـاء، فالسؤال يستدعي الجـواب، ولا جواب دون سابقـة سؤال، ولو أخذنا الفعل (جـوب) وجبنا في تصريفاته، لوجدنا أنَّ في أَسمـاءِ الله المُجِيب، وهو الذي يُقابِلُ الدُّعـاءَ والسُّؤَال بالعَطاءِ والقَبُول سبحانه وتعالى، وهو اسم فاعل مِن أَجاب يُجِيبُ.

والجَـوابُ معـروفٌ: رَدِيـدُ الكلام. والفِعْـل أَجابَ يُجِيبُ قـال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ البقرة.

أَي فَلْيُجِيبـوني، وقال الفرَّاءُ: يقال: إنها التَّلْبِيةُ، والمصدر الإِجابةُ، والاسم الجَابةُ بمنـزلة الطاعةِ والطاقة، والإِجابةُ: رَجْعُ الكلام، تقول: أَجابَه عن سُؤَاله وقد أَجابَه إِجابةً وإِجابًا وجَوابًا وجابةً واسْتَجْوَبَه واسْتَجابَه واسْتَجابَ له.

والمُجاوَبـةُ والتَّجـاوُبُ: التَّحـاوُرُ، وتجَـاوَبَ القومُ جـاوَبَ بَعضُهـم بَعْضًا، واسْتَعمله بعضُ الشُعراءِ في الطير، فقال جَحْدَرٌ:

ومِمَّـا زادَني فاهْتَـجْتُ شَـوْقًا ... غِـنَـاءُ حَـمـامَـتَـيْنِ تجَـاوَبـانِ

تجَـاوَبَـتـا بِـلَـحْـنٍ أَعْـجَـمِـيٍّ ... على غُصْنَيْنِ مِـن غَـرَبٍ ويَـانِ

صفات المجيب:

وكما السائل، فإنَّ على المجيب أن يتحلّى بآداب وصفات، من أهمها:

١- العلم الدقيق، والإحاطة الشاملة في تخصصه الذي يُسأَل عنه.

٢- البديهة الحاضرة.

٣- التوثُّق من الإجابة الصحيحة.

٤- الردُّ المفهم الكافي.

٥- **اختلاف الجواب بحسب اختلاف حال السائل**، فالإجابة تكون على حسب السائل في قدراته وعلمه وتخصصه، وهذا ما نلحظه في حياتنا، فإجابة الطبيب لطبيب غير إجابته لمريض، أو مهندس لمهندس غير ما يجيب رجلاً عاديًا.

٦- **العودة للحق إذا أخطأ.**

وأحسنُ الجواب كُلّه ما كان حاضرًا مع إصابة مَعنى وإيجاز لَفْظ.

جاء في أمثال العرب: (**أَساءَ سَمْعًا فأَساءَ جابةً** [١]).

هذا المثل على ما ذكر الزُّبَيرّ بن بكار، أَنه كان لسَهلِ بن عَمْرٍو ابنٌ مَضْعُوفٌ، فقال له إنسان: أَين أُمُّكَ؟ أي أَين قَصْدُكَ؟ فظَنَّ أَنه يقول له: أَين أُمُّكَ؟ فقال: ذهَبَتْ تَشْتَرِي دَقِيقًا. فقال أَبُوه: أَساءَ سَمْعًا فأَساءَ جابةً.

نصوص قرآنية في السؤال والجواب:

(سألوا) قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ النساء.

(يسألونك) في ثماني آيات عشر مرات:

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ البقرة.

---

(١) معجم الأمثال مادة (سمع).

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ البقرة.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ البقرة.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ البقرة.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾ المائدة.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ الأعراف.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ الأنفال.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ النازعات.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ البقرة.

قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ البقرة.

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ المعارج.

نصوص تراثية في مهارتي السؤال والجواب

قال الشاعر:

قِف إن شَكَكتَ وَلا تَقدُم عَلى عَملٍ ... قَبلَ السؤالِ فَإن العَقلَ في عَقلِ

إن لَم تُكن بِسؤالِ العِلمِ مُحتَفِلاً ... وَلا اِجتَهدتَ فَقُل: يا ضَيعَةَ الأَجلِ

وَإِن عَلِمتَ وَلَم تَعمَل عَلى وَجلٍ ... فَما رَبحتَ فَقُل: يا خَيبَةَ الأَملِ

من كتاب آداب الأكل:

ألا يستحي من سؤال ما أشكل عليه، ويفهم ما لم يتعقله بتلطف وحسن خطاب، وأدب وسؤال.

قالت عائشة رضي الله عنها: « **رحم الله نساء الأنصار، لم يكن الحياء يمنعهن أن يتفقهن في الدين**[1] ».

(١) ورد الحديث في صحيح البخاري باب الحياء في العلم ج١ ص ٤٤ برواية «نعم النساء نساء الأنصار...».

وقد قيل: من رقّ وجهه عند السؤال، ظهر نقصه عند اجتماع الرجال.

ولا يسأل عن شيء في غير موضعه إلا لحاجة، أو علم بإيثار الشيخ ذلك، وإذا سكت الشيخ عن الجواب لم يلح عليه، وإن أخطأ في الجواب فلا يرد عليه في الحال، وقد تقدم.

وكما لا ينبغي للطالب أن يستحي من السؤال، فكذلك لا يستحي من قوله: «لم أفهم» إذا سأله الشيخ؛ لأن ذلك يفوت عليه مصلحته العاجلة والآجلة، أما العاجلة فحفظ المسألة ومعرفتها، واعتماد الشيخ فيه الصدق والورع والرغبة، والآجلة سلامته من: الكذب، والنفاق، واعتياده التحقيق.

مراعاة نوبته، فلا يتقدم عليها بغير رضى من هي له.

روي أن أنصاريًّا جاء إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يسأله، وجاء رجل من ثقيف، فقال ﷺ: **«يا أخا ثقيف، إن الأنصاري قد سبقك بالمسألة، فاجلس كيما نبدأ بحاجة الأنصاري قبل حاجتك»**.

من كتاب أدب السؤال للشيخ صالح آل الشيخ:

موضوعنا عن أدب السّؤال الذي هو سؤال أهل العلم، والحاجة ماسّة إلى معرفة آداب سؤال أهل العلم، ما طريقة سؤالهم؟ وعمّ يُسألون؟ وكيف يكون السؤال؟ وكيف تتلقى الإجابة؟ وما ينبغي للمسلم من توقير أهل العلم وعدم الإلحاح عليهم بالمسائل ونحو ذلك من الآداب؟.

كان الصحابة رضوان الله عليهم ينتظرون الآتي من خارج المدينة حتى يسأل النبي ﷺ فيستفيدوا من السؤال ومن الجواب، وقد جاء أيضًا في الحديث الصحيح: **«إنّ الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»** وقد قال أيضًا الحجاج بن عامر الثُّمالي أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم وكثرة السؤال»**

فالأحاديث دالة على أن كثرة الأسئلة لأهل العلم إنما ذلك داخل في المكروه، إلا ما يحتاج إليه العبد فيما يأتي بضوابطه، والله جلّ وعلا أمر المؤمنين بأنْ يسألوا إذا جهلوا، وقد قال سبحانه وتعالى لما أنكر كفار قريش أن يكون الرسول بشرًا رجلاً، وقالوا: إن الرسول يجب أن يكون ملكًا. قال سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ النحل.

سؤال أهل العلم وسؤال أهل الذكر له أحوال، الناس يحتاجون إلى أن يسألوا ولا بد، ولكن هذا السؤال من حيث هو له أحوال:

حالٌ من جهة السائل.

وحالٌ من جهة المسؤول.

فالسائل ينبغي له أن يراعي -تأدبًا وحتى يصل المسؤول إلى الجواب الموافق للحقّ إن شاء الله- يجب على السائل أنّ يراعي آدابا وأن يراعي أشياء منها:

أن تكون مسألته واضحة غير ملتبسة -يعني أن يتبيّن المسألة قبل أن يسأل- فإذا كانت المسألة واضحة كان الجواب واضحًا، ولهذا ترى أنّ أسئلة جبريل عليه السلام للنبي ﷺ دليل على وضوح المسألة، وما ينبني على وضوح المسألة من وضوح الجواب، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «**أخبرني عن الإسلام**» سؤال ملخص وواضح: «**أخبرني عن الإيمان**»: «**أخبرني عن الإحسان؟**» وعن أشراط الساعة قال: «**وما أمارتها**» ونحو ذلك، فوضوح السؤال وقلة ألفاظه باستحضار تفاصيله ووضوح السؤال قبل أن تسأل هذا من الآداب التي ينبغي مراعاتها، وكثيرًا ما تكون الإجابة غير واضحة ؛ لأنّ السائل لم يحسن السؤال، فلو أحسن السائل الاستعداد للسؤال فسأل لكانت الإجابة واضحة.

من الآداب التي ينبغي مراعاتها في السؤال ألا يسأل السائل أهل العلم عن شيء يعرف جوابه.

وذلك لأنّ الله جلّ وعلا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾.

من الآداب المتعلقة بالسائل ألا يسأل السائل عن أشياء لا يفهمها إلا الخاصة ويثير السؤال أمام العامة.

من الآداب التي ينبغي للسائل مراعاتها أن يكون لبقًا مع أهل العلم متأدبًا معهم، وأن يكون لأهل العلم هيبة في صدره، وتوقير في قلبه: فإنّك إذا زدت في احترام العالم وشعر بذلك منك فإنه يزيدك من العلم والجواب؛ لأنك قد تحققت بالزيادة ؛ يعني أصبحت متأهلاً للزيادة ؛ لأنّ دليل تأهّل طالب العلم للتفصيل في الجواب والاستفادة الكاملة من العالم أن يكون متأدبًا معه.

بل يتأدب ويتحيّن الفرصة الجيّدة للعالم، فيسأله.

هنا تنتبه إلى أنّ أوقات العالم تختلف، فهناك وقت قد يكون مناسبًا لك لا يكون مناسبًا له، فيكون الجواب الذي جاءك بحسب حاله هو، قد يكون مستعجلاً، قد يكون وراءه أمر، قد يكون وقت الصلاة قرب، فيريد أن يستعد بوضوء أو نحوه، قد يكون وقت نومه، قد يكون عنده ما يشغله، قد يكون في البيت شيء أهمّه، قد يعالج في ذهنه مسألة من المسائل التي في المجتمع أو التي يريد أن يبذل فيها بعض الشيء فيكون ذهنه منشغلاً، فينبغي أن تراعي حال العالم، حيث تسأله فتقول له: هل هذا وقت مناسب للسؤال أو أرجئ السؤال إلى وقت آخر؟

فإذا قال: أرجئه إلى وقت آخر. فيكون هذا زيادة في أدبك وأجر لك، ويكون قد راعيت وتأدبت، وإذا أتى وقت آخر وسألته يكون مهيأ نفسه لأنْ يفصّل لك ويجيب المسألة بما ينبغي، فالمتصل دائمًا هذا وارد هو المرتاح، وأما المتصل به فلا يُدرى حاله.

فواقع الحال، وواقع العالم النفسي والذهني والزمني والمكاني يفرض عليه أشياء كما سيأتي أيضًا، ولهذا ينبغي أن يراعى ذلك في حال سؤال أهل العلم.

ومن كتاب أدب المجالسة:

ابن عباس رضي الله عنهما حَبْرُ الأمة في القرآن وحَبْرُها؛ يعني كثير العلم في كتاب الله جل وعلا بدعوة النبي ﷺ، مكث زمانًا طويلاً تردّد في نفسه مَن المقصود بالمرأتين في قول الله جلّ وعلا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ التحريم.

من المرأتان؟

قال ابن عباس: تردد ذلك في نفسي زمنًا طويلاً، وهِبت أن أسأل عمر؛ لأنّ عمر كان يحب ابن عباس، وكان يقدمه في المجالس، ويباهي به كبار الصحابة، لما يظن ويلمح فيه من: علم، وتُؤدة، وأدب، وفهم عنده في الكتاب والسنة.

قال ابن عباس: هبت أن أسأل عمر عن المرأتين اللّتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ. قال: حتى كان منصرفه مرّة من الحج فصحبته، فقال لي: يا ابن عباس، قرّب لي وَضوءًا -يعني ماء-. فلما قرّبت له الوضوء قلت له في أثنائه: يا أمير المؤمنين، مَن المرأتان اللتان قال فيهما الله جل وعلا: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ ﴿٤﴾﴾.

قال: فأجابني عمر، فقال: عائشة، وحفصة.

وكان ابن عباس ربما توسد بردته في يوم حار عند باب أحد الأنصار؛ ليستفيد منه علمًا، سمع عنده حديث عن النبي ﷺ فأراد أن يتثبّت منه أو أراد

أن يأخذه منه مباشرة، فيأتي فيطرق الباب، فيقولون: هو قائل - يعني نائم- أو هو في الدّار، أو مثل ما يقول أحدنا اليوم: هو مشغول أو نحو ذلك فانتظر، انتظر حتى خرج. فلما خرج، قال: يا ابن عمّ رسول الله ﷺ، منذ متى وأنت هنا؟ فقال ابن عباس: منذ كذا وكذا. وكان يتوسد البردة، وتسفي الريح التراب عليه تذلّلاً في العلم، واحترامًا لأهل العلم.

فكان ابن عباس إذا سأل أُجيب غير كثير ممن هم في طبقته من الصحابة رضي الله عن الجميع، ولهذا قال كلمته المشهورة: ذللتُ طالبًا فعززت مطلوبًا. يعني لّما كنت طالبًا كنت أذلّ لمن أستفيد منه، ولكن لما احتاج الناس إلي عززت مطلوبًا؛ لأنه صار عندي من العلم ما ليس عند غيري.

وقد قال ابن عباس لبعض الأنصار - وكان صديقًا له -: اذهب بنا يا أخي، إلى صحابة رسول الله ﷺ نسألهم عن العلم، ونستفيد منهم.

فقال ذاك الأنصاري: يا ابن عباس، أتظنّ النّاس سيحتاجون إليك، وهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ الكبار بين ظهرانيهم؟.

قال: فتركت العلم والسؤال، وذهب ابن عباس يسأل. ذهب كبار الصحابة فأتى زمن ابن عباس فيه هو من كبار صحابة رسول الله ﷺ، فاحتاج الناس إلى علمه، وأصبح يجيب الناس بما فتح الله جلّ وعلا عليه، ومنّ عليه من العلم.

أما العالم فأيضًا يحتاج إلى أن يكون - أو طالب العلم - معه أدب في الجواب، من الأدب المهم أيضًا -أدب السائل- ألا يحرج السائلُ العالمَ أو طالب العلم.

العودة إلى الحق.

أخطأ ابن حزم في مسائل في الحج ما السبب؟

إنه قرأها، وما حجّ، ورأى المشاعر، ورأى ما فيه الناس.

شيـخ الإسلام ابن تيمية كتب منسكًا من المناسك على ما هو موجود عنده في الكتب، ثم لما حجّ غيّر رأيه في مسائل كثيرة.

إذا كنت لا تعلم فسل، وأما كل شيء تسأل عنه في موقع واحد تسأل عشرين ثلاثين سؤالاً، هذا غير محمود.

فإذن هذا القسم وهو السؤال عن أشياء لم تقع وكثرة المسائل باقٍ في النهي عنه فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم.

وإنمـا يختلف الجواب بحسب اختلاف الحال، يفصل في موضع، لا يفصل في موضع، يمتنع عن الجواب في موضع، إلى آخر ذلك.

النبـي عليه الصلاة والسـلام كان يتكلم، فأتاه رجل فسأله: متى الساعة؟ فلم يجبه عليه الصلاة والسلام، وأكمل حديثه.

ثم سأله: متى الساعة؟ وأكمل حديثه، ثم قال: متى الساعة؟

فأجابـه النبـي ﷺ عن السـؤال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ النازعـات. مـا يعلمها عليه الصـلاة والسلام ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴿١٨٧﴾﴾ الأعـراف. جـلّ وعـلا، فلما ألحّ في المسألـة كره النبي ﷺ ذلـك منه وقال: «**إذا وسـد الأمر إلى غـير أهله فانتظر السـاعة**»، هذا الجواب غير السؤال –صحيح؟– لأنّ السؤال كان بـ(متى) عن الزمن، والنبي ﷺ أجابه بقوله: «إذا وسد» بعلامة من العلامات، وأشراط الساعة معلومة.

كذلـك في قـول الله جلّ وعلا لما سأل النبيَّ عليه الصـلاة والسلام الناسُ عن الأهلّة كان الجواب: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴿١٨٩﴾﴾ البقرة.

الصحابة -يعني بعضهم- سألوا وقالوا: لِمَ يبدأ الهلال في أوّل الشهر رفيعًا، ثم يكبر ثم يكبر حتى يستتم؟ يعني هل هم يفهمون وضع الأرض ووضع القمر إلى آخره لو فصل لهم؟ لن يفهموا ذلك، سألوا سؤالاً لا تستوعب الجواب عليه عقولُهم، فكان الجواب: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴿١٨٩﴾﴾ أجيبوا بشيء غير السؤال بما ينفعهم؛ وهو أنّ الأهلّة هذه مواقيت، لِمَ يبدو كذا ثم يكون كذا؟ هذا عُدل عن الجواب عنه، وفي هذا أصل شرعي في أنّ العالم قد يعدل عن الجواب إلى شيء آخر، إلى هنا انتهى ما اخترناه من كتاب أدب المجالسة.

البديهة في الجواب:

قيل للعباس بن عبد المطلب [1]: أنت أكبر أم رسول الله، ﷺ؟

فقال: هو عليه السلام أكبر مني، وولدت قبله.

وقيل: إنه قال: وأنا أسنّ منه.

ويقال: إن سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية قال له:

أنت سعيد؟

فقال: أمير المؤمنين سعيد، وأنا ابن مرة.

قيل: ودخل السيد بن أنس الأزدي على المأمون، فقال:

أنت السيد؟

فقال: أنت السيد يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنس.

قيل: وقال الحجاج للمهلب:

---

(١) هذه الأقوال وما بعدها في بديع الزمان الهمذاني: ص ٢٨٥.

أنا أطول أم أنت؟

فقال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة.

قال: ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل، فقال لها:

ممن العجوز؟

قالت: من طيء.

قال: ما منع طيئًا أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟

فقالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك. فأُعجب بقولها ووصلها.

قال: وقدم وفدٌ من العراق على عمر بن عبد العزيز، فنظر عمر إلى شابٍّ فيهم يريد الكلام.

فقال عمر: أولو الأسنان أولى.

فقال الفتى: يا أمير المؤمنين، إن الأمر ليس بالسن، ولو كان كذلك لكان في المسلمين من هو أسن منك.

فقال: صدقت، تكلم.

قال: يا أمير المؤمنين، إنا لم نأتِك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقدمت علينا في بلادنا، وأما الرهبة، فقد آمننا الله بعدلك من جورك.

قال: فما أنتم؟

قال: وفد الشكر.

قال: لله أنت، ما أحسن منطقك!

وقيـل: إنه لما استوسق أمـر العراق لعبد الله بن الزبـير وجّه مصعب إليه وفدًا، فلما قدم عليه الوفد، قال: وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلاً منهم.

فقال رجل من أهل الشام: بل وددت أن لي بكل عشرة منكم رجلاً منهم.

فقال رجل من أهل العراق: يا أمير المؤمنين، علقناك، وعلقت بأهل الشام، وعلق أهل الشام آل مروان، فما أعرف لنا ولك مثلاً إلا قول الأعشى:

عُلّقتها عرضًا وعلقت رجلا

غيري وعُلّق أخرى غيرها الرجل

فما وجدنا جوابًا أحسن من هذا.

مساوئ الجواب[1]:

قيل: إنه اجتمع عند رسول الله ﷺ، الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، فذكـر عمرو الزبرقان، فقال: بأبـي أنت وأمي يا رسول الله، إنه لمطاع في أدانيه شديد العارضة، جواد الكف، مانع لما وراء ظهره.

فقـال الزبرقان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله، إنه ليعرف مني أكثر من هذا، ولكنه يحسدني.

فقال عمرو: والله، يا نبي الله، إنه لزمر المروءة، ضيق العطن، لئيم العم، أحمق الخال، والله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، ولكني رضيت، فقلت: بأحسن ما أعلم، وسخطت، فقلت: بأسوإ ما أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»[1].

قال: وقال المنصور لقواده: صدق القائل: أجع كلبك يتبعك.

(١) هذه الأقوال وما بعدها في المحاسن والمساوئ ١/١٩٧- ١٩٨.

فقال أبو العباس الطوسي: يا أمير المؤمنين، أخاف أن يلوّح له رجل برغيف فيتبعه ويدعك.

الخجل والعلم:

قال أحد العلماء: فاتني نصف العلم.

فقيل له: وكيف ذلك؟

قال: تصدَّرتُ، ولم أكُنْ للتَّصدُّرِ أهلًا، واستحييتُ أنْ أسألَ مَنْ دوني، وأختلفُ إلى مَنْ فوقي، فذلك الجهلُ إلى اليومِ في نفسي.

قال: وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي: شاورت في أمرك فأشاروا عليّ بقتلك.

فقال: أما أن يكونوا نصحوك فيما جرت به السياسة، وحكمت به الرياسة فقد فعلوا،ولكنك تأبى أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، فإن عاقبت فلك نظير، وإن عفوت فليس لك نظير، وإن جرمي يا أمير المؤمنين، أعظم من أن أنطق فيه بعذر، وعفو أمير المؤمنين أجلّ من أن يفي به شكر.

فقال المأمون: مات الحقد عند هذا العذر.

فاستعبر إبراهيم، وبكى.

فقال له المأمون: ما لك؟

قال: الندم إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام عليّ.

قال: ودخل المأمون ذات يوم إلى الديوان، فنظر إلى غلام جميل على أذنه قلم.

---

(١) وحديث «إنَّ من البيان لسحرًا» في صحيح البخاري رقم ٥١٤٦ وسنن أبي داود رقم ٥٠٠٩.

فقال: من أنت يا غلام؟

قال: يا أمير المؤمنين الناشئ في دولتك، والمتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك، الحسن بن رجاء.

فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تتفاضل العقول. يرفع عن مراتب الديوان إلى مراتب الخاصة، ويعطى مائة ألف درهم معونة له. ففعل به ذلك.

قال: ودخل يزيد بن جرير على المأمون، وكان وجد عليه.

فقال: أيزيد؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، غذيّ نعمتك، وخرّيج صنيعتك، وغرس يدك الذي لم يشركك فيه مصطنع، ولم يسبقك إلى تخريجه أحد، ولم أزل يا أمير المؤمنين، بعفوك بعد سخطك راجيًا، وببصيرة رأيك في الانفراد بردّي إلى ما عودتني واثقًا، حتى أقامني الله جل وعز هذا المقام الذي فيه إدراكي أملي، ونيلي محبتي، فإن رأى أمير المؤمنين أن يشهرني برضاه، كما شهرني بسخطه فعل إن شاء الله !

فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين.

وقيل: إنه عزم الفضل بن الربيع على تطهير بعض ولده فأتى الرشيد، فقال: يا سيدي، قد عزم عبدك على تطهير ولده خدمك، فإن رأى أمير المؤمنين أن يزين عبده بنفسه،ويصل نعمته هذه بنعمته المتقدمة، ويتم سروره فعل متفضلاً على عبده متمننًا بذلك.

فقال: نعم.

فغـدا إليه، وقد أصلح جميع ما يحتاج إليـه، ووضعت الموائد، وقعد الناس يأكلـون، وأقبل الرشيد يـدور في داره، فرأى صبيًا صغيرًا أول ما نطق، فقال: يا صبي، أيما أحسن داركم هذه أم دار أمير المؤمنين؟

فقال: دارنا هذه أحسن ما دام أمير المؤمنين فيها، فإذا صار أمير المؤمنين إلى داره فداره أحسن.

فضحـك منه الرشيد، وتعجب من نجابته، ووهب لـه عشر قريات، ومائة ألف درهم.

بل إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له: هيه يا معن، تعطي مروان ابن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به شرفًا على شرفٍ بنو شيبان

فقال: كلا، يا أمير المؤمنين، إنما أعطيته على قوله:

مازلت يوم الهاشـمية معلنًا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقـاءه مـن وقـع كـلّ مهندٍ وسـنان

فقال: أحسنت والله يا معن، وأمر له بالجوائز والخلع.

ووفـد ابن أبـي محجن على معاويـة [1]، فقـام خطيبًا فأحسـن، فحسده معاوية، فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متُّ فادفنّي إلى جنب كرمةٍ تروّي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنّني في الفلاة فإنّني أخـافُ إذا مـا مـتُّ ألا أذوقـها

(١) هذه الأقوال وما بعدها في ثمرات الأوراق ١/ ١٧٢.

قال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرته ... وسائل الناس ما جودي وما خلقي
أعطي الحسام غداة الروع حصّته ... وعاملُ الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرضٍ ... وأكتم السّر فيه ضربة العنق
ويعلم الناس أنّي من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

ومن ذلك ما يحكى أن الحجاج خرج يومًا متنزهًا، فلما فرغ من نزهته انصرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بني عجل.

فقال له: من أين أيها الشيخ؟

قال: من هذه القرية.

قال: كيف ترون عمالكم ؟

قال: شرَّ عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم.

قال: فكيف قولك في الحجاج ؟

قال: ذاك ما ولي العراق شر منه قبَّحهُ الله، وقبَّحَ من استعمله.

قال: أتعرف من أنا؟

قال: لا.

قال: أنا الحجاج.

قال: جعلت فداءَك، أَوَ تعرفُ من أنا ؟

قال: لا.

قال: أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل، أصرع في كل يوم مرتين.

قال: فضحك الحجاج منه، وأمر له بصلة.

وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم؟

فقال علي كرم الله وجهه: إنما اختلفنا عنه لا فيه، وأنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم: يا موسى، اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة؟.

وقال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه، قال: أدب يتحلى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد.

خرج إبراهيم النَّخعي وقام سُليمان الأعمش يمشي معه.

فقال إبراهيم: إنّ الناس إذا رَأَوْنا قالوا: أَعْور وأَعمش!

قال: وما عليك أن يَأْثموا ونؤْجَر؟

قال: وما عليك أن يَسلموا ونَسلم.

لقي خالدُ بن صَفْوان الفرزدقَ، وكان كثيرًا ما يُداعبه، وكان الفرزدق دَميمًا.

فقال له: يا أبا فِراس، ما أنت بالذي لما رَأينه أَكْبَرْنه وقَطّعن أيديهنِ؟

قال له الفرزدق: ولا أنت أبا صَفوان، بالذي قالت فيه الفتاة لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ القصص.

وقال رجل للشَّعبيّ: ما كان اسم امرأة إبليس؟

(١) نهج البلاغة: ص ٧٣١ وسراج الملوك ٥٢/١.

قال: إن ذلك نكاح ما شَهدناه.

ودخل رجلٌ على الشَعبي فوجده قاعدًا مع امرأة، فقال: أيّكما الشَّعبيّ؟

قال الشعبي: هذه، وأشار إلى المرأة.

قال رجلٌ من بني لهَب لِوَهْب بن مُنَبّه: ممّن الرجل؟

قال: رجل من اليمن؟

قال: فما فعلتْ أُمّكم بلقيس؟

قال: هاجرتْ مع سُليمان لله ربّ العالمين، وأمّكم حَمّالة الحطب في جِيدها حَبْل من مَسَد.

وقال رجل لابن شُبرمة: مِن عندنا خَرج العِلمُ إليكم؟

قال: نعم، ثم لم يَرْجع إليكم.

قال مُعاوية لعبد الله بن عامر: إنّ لي إليك حاجة.

قال: بحاجةٍ تقضيها يا أميرَ المؤمنين، فَسَلْ حاجتك؟

قال: أريد أن تهب لي دُورك وضِياعك بالطّائف.

قال: قد فعلتُ.

قال: وَصَلَتك رَحِم، فَسَلْ حاجتك؟

قال: حاجتي إليك أن تردَّها عليَّ يا أميرَ المُؤمنين.

قال: قد فعلت.

وقال رجل لثُمَامة بن أَشْرس: إنّ لي إليك حاجةً.

قال: وأنا لي إليك حاجة.

قال: وما حاجتُك؟

قال: فَتقْضيها؟

قال: نعم، فلما تَوثق منه قال: فإن حاجتي إليك ألا تسألني حاجة.

أجوبة الأعراب[1]:

- مجاوبة أعرابي للحجاج:

خرج الحجاج ذات يوم فأصحر، وحضر غداؤه، فقال: اطلبوا من يتغدي معي.

فطلبوا، فإذا أعرابي في شملة، فأُتي به، فقال: السلام عليكم.

قال: هلم أيها الأعرابى.

قال: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبته.

قال: ومن هو؟

قال: دعاني الله ربي إلى الصوم، فأنا صائم.

قال: وصوم في مثل هذا اليوم الحار؟

قال: صمت ليوم هو أحر منه.

قال: فأفطر اليوم وصُمْ غدًا.

قال: ويضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد؟

قال: ليس ذاك إليه.

---

(١) جمهرة خطب العرب ٣/٢٥٤-٢٥٨.

قال: فكيف تسألنى عاجلاً بآجل، ليس إليه سبيل؟

قال: إنه طعام طيب.

قال: والله ماطيَّبهُ خبازك ولا طباخك.

قال: فمن طيَّبهُ؟

قال: العافية.

قال الحجاج: تالله إن رأيت كاليوم،أخرجوه عني.

- مساءلة الحجاج أعرابيًّا فصيحًا:

وقال الحجاج لأعرابي كلمة فوجده فصيحًا: كيف تركت الناس وراءك؟

فقال: تركتهم أصلح الله الأمير حين تفرقوا في الغيطان، واخمدوا النيران، وتشكت النساء، وعرض الشاء، ومات الكلب.

فقال الحجاج لجلسائه: أخصبًا نعت أم جدبًا؟

قالوا: بل جدبًا.

قال: بل خصبًا. قوله تفرقوا في الغيطان، معناه: أنها أعشبت، فإبلهم وغنمهم ترعى. وأخمدوا النيران، معناه: استغنوا باللبن عن أن يشتووا لحوم إبلهم وغنمهم ويأكلوها. وتشكت النساء أعضادهن من كثرة ما يمخضن الألبان. وعرض الشاء: استن من كثرة العشب والمرعى. ومات الكلب: لم تمت أغنامهم وإبلهم، فيأكل جيفها.

- مجاوبة أعرابى لعبد الملك بن مروان:

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا أعرابي، صف الخمر.

فقال:

شمول إذا شجَّت وفي الكأس مزة ... لها في عظام الشاربين دبيبُ

تريك القذى من دونها وهي دونه ... لوجه أخيها في الإناء قطوبُ

فقال: ويحك يا أعرابي، لقد اتهمك عندي حسن صفتك لها.

قال: يا أمير المؤمنين، واتهمك عندي معرفتك بحسن صفتي لها.

- أجوبة شتى.

وقدم أعرابي إلى السلطان، فقال له: قل الحق وإلا أوجعتك ضربًا.

قال له: وأنت فاعمل به، فوالله، ما أوعدك الله على تركه أعظم مما توعدني به.

وقيل لأعرابي: من أبلغ الناس؟

قال: أحسنهم لفظًا، وأسرعهم بديهة.

وقيل لأعرابى: مالك لا تطيل الهجاء؟

قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقال معاوية لأعرابية: هل من قرى؟

قالت: نعم.

قال: وما هو؟

قالت: خبز خمير، ولبن فطير، وماء نمير.

وقيل لأعرابي: فيم كنتم؟

قال: كنا بين قدر تفور، وكأس تدور، وحديث لا يحور.

وقيل لأعرابي: ما أعددت للبرد؟ قال: شدة الرعدة، وقرفصاء القعدة، وذرب المعدة.

وقيل لأعرابي: وقد أدخل ناقته في السوق؛ ليبيعها، صف لنا ناقتك.

قال: ما طَلبتُ عليها قط إلا أدركتُ، ولا طُلبتُ إلا فتُّ.

وقيل له: فلم تبيعها؟ قال: لقول الشاعر:

وقد تخرج الحاجات يا أم عامر كرائم من رب بهن ضنين

وقيل لأعرابي: ما عندكم في البادية طبيب؟

قال: حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار.

وقيل لشريح القاضي: هل كلمك أحد قط فلم تطق له جوابًا؟

قال: ما أعلمه إلا أن يكون أعرابيًّا خاصم عندي، وهو يشير بيديه،

فقلت له: أمسك، فإن لسانك أطول من يدك.

قال: أسامري أنت لا تمس؟

وقيل لأعرابي: أي الألوان أحسن؟ قال: قصور بيض في حدائق خضر.

وقيل لآخر: أي الألوان أحسن؟ قال: بيضة في روضة عن غب سارية والشمس مكبدة.

الباب الثاني

مهارت الاتصال الإبداعية

وفيه ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول: الكتابة الإبداعية إمكانيتها ومفاتيحها وآلاتها.**

١- إمكانية الكتابة الإبداعية. ٢- مفاتيح الكتابة الإبداعية.

٣- آلات الكتابة الإبداعية.

- **الفصل الثاني: فن الشعر، ويتضمن:**

١- مكانة الشعر. ٢- تسمية الشعر.

٣- أجزاء الشعر. ٤- أهمية الشعر.

٥- عصور الشعر (الجاهلي، والإسلامي والأموي،والعباسي والأندلسي، والدول المتتابعة، والحديث والمعاصر).

٦- مدارسه: (المدرسة المحافظة، والمدرسة التأثرية ومنها: مدرسة الديوان، وأبولو، والمهجر، والشعر الحر).

٧- نصوص في الشعر ونقده.

٩- نماذج شعرية.

- **الفصل الثالث: الفنون النثرية، ويتضمن:**

أولاً : المقالة (تاريخها، وعناصرها، وأنواعها، ونماذج).

ثانيًا: القصة (تاريخها، وتعريفها، وأنواعها، واتجاهاتها، وخصائص بنائها، ونموذج).

ثالثًا: الرواية (تاريخها، وتعريفها، والأنواع والاتجاهات، والصياغة الفنية، ومقارنة بين روايتين).

رابعًا: المسرحية (تعريفها وعناصرها، وأنواعها، ونموذج).

الفصل الأول

الكتابة الإبداعية إمكانيتها ومفاتيحها وآلاتها

وفيه:

١- إمكانية الكتابة الإبداعية.

٢- مفاتيح الكتابة والإبداع الأدبي.

٣- آلات الكتابة الإبداعية وأدواتها.

إمكانية الكتابة الإبداعية:

سـؤالٌ يُلحُّ علـى الخاطر، يقفز أمام مخيلة الكاتب، شـيءٌ ما يجعله يفكر في الكتابـة، ويحفزه عليها، فهـل رأى شيئًا أثار استغرابـه؟ أم سمع شيئًا تأذّى بسماعـه؟ أم قرأ شيئًا استنكره؟ أم أنَّ موضوعًا طالعه أثّر فيه سلبًا أم إيجابًا؟ أم أنَّ خطأً ما وقع، ويجب تصحيحه؟ أم أنَّ أمرًا غامضًا لا بدَّ من توضيحه؟

كل هذه الأسئلة قد تكون محفزاتٍ على الوصول إلى فكرة الكتابة.

فـإذا ما وصلنا إلى هـذه النقطة، نقطة القصد والرغبـة في الكتابة، فإنَّ أسئلة أخرى تستثار، ومن أهمها:

١- هل أصلح أنا للكتابة في هذا الموضوع؟

٢- هل هو في صميم تخصصي؟

٣- ما مدى قدرتي العلمية للإحاطة بالموضوع؟

٤- ما مدى قدرتي البيانية على تجلية الموضوع؟

٥- هل تستطيع خبرتي وتجربتي وثقافتي، المساعدة في الوصول إلى النجاح في معالجة هذا الموضوع؟

٦- هل أكون مقنعًا وقادرًا على الوصول إلى عقول الآخرين وقلوبهم؟

إذا أثـارت هـذه الأسئلة إجابـات تثير الرضا والقبول لـدى المتسائل، فإنَّ عليه أن يبدأ مشروعه الكتابي.

ولا يعنـي هذا أنَّ بدايـة المشروع تعنـي النجاح، فقد يتعـثر الكاتب مرارًا، وقـد يقترب من الهزيمة، ولكن الدافعية المحفِّزة إذا استمرت في دفعها، وقوتها، ونشاطها، واستمر الكاتب في قناعاته، ومعاناته، فإنَّ مركبه سيصل -بإذن الله- إلى شاطئ النجاة، وأن يصل متأخرًا خيرٌ له من ألا يصل أبدًا.

الكتابة فنٌّ المعانـاة، لا تتأتّى بسهولة ويُسر، صحيح أنها تُسلسُ القياد بعد طـول مـران وتدريب، ولكنها لا تُسلمُ قيادها إلاَّ بعـد طول مشاكسة وتحدٍّ، وبعد شدٍّ وجذب، وشماس ومصاولة.

ومـع ذلك فـإنَّ سلاستها المتخيلـة لا تعني على الإطـلاق أنَّ الكاتب الذي مهـر في الكتابة أيًّا كان نوعها، وعبرَ أساليبها، وملكَ بعض ناصيتها، وأصبحت فنّـه، وعشقه، ومهنته التي أعطاها عمره، أنه أصبـح صاحب أمرها، والمتحكم بتصريفها، وأنها تسلـم له نفسها طواعية، وتغدو مأمورة بأمره، ومنهية بنهيه، وخادمـة مطيعـةً لبنانه وقلمه، لا، ليـس هذا يسيرًا، ولا يقـع في دائرة الإمكان دائمًـا، بل إنَّ الكتابة تكون أحيانًا أشـدَّ مصاولة، وأقوى مشامسة، فتخذله وهو الكاتـب الفذ، وتسخر منه وهو الشاعر المبـدع، وتتلجلج في صدره وهو الخطيب المصقـع، تُدبـر وهو مقبـل، وتنأى وهو يظنهـا ملك قبضته، يطلبهـا فتقصيه، ويتلطـف إليها فتعصيـه، ترفض مواعيده وهـو الذي يظنُّ أنّهـا موافقة، وتردُّ دعوته وهو يرى أنّها موائمة، وتتأبّى على الإتيان، وتستحلي العصيان.

وكلامنـا هذا ليس كلامًـا إنشائيًّـا، ولا تهويمات خيال شاعـر، وإنمَّا هي حقيقة الكتابة، وما شهد به الكتّاب والأدباء والشعراءُ أنفسهم، من خلال وقائع وقعـت بهم، وحوادث حدثت لهم، وعوائـق وقفت دونهم والكتابة، فسدَّت عليهم الطـرق، وضيَّقت بهم المضايق، حيث كانت الرغبة في الكتابة أو القول حاضرة، والنفوس إليها ظامئة، فتأبَّـت عليهم، وامتنعت من حضـور مشهدهم، وسدَّت أذنيها عن سماعهم، و الإصغاء إليهم.

يقول الفرزدق[1]: (يأتي عليَّ حين وقلع ضرس أهون عليَّ من قول بيت شعر) فإذا كان الشعر يستعصي على الفرزدق الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء[2]: (لو ذهب شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة) فما بالك بعامة الشعراء والكتاب؟

مفاتيح الكتابة والإبداع الأدبي:

فإغلاق باب الكتابة إذن وارد حتى على الماهرين فيه، وفتحه يحتاج إلى مفاتيح، ولعل فيما أورده عبد الحميد الكاتب من نصائح لمن يقبل على الكتابة، وفي وصية أبي تمام للبحتري في عمل الشعر، ما يضع يدنا على هذه المفاتيح التي تفتح لنا مغاليق الإبداع.

ومن خلال هذه الوصية نستخلص بعض المفاتيح التي وضعها هذا الشاعر الكبير بين يدي البحتري، وكان وقتئذٍ ناشئًا، وهي:

١- اختيار الوقت المناسب للكتابة.

٢- مواءمة الحال للمقال براحة الجسد وفراغ البال.

٣- موافقة الألفاظ والمعاني للغرض المطروق، والموضوع المقصود.

٤- البعد عن المعاني الساقطة والألفاظ الغريبة الغامضة.

٥- التنظيم والترتيب والتنسيق، ومعاودة النظر، والمراجعة.

٦- عدم كدِّ النفس وإرهاقها، وإجبارها على الكتابة.

٧- الإحساس والشعور بالموضوع المقصود، والرغبة إليه، وهو ما يُسمى بالتجربة الشعورية.

٨- الثقافة النقدية، وموازنة أعمالنا الإبداعية بأعمال المبدعين المجيدين ممن سبق.

---

(١) العمدة ١/ ٦٦.

(٢) المصدر نفسه ١/٦٦ .

آلات الكتابة الإبداعية وأدواتها:

نصَّ كثيرٌ من الكتاب على الأدوات والآلات المعينة للكاتب المبدع في الشعر والنثر، وقد جمعها ابن الأثير في مقدمة كتابه المثل «السائر في أدب الكاتب والشاعر» في ثماني آلات، هي[1]:

(معرفة علم العربية، وما يحتاج إليه من اللغة، وأمثال العرب وأيامهم، وكلام المتقدمين من المنظوم والمنثور، ومعرفة الأحكام السلطانية، وحفظ القرآن الكريم، وحفظ الأخبار النبوية، وعلمي العروض والقافية للناظم دون الناثر) وبعد هذه، فإنَّ ابن الأثير يعبر بالكاتب إلى كل فن وثقافة ومعرفة شمولية، فنجاح الكاتب لا يتوقف عند حد إبداعه أو معرفته بما ذكر؛ لأنَّ الكتابة الإبداعية تحتاج في نجاحها إلى صدق التعبير عن كل أمرٍ تتعرّض له، ولذلك يرى أنَّ «صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون، حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء، والماشطة،عند جلوة العروس، وإلى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة، فما ظنك بما فوق هذا، والسبب في ذلك أنه مؤهل لأن يهيم في كل وادٍ، فيحتاج أن يتعلق بكل فن».

ويعلِّل ابن سنان الخفاجي ضرورة هذه المعرفة الشمولية، فيقول[2]:

(وبالجملة إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم واطلع على كل صناعة، لأثر ذلك في تأليفه ومعانيه وألفاظه؛ لأنه يدفع إلى أشياء يصفها، فإذا خبر كل شيء وتحققه كان وصفه له أسهل ونعته أمكن، إلا أن المقصود في هذا الموضع بيان ما لا يسعه جهله دون ما إذا علمه أثر عنده علمه، فإن ذلك لا يقف على غاية).

---

(١) المثل السائر ١/٧٣.

(٢) سر الفصاحة ١/١٠٠.

الفصل الثاني

الشـــــــعر

ويتضمن:

١- مكانة الشعر.

٢- تسمية الشعر.

٣- قوام الشعر وحدُّه.

٤- أجزاء الشعر.

٥- أهمية الشعر.

٦- عصور الشعر.

٧- مدارس الشعر واتجاهاته.

٨- نماذج شعرية.

مكانة الشعر:

مكانة الشعرعند العرب تظهر من خلال مقولة (الشعر ديوان العرب[١]) وقد تكرر هذا المعنى عند نقدة الشعر وأربابه، من ذلك قول ابن سلام الجمحي[٢]: (**كان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون**). وهو عند ابن قتيبة[٣]: (**الشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها**).

ويرى أبو هلال العسكري أنَّ[٤]: (**الشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها**). أما عند ابن فارس، فإنَّ (**الشعر ديوان العرب، به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، وتعلمت اللغة**).

كما يقول ابن رشيق[٥]: (**أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وهو مجمع البلاغة وحافظ الأنساب، ومسجل المفاخر، وأنيس العابر والسامر، به تزهو المجالس، وتنتظم النفائس، وهو أولاً وأخيرًا نبع فياض من ينابيع اللغة، به نستسهل وعرها، ونلتذ صعبها، ونعرف غامضها**) يقول ابن عباس رضي الله عنه: (**إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب، وكان إذا سئل عن شيءٍ أجاب شعرًا**).

والشعر مُدْرَكٌ ومُدْرِك، فنحن ندرك ألفاظه ومعانيه، وأغراضه ومراميه، وهو يدرك حاجاتنا ورغباتنا، ويصل إلى مداركنا ومشاعرنا، ويبلغ بنا إلى الوصول إلى غاياتنا وأهدافنا.

---

(١) العمدة ١/٤.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/٤.

(٣) كتاب الصناعتين ١/ ١٢٣.

(٤) الصاحب ١/١٤.

(٥) العمدة ١/٣.

تسمية الشعر:

جاء في سر الفصاحة [1]: (وسمي شعرًا من قولهم: شَعَرْتُ، بمعنى: فطنت. والشعر: الفطنة، كأن الشاعر عندهم قد فطن لتأليف الكلام).

وجاء في نضرة الإغريض [2]: «إنّ اشتقاقَ لفظةِ الشّعرِ من العلمِ والإدراكِ والفطنةِ تقول: ليْتَ شِعْري هلْ أصابَ صوْبُ السماءِ منازِلَ أسماءَ، أي ليت علمي».

وقال أيضًا: «وسُمّي الشاعرُ شاعرًا لعلمه وفطنتِهِ».

وأما كونُهم سمّوا الشعرَ قريضًا فلأنّ اشتقاقه من القَرْضِ وهو القطْعُ؛ لأنه يُقْرَضُ من الكلامِ قرْضًا، أي يقطعُ منه قَطْعًا كما يُقْرَضُ الشيءُ بالمِقْراض. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تجوزُهُم وتَدَعُهُم على أحدِ الجانبين.

قال عبد العزيز بن حاتم بن النعمان بن الأحمر، وكان يهاجي الفرزدق:

أنفي قَذَى الشّعرِ عنهُ حينَ أقْرُضُه ... فما بِشعْريَ من عيْبٍ ولا ذامِ
كأنّما أصْطَفي شِعري وأغرِفُه ... من مَوْجِ بحْرٍ غزيرٍ زاخرٍ طامِ
منهُ غرائِبُ أمثالٍ مُشهَّرةٍ ... ملمومةٍ، إنها رَصْفي وإحكامي

وأما القصيدُ، وهو جمْعُ قصيدةٍ مثل سَفين جمع سَفينة، فإنما اشتُقّتْ لفظتها من القِصْدَة وهي القِطْعة من الشيء إذا تكسّرَ كأنها قِطعةٌ من الكلام. ومن ذلك رُمْحٌ قِصَدٌ وقد تقصّدَ إذا صار قِطَعًا. قال المُسيَّبُ بنُ عَلَس:

---

(١) سر الفصاحة ١/٩٨.

(٢) نضرة الإغريض ١/ ٢.

فَلأُهدِيَنّ مع الرِّياحِ قصيدةً ... مني مُغلْغَلَةً الى القَعْقاعِ
تـرِدُ المياهَ فلا تـزالُ غريبةً ... في القَوْمِ بين تمثُّلٍ وسَماعِ

وأما تسميتُهُم القصيدةَ قافيةً، فلأن القافيةَ تقفو البيتَ أي تتبعُهُ، وسمّوا الجميعَ باسم واحدٍ إيجازًا واختصارًا، كما سمّوا القصيدةَ بجملتها كلمةً، والكلمةُ اللفظةُ الواحدة، ميلاً الى اختصار الكلام، وإخلادًا الى ما يدلُّ فيه على التمام. قالت الخنساء:

وقافيةٍ مثل حدِّ السِّنانِ ... تبْقَى ويهلِكُ مَنْ قالَها
نطقتَ ابنَ عمروٍ، فسهّلْتَها ... ولَمْ ينْطِقِ الناسُ أمْثالَها

وأقول: (إنّ الشعرَ عبارةٌ عن ألفاظٍ منظومة تدلُّ على معانٍ مفهومة، وإن شئتَ قلت: الشعرُ عبارةٌ عن ألفاظ منضودة، تدلُّ على معانٍ مقصودة).

قوام الشعر وحدُّه:

وجاء في العمدة [1]: (**الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر**) وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة: **الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه ؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز.**

ويرى ابن رشيق عدم تأتي الشعر للشاعر في كل آن، يقول [2]:

---

(١) العمدة ١/٣٧.

(٢) المصدر نفسه ١/٦٦.

(لا بد للشاعر. وإن كان فحلاً، حاذقًا، مبرزًا، مقدمًا. من فترة تعرض له في بعض الأوقات: إما لشغل يسير، أو موت قريحة، أو نبو طبع في تلك الساعة أو ذلك الحين. وقد كان الفرزدق، وهو فحل مضر في زمانه يقول: تمرّ علي الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون علي من عمل بيت من الشعر.

أمَّا الوزن فهو موسيقى الشعر التي بها تتم أجزاؤه، جاء في كتاب التعريفات للجرجاني[1]:

أجزاء الشعر:

هي ما يتركب الشعر منها، وهي ثمانية: فاعلن، وفعولن، ومفاعيلن، ومستفعلن، وفاعلاتن، ومفعولات، ومفاعلتن، ومتفاعلن.

قال أبو عبيدة [2]: **(سمعت أبا عمر يقول: زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر؛ لأنَّهم نقَّحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين).**

وقال سويد بن كراع[3]:

أبيتُ بأبواب القوافي كأنمَّا ... أُصادي بها سِربًا منَ الوحشِ نُزَّعا

أهمّية الشعر:

تبدو أهمية الشعر من قول رسول الله ﷺ: **«إنَّ من الشعر لحكمة، وإنَّ من البيان لسحرًا[4]».**

---

(١) التعريفات مادة شعر.

(٢) الشعر والشعراء ١/٢٣.

(٣) الأغاني ١١/ ١٢٩ والمصاداة: المداراة.

(٤) صحيح البخاري رقم ٥١٤٦ وسنن أبي داود رقم ٥٠٠٩.

ويقـول عمر بن الخطـاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (نِعْمَ ما تعلَّمته العـرب الأبيات، يقدّمها الرجل أمام حاجته، فيستنـزل بها الكريم، ويستعطف بها اللّئيم[1]).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: (الشعر ميزان القول).

والشعـر له مزايا عظيمة، وسلطـانٌ مؤثِّر على النفوس، فكان يرفع ويضع، ويُعلي ويُدني، من ذلك قصة الحطيئة وبني أنف الناقة الذين كانوا يخجلون من هذا الاسم، حتى قال فيهم الحطيئة[3]:

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ومن يُسوّي بأنف الناقة الذنبا

فصاروا يفتخرون بهذا الاسم.

وقصّة الأعشى مع المحلّق تدل على من كان خاملاً فقيرًا مكثرًا من البنات اللاتي كبرن ولم يتزوجن، فرفعه الشعر، (وذلك أنَّ الأعشى قدم مكة، وتسامع به الناس... فسبق إليه المحلّق، وأنزله، ونحر له.. فلما أكل الأعشى وأصحابه... سألـه عن حاله وعياله، فعرف البؤس في كلامه، وذكـر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهنّ. فأصبح بعكاظ يُنشد قصيدته:

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرّق وما بي من سقم وما بيَ معشقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس.. إلى أن سمع:

نفى الـذمَّ عن آل المحلّق جفنةٌ كجابية السيح العراقي تفهق
لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضـوء نـار بـاليـفاع تُحـرّق
تشـبُّ لمقـرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّقُ

---

(١) العمدة ١/ ٨٦.

(٢) المصدر نفسه ١/١٠.

(٣) العمدة ١/١١.

فمـا أتمَّ القصيدة إلاَّ والنّاس ينسلّون للمحلّـق يهنّئونه، والأشراف من كل قبيلـة يتسابقون إليه جريًا يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، ولم تُمس واحدةٌ منهنَّ إلاّ في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف [١]).

وفي ذلـك يقول ابن رشيق[٢]: (**كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شـاعر أتـت القبائـل فهنأتهـا، وصـنعت الأطعمـة واجتمـع النسـاء يلعـبن بالمزاهـر، كما يصـنعون في الأعراس، ويتباشـر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضـهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم، وكانو لايهنئون إلاّ بغلام وُلِد، أو شاعر ينبغ أو فرس ينتج**[٣]).

عصور الشعر:

قد مرَّ الشعر في عصور من القديم للحديث، زها في الكثير منها، وخبا في بعضها، وعصور الشعر، هي:

العصر الجاهلي:

يمتد هذا العصر في حدود ١٥٠ إلى ٢٠٠ سنة قبل الإسلام، يقول الجاحظ[٤]: (**أما الشـعر فحديث الميلاد صغير السـن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجْر ومهلهل بن ربيعـة... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له. إلى أن جاء الله بالإسلام. خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام**).

---

(١) المصـدر نفسه ١/ ١٢٣ – ١٢٥والجفنة القصعة التي يقدم فيها الطعام. والجابية: الحوض الذي تشـرب منه الإبـل، والسيح: النهر، وتروى الشيـخ. وتفهق: تمتلئ وتتصبب. والمقـرور: من أصابه البرد.

(٢) العمدة ١/١٧.

(٣) العمدة ١ / ١٥٣.

(٤) المصدر نفسه ١/١٥٣.

ومـن أشهر شعراء هذا العصـر، المتفق عليهم، الذين أرسوا أسس الشعر الجاهلـي، وأوجدوا سننًا ثابتة له، وأغنوا الشعـر بالأساليب الجيدة إلى جانب أنهم أصحاب القصائد المطولة هم: امرؤ القيس، والنابغـة، وزهير بن أبي سلمى، والأعشـى (ميمون بن قيس)، ولبيد بن ربيعـة، وطرفة بن العبد، والحارث بن حلزة اليشكري، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد وعبيد بن الأبرص.

وأهـم مصادر الشعر الجاهلي:

المعلقـات، والمفضليات، والأصمعيات، وجمهرة أشعـار العرب، ثم دواوين الحماسة كحماسة: أبي تمام، والبحتري، والبصري، وابن الشجري.

وكذلك دواوين القبائل والشعراء، ثم كتب الثقافة العامة، ككتاب النقائض والكامـل والحيوان والمعارف وطبقـات فحول الشعراء والشعـر والشعراء وكتب الآمالي وغير ذلك.

والشعر الجاهلي في عمومه: شعر جزلٌ، متين السبك، تام الأجزاء، واضح العبـارة، كان يسـير في غالبه على طريقة ممهدة، من ذكـر الأطلال، وبكائها، والغـزل بالحبيبة، والخروج بعد ذلك للغرضـ الذي يقصده الشاعر من: مدح، أو فخر، أو هجاء.. إلخ.

العصر الإسلامي:

يمتد هـذا العصر منذ بزوغ فجر الإسلام إلى نهايـة الدولة الأموية عام١٣٢هـ وهذا مـا اتفق عليه أغلب مؤرخـي الأدب، وبعضهم يقسمـه إلى عصرين: الإسلامي الذي ينتهي بنهاية فترة الخلفاء الراشدين، أي في سنة٤١هـ، والأموي، وينتهي بسقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ، ولكل فترة من هاتين الفترتين سمات تميز بها الشعر.

ففي الفترة الأولى كان الشعر يسير مواكبًا التشريع الإسلامي، ومن خلال توجيهات الرسول ﷺ بدأ الشعر يتخلى عن كثير من القيم الجاهلية التي كانت تحكمه، إلى جانب أن الشعر بدأ يواكب الأحداث الإسلامية مثل الفتوحات الإسلامية، ووفاة الرسول ﷺ، والخلفاء من بعده، ولذلك فإن قيم الشعر ومعانيه وألفاظه تمثلت قيم الإسلام، وسارت على نهجه، وظهر التأثر بمعاني وألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في معاني الشعر وألفاظه.

ومن أشهر شعراء هذه الفترة: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله ابن رواحة.

أما الفترة الثانية التي تمثل عهد الانقسام في الأمة، وبخاصة في بدايتها، فقد عاد بعض الشعر إلى القيم الجاهلية، قيم القبيلة، كما ظهر نوع جديد، أو غرض جديد في الشعر وهو الشعر السياسي الذي يؤيد فكرة أو حزبًا معينًا، فكان هناك من الشعراء الذين يؤيدون الأمويين، أو الزبيريين، أو من يظهر ولاءه لآل البيت، أو من يدعي فكر الخوارج، وكانت حركة الشعر موّارة، فكانت هذه الفترة من أخصب فترات الشعر.

وأشهر شعراء هذه الفترة: جرير، والفرزدق، والأخطل، وذو الرمة، وعمر ابن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بن معمر، وعدي بن الرقاع، والكميت، وكثير عزة، وغيرهم كثير.

العصر العباسي:

هو العصر الذي يبدأ بسقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ وينتهي بسقوط الدولة العباسية عام ٦٥٦هـ فخمسة قرون هي عمر هذا العصر، استقر فيه الشعر، وأخذ بزخرف الحضارة، وظهرت عليه مظاهر التجديد، مضمونًا وشكلاً وتمثل ذلك في: العرض، والفكرة، والألفاظ، والشكل، والموضوع، فظهر

الشعر التعليمي، والقصصي، وظهرت بعض أغراض جديدة، كالغزل بالمذكر، إلى جانب ظهور بعض الثقافات التي انصهرت مع الثقافة العربية الإسلامية، مثل: الثقافة الفارسية والهندية واليونانية والرومانية، وهذا التقدم العلمي في ظل استقرار سياسي، وازدهار اقتصادي، كل ذلك أدّى إلى نهضة شعرية، جعلت هذا العصر هو عصر الازدهار الحقيقي للشعر. فظهر شعراء كبار من أمثال: بشار بن برد، وأبو تمام، والبحتري، وعلي بن الجهم، وجاء بعدهم المتنبي والشريف الرضي، وأبو فراس الحمداني، ثمّ أبو العلاء المعري، وعدد وفير لا يتسع المقام لذكر من أبدعوا الشعر في هذا العصر.

ويُضاف إليه ما أبدعه شعراء الأندلس والمغرب وصقلية في ميادين الشعر المختلفة، وما تميزت به تلك البيئات عن بيئة المشرق، حيث تميزت بشعر الموشحات، والتوسع في شعر الطبيعة، والتغني بجمالها.

ومن أعظم شعراء تلك البيئة: ابن دراج القسطلي، وابن زيدون، وابن حمديس الصقلي، وابن سهل، وابن اللبانة، والمعتمد بن عبّاد، وغيرهم كثير.

عصر الدول المتتابعة أو العصر الوسيط:

يبدأ من سقوط بغداد، ويستمر حتى بدايات عصر النهضة، أو ما يسمى بالعصر الحديث.

يتهم هذا العصر بالضعف، ويوصف شعره بالتقليد والجفاف، على الرغم من أن هذه المقولة ليست صحيحة على إطلاقها، فقد وجد في هذا العصر من الشعر والشعراء في قرونه المتتالية ما يؤكد على أن شعرنا العربي ظلّ في كل عصوره يزهو بالنضارة، ويتمتع بالقوة، على الرغم من بعض المظاهر التي اعترته في أواخر هذا العصر، وذلك راجع إلى ضعف الدول الإسلامية،

والحـروب التي أنهكتها، والظروف الاقتصادية السيئة التي مرَّت بها، ومع ذلك فقـد استطاع الشعر في هـذا العصر أن يعبّر عن نفسه وعن العصر خير تعبير، ومن أشهر موضوعات العصر شعر المديح النبوي، وتنقل لنا كتب التراجم مثل: كتـاب خريدة القصر وجريدة العصر للعمـاد الأصفهاني، وكتاب دمية القصر للباخرزي، وكتاب نفحة الريحانة للمحبي، عددًا وفيرًا من أسماء الشعراء الذين ظهروا في هذا العصر، نذكر منهم على سبيل المثال في بداياته: ابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي، وأبو إسحق إبراهيم الغزي، والحيص بيص، وابن قسيم الحمـوي، وابن الساعاتـي، وابن عنين، وشهاب الديـن التلعفري، والبوصيرى، وابـن دقيـق العيـد، وصفـي الدين الحلـي، وابن جابـر الأندلسـي، وابن حجة الحموي، والبهاء زهير، وابن الساعاتي، وغيرهم كثير.

الشعر الحديث والمعاصر:

مـع نهايـة القرن الثامن عشر الميـلادي وبداية القرن التاسـع عشر بدأت حركـة النهضة الإصلاحية في الوطن العربي، على الرغم من الظروف الصعبة التي كان يمر بها من الضعف وتردي التعليم، ومواجهة الاستعمار الغربي، وكان الاحتـكاك بهم مثـار تأثر ومحـاكاة، وفي الوقت نفسه مثار تحـدٍّ وإثبات كيان، ولذلـك فقد طغت على الشعر روح الاتصال بالتراث القديم ومعارضته وتقليده، والبحـث عن دُرَرِه، ومن هنا عكف محمود سامي البارودي على اختيار مجموعة كبـيرة من شعر شعرائنـا القدامى، أثبتها في مختاراته التـي كانت عنوانًا على روعة شعرنا القديم وبهائه، ونموذجًا للشباب الطامح إلى نهضة شعرية أساسها التواصـل بين الماضـي والحاضر، وكان أثر البارودي وأثـر مختاراته فيمن جاء بعده من الشعراء واضحًا.

ويأتي أحمد شوقي فينهل من التراث، ويستفيد من الطرائق الجديدة في الشعر الغربي، ولكنه مع بعض لمحات التأثر بالشعر الفرنسي أو الإنجليزي ظل محافظًا على أصالة القول في جزالة لفظية، ومحافظة موضوعية. وتموج الساحة الشعرية العربية بإعداد كثيرة من الشعراء في مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة والمغرب العربي، فيظهر في مصر: إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، ويظهر في لبنان: خليل مطران، وبشارة الخوري، وفي العراق: معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، وفي سوريا: بدوي الجبل، وعمر أبو ريشة، وفي فلسطين: إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود ، وفي الأردن: مصطفى وهبي التل (عرار) وفي السعودية يظهر: محمد حسن عواد، وأحمد عبد الغفور عطار، وفي الكويت: فهد العسكر، وفي البحرين: إبراهيم العريض، وفي الجزائر: عبدالقادر الجزائري، وفي تونس أبو القاسم الشابي، وتظهر الاتجاهات الأدبية، مثل مدرسة المهجر، ويتمثل فيها مجموعة من شعراء الشام: كإيليا أبي ماضي، وجبران خليل جبران، وإلياس شبكة، وميخائيل نعيمة، والشاعر القروي، وأبو الفضل الوليد، ونسيب عريضة، ورشيد أيوب، وفوزي المعلوف، وإلى جانبها مدرسة الديوان التي تمثّلت في العقاد وعبد الرحمن شكري، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وكذلك مدرسة أبولو التي تمثلت في خليل مطران، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه. وظهر الشعر التجديدي المعاصر على أيدي مجموعة من شعراء العراق مثل: نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، وفي سوريا: نزار قباني، واستمر مرير مدرسة التحديث الشعري في مصر على أيدي: أمل دنقل، وصلاح عبدالصبور، وفي فلسطين: محمود درويش، وسميح القاسم، وامتلأت الساحة العربية بطولها وعرضها بالشعراء على اختلاف الرؤية التجديدية لديهم، ولكن الغالب على شعر هذه الفترة الرمز والغموض، والحداثة التي فتكت بالشعر فتكًا، ولكن الأمور المهمة التي تعرّض لها وطننا العربي بدأت

تعيـد للشعر رونقه وإشراقه، وبخاصة بعد الانتفاضة الفلسطينية المباركة، فقد أحدثت هذه الانتفاضة انتفاضة شعرية مقابلة، اشترك فيها أكثر شعراء العرب على اختلاف اتجاهاتهم وأقطارهم.

مدارسه واتجاهاته:

مر الشعـر الحديث والمعاصر في مخاضات عديـدة نتيجة لظروف لازمت الشعر، وأثرت فيه تأثيرًا كبيرًا، فبداية النهضة، والاتصال بالحضارة الغربية، وموجـة الاستعمار التي اكتسحت البـلاد العربية، وبخاصة بعـد سقوط الدولة العثمانيـة، وانتصـار الحلفاء في الحرب العالميـة الأولى، ووقوع كثير من أجزاء الوطـن العربـي فريسـة الاستعمـار البريطـاني والفرنسي والإيطـالي، وظهور حـركات التحرر الوطني، والجهـاد من أجل الحرية والاستقـلال، والدعوة إلى التعليـم، كلُّ ذلك أثر في اتجاهات الشعر، فظهرت آراء ومدارس تبين عن توجه الشعـر، ورؤية الشعراء لوظيفة الشعر، ولمـا كنا لا نريد التعمق في هذا الموضوع كونـه موضوعًا تخصصيًّا، فسنوجز الكلام في مدارس الشعر العربي في الشعر الحديـث والمعاصر إيجازًا يُلِـمُّ بها، وسنتناول هذه المدارس كالآتي: (المدرسة المحافظة، والمدرسة التأثرية، وتتضمن هذه المدرسة ما سمي بمدرسة: الديوان، وأبولو، والمهجر، والشعر الحر) .

المدرسـة المحافظـة: قـد تمثلت هـذه المدرسـة في شعراء الريـادة الذين انطلقوا في أشعارهم من خلال قيم الشعر القديم، متمثلين: أغراضه، وأشكاله، ومضامينه، ومنطلقين من رؤى نقاده في نظرتهم لجودة الشعر وجزالته، وقوته، فظهرت طرائقه، وأساليبه، وألفاظه ومعانيه واضحة بينة في أشعار شعراء هذه المدرسـة، ومن أعلام هذه المدرسة: محمود سامي البارودي، ومن جاء بعده من الشعراء الكبار، وهم أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران.

وكان إحيـاء القصيـدة العربية على يد محمود سامـي البارودي وناصيف اليازجـي لم يكن فقط دفع الدم في عروق الشعـر الباردة التي أصابها الجفاف نتيجـة ظـروف عديدة من التدهـور السياسـي والعلمي والاجتماعـي في العالم العربـي، ولكنـه كان يصب في نهضة الأمـة ولغتها، والوقـوف في وجه أعدائها، وغزوهـم الثقـافي، واستوى هذا الاتجاه على عوده على يـد أمير الشعراء أحمد شوقـي وحافظ إبراهيـم، وبشارة الخـوري «الأخطل الصغـير» ومحمد مهدي الجواهـري، وإبراهيـم طوقـان، وعبـد الرحيم محمـود، وغيرهم مـن شعراء المغرب والجزائر.

المدرسة التأثرية: وهي تلك الاتجاهات المتأثرة بالشعر الغربي ومدارسه، وقـد أُطلق عليها في وطننا العربي، مدارس: (الديوان، وأبولو، والمهجر، والشعر الحـر) والمدارس الثلاثة الأولى تكاد تتفق فيما بينهـا من حيث التوجه والرؤية للشعـر، وإن كانت مدرسة المهجر لها ميزة البعد والغربة، والاختلاف في البيئة. وسنقدم لكل واحدة منها بتعريف موجز:

أ. مدرسـة الديوان: كان ائتلاف مجموعة من الشعراء والكتاب الكبار في مصر نحو رؤية تجديدية للأدب ما جمعهم على تكوين اتجاه نقدي سمّوه بمدرسة الديوان، وتكوّنت هذه المدرسة من ثلاثة من كبار أدباء مصر، هم: عبد الرحمن شكـري، وعباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، واستطاعت هذه المدرسة بعطاءتها النقدية والإبداعية أن تثري الساحة الأدبية.

وقـد تأثرت هذه المدرسـة بالرومانسية الإنجليزية، وتطبعـت بطابعها، ومن أهم المؤثرات، موقفهم من جوهر الشعر الذي هو انعكاس لما في النفس من أحاسيس ومشاعـر، وموقفهم مـن تحديد وظيفة الشعـر وأهدافه التي تنبـع في الكشف عن

مظاهر الجمال في الوجود الإنساني إلى جانب توفير المتعة للقارئ، ووظيفته تتحدّد في الكشف عن الحقائق الطبيعية التي يقوم عليها نظام الحياة الإنسانية.

والتجديد في الشكل والمضمون في رأي مدرسة الديوان لا يعني الحديث عن الموضوعات العصرية، ولكن في الكيفية التي يتم بها الحديث.

ومن أهم رؤاهم النقدية الوحدة العضوية للقصيدة أي بناء القصيدة بناء هندسيًّا، فتكون القصيدة مثل الكائن العضوي في ترابط أعضائها، وكذلك القصيدة في ترابط أبياتها.

ب. **مدرسة أبولو:** كان مؤسس هذه المدرسة هو الدكتور أحمد زكي أبو شادي، وضمّت مجموعة من الأدباء، وأصدروا مجلة تحمل اسم أبولو، واختير أحمد شوقي رئيسًا لها، ثم أعقبه خليل مطران، ومن أعضائها إبراهيم ناجي، والغاياتي، والصيرفي والشايب، ومحمود حسن إسماعيل، والمهندس علي محمود طه.

وأهم ما دعت إليه هذه المدرسة هو:

- إظهار المواهب الفردية المتنوعة.
- الاعتداد بالطبيعة وظهورها في الشعر.
- لم تتبنَّ فكرة نقدية أو مذهبًا شعريًّا تتعصب له، وإنما دعت إلى كل المحاولات الشعرية والآراء التجديدية.

جـ. **مدرسة المهجر:** نعني بها مجموعة الشعراء الشاميين الذين هاجروا إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية، وكوَّن الشماليون مدرسة المهجر على يد أمين الريحاني، وسمّيت بالرابطة القلمية، ومن أعلامها: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي، ونسيب عريضة، ورشيد أيوب وغيرهم، وقد ظهرت دعوتها في الهجوم على شكل القصيدة العربية، والدعوة إلى شعر جديد

في: شكله، ومضمونه، ولغته، وأسلوبه.

أما مدرسة المهجر الجنوبي فظهرت عام ١٩٣٢م وسمّيت بالعصبة الأندلسية، وكانت أكثر محافظة من الرابطة القلمية، ومن أشهر أعضائها: رئيسها ميشال معلوف، وداود شكور، وحسني غراب، ويوسف غانم، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وشفيق المعلوف، وإلياس فرحان، وغيرهم.

د. **الشعر الحر**: الشكل التقليدي للقصيدة العربية الذي يتمثّل في وحدة الوزن والقافية، والبيت المستقل والمتحد في المعنى المقسوم إلى شطرين متساويين أي الصدر والعجز ظلَّ السمة الغالبة على الأسلوب الشعري المتبع عند شعراء العربية حتى نهاية الأربعينيات ومن القرن العشرين الميلادي.

ثمَّ بدأ اتجاه جديد في الشعر له رؤيته التي تنطلق من أنَّ القصيدة التقليدية تفرض على الشاعر أعباء ثقيلة في الوزن والقافية، كما أن القصيدة الملتزمة بوحدة البيت تفقد الوحدة العضوية، وبذلك تفقد تسلسلها، ومن هنا بدأ هذا الاتجاه بإدخال تجارب قائمة على محاكاة الشعر الغربي، وبخاصة الشعر الإنجليزي والفرنسي.

يقول س. موريه عن هذا الانقلاب الشعري[١]: (وتعد هذه الثورة أول ثورة من نوعها في تاريخ الشعر العربي، يبلغ فيها التأثير الأجنبي درجة تكاد تصل بالشعر العربي الحديث إلى حالة من الانفصال التام عن ميراثه التقليدي).

ومن الشعراء الذين ثاروا على القافية والوزن، وبدؤوا يكتبون شعرًا لا تنتظم فيه القافية، أو عدد التفعيلات: نقولا فياض، وأبو شادي، وباكثير، ونازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وتبعهم كثير.

(١) الشعر العربي الحديث: ص ١١.

نصوص في فن الشعر ونقده:

جاء الشعر يعرض رؤيته للشعر، كما في قول الشاعر[1]:

الشعرُ لبُّ المرءِ يعرضه ... وتراه مثل مواقع النَّبلِ
منه المقصِّر عن رميّته ... ونوافذٌ يذهبن بالخصْلِ

وقول الآخر في كيفية الحكم على الشعر[2]:

يا أبا جعفر، أتحكم في الشِّعـ ... ـر وما فيك آلةُ الحكّامِ
إنّ نقد الدينار إلاّ على الصَّيْـ ... ـرف صعبٌ فكيف نقدُ الكلامِ
قد رأيناك ليس تفرقُ في الأشـ ... ـعار بينَ الأرواحِ والأجسامِ

يقول ابن طباطبا في عيار الشعر[3]: الشعر - أسعدك الله - كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجَّته الأسماع، وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه. وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه. فمن تعصَّت عليه أداة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة.

---

(١) المصون في الأدب ٢/١.

(٢) المصدر نفسه ٢/١.

(٣) عيار الشعر ١/١.

فمنهـا: التوسـع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعـراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفـة بأيام النـاس وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهـم، والوقوف على مذاهـب العـرب في تأسيس الشعـر، والتصـرف في معانيـه، في كل فـن قالته العـرب فيـه؛ وسلوك مناهجهـا في صفاتهـا ومخاطباتها وحكاياتهـا وأمثالها، والسـنن المستدلة منها، وتعريضها، وإطنابها وتقصيرهـا، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلابتهـا، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيهـا وحسن مبانيها، وحلاوة مقاطعهـا، وإيفاء كل معنى حظه من العبـارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ، حتـى يبرز في أحسن زي وأبهى صـورة. واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة، والأوصـاف البعيدة، والعبـارات الغثة، حتى لا يكون متفاوتًـا مرقوعًا، بل يكون كالسبيكـة المفرغة، والوشي المنمنـم والعقد المنظم، واللباس الرائق، فتسابق معانيـه ألفاظه، فيلتذ الفهم بحسـن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيـه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبنـاء يتركب عليها ويعلو فوقها، فيكون مـا قبلها مسوقًـا إليها، ولا تكون مسوقة إليه، فتقلـق في مواضعها، ولا توافق ما يتصـل بها، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة، ولا متعبة، لطيفة الموالج، سهلة المخارج.

وجمـاع هـذه الأدوات كمال العقل الـذي به تتميز الأضـداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها.

وفي صناعة الشعر قال المُسيَّبُ بنُ عَلَس:

فَلأُهدِيَنّ مع الرِّياحِ قصيدةً ... مني مُغلْغَلَةً الى القَعْقاعِ

تـرِدُ الميـاهَ فلا تـزالُ غريبةً ... في القَـوْمِ بين تمثُّلٍ وسَماعِ

وقـد يَمتنع الشعر على قائلـه ولا يَسلس حتى يَبعثه خاطر يطربه، أو صوت حَمامة.

وقال الفرزدق: أنا أشعر الناس عند اليأس، وقد يأتي عليّ حين وقَلّع ضِرّس عندي أهون من قول بيت شِعر. وقال الراجز:

إنمـــا الشِّـعـر بـنـاءٌ ... يـبـتـنـيـه المُـبـتـنـونَـا
فـــإذا مـــا نـسـقـوه ... كـــان غَـثًّـا أو سـمـيـنـا
رُبمـــا واتـــاك حِـيـنـا ... ثـم يـسـتـصـعـب حِـيـنـا

وأسلس ما يكون الشعر في أول الليل قبل الكَرى، وأول النهار قبل الغداء، وعند مفاجأة النفس واجتماع الفكر. وأقوى ما يكون الشعر عندي على قَدر قُوة أسباب الرغبة أو الرهبة.

قيـل للخُريمـي: ما بـال مدائحك لمحمد بـن مَنصور بن زيـاد أحسنُ من مَراثيـك؟ قال: كُنـا حينئذ نعمل على الرجـاء، ونحن اليوم نَعمـل على الوفاء، وبينهما بَوْن بعيد.

والدليـل على صحة هذا المعنى وصِدْق هذا القياس، أنّ كُثيّرَ عزّة والكُميت ابـن زيد كانا شِيعيّين غاليين في التشيع، وكانـت مدائحهما في بني أمية أشرفَ وأجود منها في بني هاشم، وما لذلك علّة إلا قوة أسباب الطمع.

وقيـل لكُثير عزّة: يـا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسـر عليك الشعر؟ قال: أَطـوف في الرّباع المُحيلـة، والرِّياض المُعشبة، فإن نفرت عنـك القوافي، وأعيت عليـك المعـاني، فروّح قلبـك، وأجمّ ذهنـك، وارتصد لقولك فـراغَ بالك وسعة ذِهنك فإنك تجد في تلك الساعة ما يَمتنع عليك يومَك الأطول، وليلك الأجمع.

وجاء في العمدة [1]:

(وأنشد رجل قومًا شعرًا فاستغربوه، فقال: والله ما هو بغريب، ولكنكم في الأدب غرباء.

وعن غيره: أن رجلاً قال للطائي في مجلس حفل وأراد تبكيته لما أنشد: يا أبا تمام، لم لا تقول من الشعر ما يفهم؟ فقال له: وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يقال؟! ففضحه».

وجاء في القافية قول ابن رشيق [2]: (القافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرًا حتى يكون له وزن وقافية، هذا على رأي من رأى أن الشعر ما جاوز بيتًا واتفقت أوزانه وقوافيه ويستدل بأن المصرع أدخل في الشعر، وأقوى من غيره، وأما ما قد أراه فقد قدمته في باب الأوزان.

واختلف الناس في القافية ما هي؟ فقال الخليل: القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، والقافية على هذا المذهب، وهو الصحيح تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، ومرة كلمتين، كقول امرئ القيس:

كجلمود صخر حطه السيل من علِ

وأنشد بعض العلماء ولم يذكر قائله:

الشعراء فاعلمن أربعه ... فشاعر لا يرتجى لمنفعه

وشاعر ينشط وسط المعمعه ... وشاعر آخر لا يجري معه

وشاعر يقال: خمر في دعه

---

(١) العمدة ١/٤٢.

(٢) العمدة ١/٤٨.

وهكذا رويتها عن أبي محمد عبد العزيز بن أبي سهل -رحمه الله- وبعض الناس يرويها على خلاف هذا.

وقد قيل: لا يزال المرء مستورًا وفي مندوحة ما لم يصنع شعرًا أو يؤلف كتابًا؛ لأن شعره ترجمان علمه، وتأليفه عنوان عقله.

وقال الجاحظ: من صنع شعرًا أو وضع كتابًا فقد استهدف؛ فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف.

قال حسان بن ثابت، وما أدراك ما هو؟:

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته: صدقا

وإنما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس إن كيسًا وإن حمقا

وقال محمد بن مناذر، وكان إمامًا:

لا تقل شعرًا ولا تهمم به ... وإذا ما قلت شعرًا فأجد

وقال شيطان الشعراء دعبل بن علي:

سأقضي ببيت يحمد الناس أمره ... ويكثر من أهل الروايات حامله

يموت ردي الشعر من قبل أهله ... وجيده يبقى وإن مات قائله

وقالوا في قدرة الشعراء وتصنيفهم [1]:

(الشعراء أربعة: شاعر خنذيذ، وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره، وسئل رؤبة عن الفحولة، قال: هم الرواة؛ وشاعر مفلق، وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجود كالخنذيذ في شعره؛ وشاعر فقط، وهو فوق الرديء بدرجة؛ وشعرور، وهو لا شيء. قال بعض الشعراء لآخر هجاه:

---

(١) العمدة ١ / ٣٤- ٣٥.

يا رابع الشعراء، كيف هجوتني وزعمت أني مفحم لا أنطق

وقيل: بل هم شاعر مفلق، وشاعر مطلق، وشويعر، وشعرور، والمفلق: هو الذي يأتي في شعره بالفلق، وهو العجب، وقيل: الفلق الداهية قال الأصمعي: فالشويعر مثل محمد بن حمران بن أبي حمران، سماه بذلك امرؤ القيس، ومثل عبد العزى المعروف بالشويعر، وهو الذي يقول:

فنلت به ثأري، وأدركت ثورتي إذا ما تناسى ذحله كل غيهب

وهو الضعيف عن طلب ثأره، وروى بالغين معجمة وبالعين غير معجمة.

قال الجاحظ: والشويعر أيضًا صفوان بن عبد ياليل من بني سعد بن ليث، وقيل: اسمه ربيعة بن عثمان، وهو القائل:

وأفلتنا أبو ليلى طفيل صحيح الجلد من أثر السلاح

وقال بعضهم: شاعر، وشويعر، وشعرور.

وقال العبدي في شاعر يدعى المفوف من بني ضبة، ثم من بني حميس:

ألا تنهى سراة بني خميسٍ شويعرها فويلية الأفاعي

فسماه شويعرًا، وفالية الأفاعي: دويبة فوق الخنفساء، فصغرها أيضًا؛ تحقيرًا له وزعم الحاتمي أن النابغة سئل: من أشعر الناس؟ فقال: من استجيد جيده، وأضحك رديئه، وهذا كلام يستحيل مثله عن النابغة؛ لأنه إذا أضحك رديئه كان من سفلة الشعراء، إلا أن يكون ذلك في الهجاء خاصة، وقال الحطيئة:

الشعر صعب وطويل سلمه والشعر لا يسطيعه من يظلمه
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه زلَّت به إلى الحضيض قدمه
يريد أن يعربه فيعجمه

وإنما سمي الشاعر شاعرًا؛ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر؛ كان اسم الشاعر عليه مجازًا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير.

وقال بعضهم: الشعر شعران: جيد محكك، ورديء مضحك، ولا شيء أثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط.

وقد قال ابن الرومي يهجو ابن طيفور:

عدمتك يا ابن أبي الطاهر، وأطعمت ثكلك من شاعر
فما أنت سخن ولا بارد وما بين ذين سوى الفاتر
وأنت كذاك تغثي النفو س تغثية الفاتر الخاثر

وقد يجوز أن يكون النابغة أشار فيما حكى عنه الحاتمي من الرديء المضحك إلى هذا النحو.

وقيل: عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، ويقال: إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم، وأتعب أصحابه قلبًا من عرفه حق معرفته، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما أشبه ذلك ولو كان دونهم بدرجات، وكيف إن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب؟ وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر في حلبة هذه الصناعة، أعني النقد ولا يشقون له غبارًا؛ لنفاذه فيها؛ وحذقه بها، وإجادته لها وقد يميز الشعر من لا يقوله، كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه، والصيرفي يخبر من الدنانير ما لم يسبكه ولا ضربه، حتى إنه ليعرف مقدار ما فيه من الغش وغيره فينقص قيمته.

وحكـي أن رجلاً قال لخلف الأحمر: مـا أبالي إذا سمعت شعرًا استحسنته مـا قلت أنت وأصحابك فيـه!! فقال له: إذا أخذت درهمًـا تستحسنه، وقال لك الصيرفي إنه رديء هل ينفعك استحسانك إياه؟.

وقيـل للمفضل الضبي: لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به؟ قال: علمي به هو الذي يمنعني من قوله، وأنشد:

وقد يقرض الشعر البكي لسانه وتعيي القوافي المرء وهو لبيب

قيل: ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الرشيد فقال: كيف حالك؟ فقال:

سوامي سوام المكثرين تجملا ومـالي كما قد تعلمين قليل
وآمرةٍ بالبخل قلت لها: اقصري فذلك شيءٌ ما إليه سبيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جميل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليل

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذي صحّت معانيه وقويت أركانه ولذّ على أفواه القائلين وأسماع السامعين، يا غلام، احمل إليه خمسين ألف درهم.

نماذج شعرية:

١- نموذج من الشعر القديم:

ومن المنظوم المطمع الممتنع قول البحتري في مدح الخليفة العباسي المتوكل على الله [1]:

أيها العاتبُ الذي ليسَ يرضى نم هنيئًا فلستُ أطعم غمضًا
إنَّ لي من هواكَ وجدًا قد استهـ ـلكَ نومي ومضجعًا قد أقضًا

(١) ديوان البحتري ٢ / ١٢١٤ وكتاب الصناعتين ٢٢/١

فجفوني في عبرةٍ ليسَ ترقَا ... وفؤادي في لوعةٍ ما تقضَّى
يا قليلَ الإنصافِ، كم أقتضى عن ... دكَ وعدًا إنجازُهُ ليسَ يقضَى
فأجزني بالوصلِ إن كان جودًا ... وأثبني بالحبِّ إن كان قرضًا
بأبي شادنٌ تعلَّقَ قلبي ... بجفونٍ فواتر اللّحظِ مرضَى
لست أنساهُ إذْ بدا منْ قريبٍ ... يتثنَّى تثنِّيَ الغصنِ غضًّا
واعتذاري إليه حين تجافى ... ليَ عنْ بعض ما أتيتُ وأغضى
واعتلاقي تفَّاحَ خدَّيْه تقبيـ ... ـلاً ولثمًا طورًا وشمًّا وعضًّا
أيُّها الرَّاغبُ الذي طلبَ الجو ... دَ فأبلَى كوم المطايَا وأنضَى
ردْ حياضَ الإمامِ تلقَ نوالاً ... يسعُ الرَّاغبين طولاً وعرضا
فهناك العطاءُ جزلاً لمن را ... مَ جزيلَ العطاءِ والجود محضا
هو أندَى من الغمامِ وأوحَى ... وقعاتٍ من الحسامِ وأمضَى
يتوخَّ الإحسانَ قولاً وفعلاً ... ويطيعُ الإلهَ بسطًا وقبضَا
فضَّل اللهُ جعفرًا بخلالٍ ... جعلتْ حبَّهُ على النَّاسِ فرضَا

الحبيبة الأندلس

شعر الدكتور/ عبدالرزاق حسين

لأندلسٍ أغنّي أُغنياتي ... وأُنشدُها أرقَّ مُنَمْنماتي
وأُهدي الشعرَ عِقدًا منْ سناها ... تلألأَ نورُهُ في السّاطعاتِ
تحدَّرَ كالجمانِ مِنِ الثنايا ... ثناياكِ العِذابِ الفاتناتِ
فيقطر في فمي ماءَ زُلالاً ... لترشفَهُ شِفاهُ معلّقاتي
إلى جيدِ الحبيبةِ عِقدُ دُرّي ... يُصاغُ لها بِوَشْيٍ مُسمّطاتي
أُعلّقُهُ على صدرٍ ونهدٍ ... تميمةَ عائذٍ خوفَ الأذاةِ
وأنثُرُ فُلَّ منثوري عليها ... وأزهارَ المعاني المونقاتِ
أريجَ قصائدي وشذى خطابي ... وماءَ الوردِ سُكَّرَ مفرداتي
وأسكبُ نشوتي في كأسِ وجدي ... وأشربُ باللّمى صفوَ الحياةِ
على شطآنكِ استلقى فؤادي ... وفي الأهدابِ تغفو أمنياتي
أتاكِ العاشقُ الولهانُ يحدو ... جِمالاً بالحنينِ مُحمّلاتِ
تسربلَ ليلَهُ ترتيلَ وِرْدٍ ... وأبحرَ في الدّعاءِ وفي الصلاةِ
مرافئُكِ الدفيئةُ حدُّ ركضي ... ونيلُ رِضاكِ حدُّ تطلّعاتي
لأجلكِ قد ركبتُ الصعبَ مهرًا ... وخارطتي هواكِ وبوصلاتي
عبرتُ إليكِ من شوقي زمانًا ... يُعدُّ منَ البحورِ المظلماتِ
فكانَ شذاكِ مِجْدافي وريحي ... ومرساتي عيونُكِ للنجاةِ

الفصل الثاني

الفنون النثرية

١ـ أهميتها التوصيلية.

٢ـ غاياتهـا: (غايـة تعليمية، وغاية خلقيـة تهذيبية، وغايـة جمالية فنية، وغاية اجتماعية).

٣ـ أنواعها: (المقال والقصة والرواية والمسرحية).

أهميتها التوصيلية:

الأثـر الفعّال الذي تتركـه الكلمة في النفس، يجعلها أسيرتـه، فالكلمة تأخذ بمجامع النفس، وتسيرها منقادةً لهذا التأثير، ولشدة هذا التأثير قال الرسول ﷺ: «**إنَّ من البيان لسحرًا** [1]».

فالكلمة الفنية الأدبية المبدعة في عالم الصورة والجمال يكاد فعلها يقارب فعل السحر ويدانيه، فهي تسحر النفوس، فتسلس لها قيادها، وتنقاد لأمرها ونهيها.

والاتصـال عـبر الزمن كان من خـلال الكلمة، وتبدو الأهميـة التوصيلية للكلمـة الأدبيـة من خـلال تاريخ طويـل استخدمت فيه هذه الفنـون في إيصال فكرتهـا وهدفها إلى الآخرين. فتعبر الزمان والمـكان ليمتد تأثيرها ويصل إلى كل قطاعـات المجتمـع، ومع تطـور أساليب الاتصـال وأشكاله مـن خلال ثورة الاتصـالات الحديثة، سهـل عليها الذيوع والانتشـار، وبدأ التسابـق على أشدِّه بـين هذه الوسائـل للوصول والتأثـير، وكان استخـدام الفنـون النثرية يتعاقب في الأولويـة، فبينما مـرت مرحلة كانت فيها المقالة هـي الوسيلة الأسرع وصولاً وتوصيـلاً نتيجة كونها تُقدَّمُ من خـلال وعاءٍ ميسّر، وسهل الوصول إلى القارئ عبر صحيفة أو مجلة، يستطيع الاطلاع عليها في أي وقت يشاء، وفي أي مكان.

تقدّمت بعد ذلك القصة للتصدَّر من خلال وسائل أكثر وصولاً، وبخاصة الإذاعـة والتلفـاز، والسينمـا لتصل إلى المجتمـع بكل فئاتـه، ويتابعها الصغير والكبـير، لأنها كانـت أقوى تأثيرًا في جرعتهـا التوصيلية، حيـث تأتينا في عقر دارنـا، تؤنسنـا وتسلينا، وتحزننـا وتواسينـا، وتعرض لنا الماضي بـكل روعته، والحاضر بكل واقعيته، والمستقبل بكل أحلامه وأمانيه وطموحاته.

---

(١) صحيح البخاري رقم ٥١٤٦ وسنن أبي داود رقم ٥٠٠٩.

ومن هنا كان اهتمام الأمم بآدابها كونها أهم وسيلة توصيلية للآتي:

- التأثير الوجداني.
- الإقناع بوجهة النظر.
- القدرة على التغيير.
- التسلية والتخدير.
- بث روح التضحية والفداء.

تصوير الذات بهمومها وأحوالها، وآمالها وآلامها، والمجتمع بظروفه وأحواله، والحياة بحلوها ومرها.

غاياتها:

للفنون النثرية غايات قريبة وبعيدة، وهي غايات متعددة، قد تجتمع كلها، وقد تقف عند غاية بعينها، ومن هذه الغايات: غاية تعليمية، وغاية خلقية تهذيبية، وغاية اجتماعية، وغاية جمالية فنية.

الغاية التعليمية:

ولقد استخدمت الفنون النثرية من القديم لغايات تعليمية، حيث يبنى الأثر الفني على أساس تعليمي، غايته إيصال المعلومة إلى المتلقي، فيحصل منها علمًا، أو تضيف إليه تجربة جديدة، كما نجد في بعض مؤلفات الجاحظ، وكتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع، وكثير من المنظومات النحوية والفقهية، والأراجيز في: التاريخ، والجغرافيا، والطب، والفلك، والعلوم المختلفة.

الغاية الخلقية:

تتبع تلك الغاية الغاية الخلقية التهذيبية التي يسعى من خلالها أصحاب هذه الفنون لتكريس الأخلاق النافعة، وغرس القيم الصالحة في النفوس، والقصص القرآني، وقصص الحديث الشريف، وما ورد من حكايات الأمثال؛ ليبين عن هذه الغاية السامية.

الغاية الاجتماعية:

معالجة الأحداث الاجتماعية، من: قضايا الأسرة والمجتمع ، والعمل وشؤون الحياة من زواج وطلاق، وإرث، ووظائف، وعلاقات اجتماعية من تواصل وبر وعقوق، إلى آخر ما في جعبة المجتمع من حوادث، وتصوير هذه الأحداث عن طريق الفنون الأدبية من الغايات التي تعد أساسية في الفنون النثرية؛ لأنَّ أعظم الكتاب إنما يستقون أحداثهم من الوقائع التي يعيشونها، ومن الحياة التي يحيونها، ومن خلال معرفتهم بوقائع المجتمعات والحياة.

الغاية الجمالية:

الفنون الأدبية لا تقدم بذهنية مجردة، أو سطحية خاوية، بل تعتمد الجمال الفني، والتصوير البياني، بحيث ينتقل الحدث بأسلوب جذاب يرتقي بذائقة القارئ، وإن كانت هذه الفنون تختلف في الاعتماد على التصوير والخيال، فالشعر غير القصة، غير المقالة، ولكنها في النهاية تلتقي عند هذه الغاية التي تسعى إلى الإحساس بالجمال، والتأثير في النفس، إلى جانب الإمتاع والإقناع، إذ **(إنَّ لصاحب الحق مقالاً)**[1].

(١) صحيح البخاري باب ١٣ ج٣ ص٨٥.

أولاً ـ المقالة: (تاريخها، وعناصرها، وأنواعها، ونماذج عليها)

أولاً: المقالة:

اختلف نقاد الأدب ومؤرخوه حول قدم هذا الفن أو حداثته، فالذين قالوا بقدمه، استدلوا على رأيهم بكتابات ابن المقفع، ورسائل أبي حيان التوحيدي، والجاحظ، والمعري، وابن حزم، وغيرهم.

أما من قال بحداثتها فيرى أن هذا الفن قد ظهر مع ظهور الصحافة في مصر والشام؛ للتعبير عن الحاجات والقضايا: الأدبية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، إلى غير ذلك، ويؤكدون أن بداياتها كانت متأثرة بفن المقال عند الغربيين، بل وينكرون جذورها العربية التراثية.

ولسنا بصدد الحديث عن حداثتها أو قدمها، مع ميلنا إلى وجود جذورها التاريخية، وسنورد نموذجًا يؤكد رأينا، ومع ذلك فقد أفضنا في الحديث عن هذه القضية في كتابنا (فن النثر المتجدد).

والمقالة فن نثري له أهميته من حيث التأثير في المستقبِل، وتحويل اتجاهه، أو تعديل رأيه، كما أنّ أهميتها تظهر من خلال معالجة القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، والتنبيه عليها، وتحليلها ومعرفة دوافعها وأهدافها، وتبيان نتائجها، كما أنها أسلوب من أساليب التعبير الذاتي، كلون من ألوان الإبداع الأدبي المعبِّر عن الناس من خلال عرض قضاياهم وحاجاتهم، وما يتصل بشؤونهم وميولهم وأفكارهم، ثم هي وسيلة لحرية الرأي، والاستقلالية في الرؤية والفكر.

عناصر المقالة:

المقالــة فن أدبــي يعتمد الإيجــاز، فالاستطــراد والتطول فيها يــكاد يلغي الانجــذاب لقراءتهــا، وقد اتفق الأدباء وكتــاب المقالة علــى أن المقالة يجب أن تتسم بعناصر مكونة لها، تكمن في الآتي:

الفكــرة: إنَّ الوصول إلى فكرة ذات قيمة وأهمية عند الكاتب وعند القراء لهــي أساســ الكتابة المقاليــة، وكلما كانت هــذه الفكرة مهمــة، فإنها تستقطب العديد من القراء.

العرض: لا يعنــي الوصــول إلى الفكــرة النجــاح في الوصول إلى قلــوب القراء وعقولهم، فعرض هذه الفكرة من خلال القدرة على الإقناع بالأدلة الأكيدة، والشواهد الثابتة، واستخدام الأسلوب الفني المعبر عن الصورة والعاطفة في آن واحد، مع مراعاة التسلسل في عرض الفكرة، والحرص على التشويق في المقدمة والعرض.

الخاتمــة: مســك الموضوع يظهر في خاتمته، بحيــث تنطبع المقالة في عقل القارئ، ويبقى أثرها، وذلك لأسلوب القفل الجميل، والتركيز على أهم النقاط الواردة في المقالة، مع استخدام عبارات توحي بالخاتمة، وتوصل إليها.

أنواع المقالة:

تتعــدَّد أنواع المقالة بتعدد قضايا الحياة، ومــن هنا، فإنَّ جملة أنواعها قد أوردناها في كتابنا (الكتابة بين الموضوع والفن[1]).

ونوردها هنا، وهي:

أولاً: المقال الذاتي:

يندرج ضمنه: الشخصي، والوصفي، والتأملي، وفيه يخاطب العقل والعاطفة والقلب، فهو تعبير عــن المشاعر والوجدان، يُصاغ بأسلوب يخضع للجمال الفني،

(١) ص ١٥٢- ١٥٤.

والتصوير البلاغي، ويقوم على الإيقاع المبني على مواءمة الحروف، والتقسيم والازدواج، والتضاد، وتشيع فيه المعاني الخلابة، والألفاظ الموحية.

وتتضح صفات المقال الذاتي في الآتي:

١- وضوح الذاتية، بحيث تبدو شخصية الكاتب واضحة، وكأننا نرى صورته من خلالها.

٢- يخاطب القلب والعاطفة والوجدان.

٣- يخضع أسلوبه للجمال الفني، ومستلزمات الكتابة الأدبية المتميزة بكل عناصرها الجمالية.

ثانيًا. الموضوعي:

وهذا المقال يخاطب الفكر والعقل، بأسلوب منهجي يعتمد المنطق والأدلة، والمناقشة والتحليل، وإذا كان المقال الذاتي يعبّر عن شخصية الكاتب، وأفكاره، وعواطفه، ونوازعه، وتظهر لنا صورته واضحة جلية، فإنَّ شخصية الكاتب وصورته في المقال الموضوعي لا تكاد تبين، أو تظهر إلّا لمامًا، إنّها تبدو كنقطة بعيدة، لا تكاد تبدو ملامحها، وذلك راجع إلى أنَّ الكاتب الموضوعي يتوخّى في مقاله:

١- الالتزام بالموضوعية والحياد، حيث ينطلق من خلال مناهج وقواعد ملزمة، ومقنعة في ذات الوقت، فلا مجال لعواطف شخصية، أو آراء ذاتية، أو التحليق على أجنحة الخيال.

٢- الأرضية التي يسير عليها الكاتب هي أرضية الأدلة والشواهد المقنعة، والإثباتات الأكيدة.

٣- الحرص على جمع المادة من مصادرها، وعدم الاعتماد على الظن والتخمين والشائعات، فالحقائق هي التي تتكلّم في المقال الموضوعي.

وأشكاله (النقدي، والفكري، والاجتماعي، والعلمي).

ويتـوزّع المقـال الموضوعـي، ويتعـدَّد بتعـدّد موضوعـات الحيـاة، ويتسـع باتسـاع أشكالها وفروعها، فقد نكتب مقـالات في: النقد، والسياسة والاجتماع، والاقتصاد، والفـن، والرياضة، والفلسفة، والعلم بأنواعـه البحتة والتطبيقية، ولكننـا سنقتصـر علـى أربعة أنواع، يدخـل ضمنها ما نريد من فـروع المعرفة، وجوانب الحياة، وهي:

أولًا: المقـال الأدبـي والنقـدي وموضـوعه الأدب بنوعيه الشـعر والنثر، ومـا يُكتب حولهما من مقالات في تاريخهمـا وتطورهما، وعصورهما، والمؤلفات والمؤلفـين، ومـا يدور حولهما من نقد ضمن الأصـول المعتمدة في النقد، وهذا لا يعني بـأي حال من الأحوال أن المقالة الأدبيـة أو النقدية صارمة باتباع الأوامر والتعليمـات، وأنها تسير ضمـن أطر منهجية، وضوابط علميـة، وأسس نقدية، فالمقالـة من هـذا النوع تجمع إلى جانـب ذلك: رؤية الكاتـب، وثقافته، وذوقه، وإشـراق أسلوبـه، وجمال بيانه، حتى عدّها بعض الكتـاب إبداعًا جديدًا يوازي الإبداع المدروس من شعر أو نثر.

ثانيًا: المقـال الفكـري: يتسـع هـذا اللون للجوانـب الفلسفيـة والتأملية، وجوانب الفكر المختلفة.

ثالثًا: المقـال الاجتماعـي: يتنـاول هذا الشـكل كلَّ العلـوم الاجتماعية، مـن: تاريخ، وجغرافيا، وعلم اجتماع، وسياسـة، واقتصاد، وما يتعلّق بالقضايا والحـوادث الاجتماعيـة علـى الصعيـد الأسـري والشعبـي، وما يمسّ الأفراد والمجتمع، كقضايا الـزواج والطلاق، والفقر والغنى، والغلاء والكساد، والعمالة والبطالـة... إلـخ بشـرط أن تكتـب كتابة أدبية راقيـة، وأن تلتـزم بمواصفات الصياغة الفنية؛ كي تدخل في اسم الأدب.

رابعًا. المقال العلمي: هو المقال الملتزم بقضايا العلم وظواهره،وتطوّره، وابتكاراته، وجديده، وتقدمه في الصناعة والطب والفلك والهندسة، ومن أهم ما يكتب من مقالات بهذا الصدد مقالات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وفيها يظهر موافقة المخترعات والمكتشفات العلمية الحديثة لما جاء به القرآن الكريم.

ما يراعيه كاتب المقال:

١- التمكّن من اللغة.
٢- العودة إلى المصادر؛ للتأكد من صحة معلوماته.
٣- الجودة في عرض الفكرة، من خلال التعليل والتحليل.
٤- تعضيد المقال بالشواهد والأدلة الثبوتية.
٥- حسن اختيار العنوان.

نماذج مقالية:

١- نموذج مقالي من الأدب القديم: (صفة الإمام العادل)

جاء في العقد الفريد في صفة الإمام العادل [١]:

كتب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله:

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا؛ يكتسب لهم في حياته،

(١) العقد الفريد ٩/١.

ويدخـر لهم بعد مماته. والإمـام العدل يا أمير المؤمنـين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونـه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيتـه، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين، وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهـم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين، كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحـه، وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمـير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهـم. فلا تكن يا أمـير المؤمنين، فيما ملكك الله ﷻ كعبـد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلـم يـا أمير المؤمنـين، أن الله أنزل الحـدود ليزجر بهـا عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاهـا من يليها ! وأن الله أنـزل القصاص حياة لعباده، فكيـف إذا قتلهـم من يقتص لهم ! واذكر يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

٢ـ نموذج معاصر: (سياسة طرف اللسان)

بقلم الدكتور / عبدالرزاق حسين

لم نـزل إلى يومنـا هذا نُخدعُ بحـلاوة سياسة طرف اللسـان التي يزاولها الغرب القوي معنا، ونقصد الاستعمار القديم سابقًا، ولاحقًا الاستعمار المعاصر، وكلاهمـا استخراب يبدي نواجذه لغير تبسم، ويلعب لعبته المفضلة التي يمارسها معنا بـكل إتقان، ويكررها بكل ثقة في النجاح، ودليلـه على نجاحها أنها تؤتي أُكلها معنا كل حين، ولذا غدت منهجًا دبلوماسيًّا يدرَّسُ ويورَّثُ لأجيالهم السياسية، لتصبـح علامـة فارقـة أو بـارزة أو مسجلة، وأسلوبًـا ذكيًّا ـ على طريقـة القنابل الذكيـة التي يتـم إهداؤها لأسرنا في فلسطـين والعراق وأفغانستـان بمناسبة الأعياد ـ

وبما أننا نتقبل بكل الاسترخاء هذه الأوهام والأحلام التي نراها في كل مرة أقرب من حبل الوريد، ويُنفثُ في روعنا أننا أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق بعض أحلامنا، فإنَّه يستمرئُ اللعب معنا بطريقته هذه التي تجوز علينا في كل مرة.

ألم يستخدم السير هنري مكماهون كل الكلام العذب مع الشريف حسين، فيرفعه إلى أعلى عليين، ويزين له الدولة العربية القادمة التي تضم كل أجزاء البلاد والعباد؟

وفي كتاب أرسله له في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ يتضمن وعدًا لشريف مكة بالاعتراف باستقلال العرب ضمن البلاد التي اقترحها الشريف.

وفي السر يبرونا بري القلم، فتعقد مؤامرات (سان ريمو) واتفاقية (سايكس بيكو) وتكلّل جميعها بوعد (بلفور).

ألم تستخدم بريطانيا الكتاب الأبيض لتهدئة العرب قبل الحرب العالمية الثانية؟ وتضع فيه البنود المطمئنة من أجل إسكاتنا ونيل رضائنا، فمنعت هجرة اليهود ووعدت بحفظ حقوق جميع سكان فلسطين المدنية والدينية بغض النظر عن الجنس والدين، وأعلنت في هذا الكتاب الأسود تطمينات عديدة، من ذلك قولها: (أما مخاوف العرب فبعضها مبني على تفاسير مبالغ فيها لمعنى التصريح الذي أُعطي بالنيابة عن حكومة جلالته في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ والذي يحبذ إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

ذلك لأنه نشرت بيانات غير رسمية بأن الغاية المنشودة هي جعل فلسطين يهودية برمتها، واستعملت عبارات قيل فيها: إن فلسطين ستصبح يهودية، كما أن إنكلترا إنكليزية. فحكومة جلالته تعتبر هذه الآمال غير قابلة للتحقيق، وتعلن أنها لا ترمي إلى مثل هذه الغاية، وأنها لم تفكر قط في إخضاع أو محو السكان العرب، أو القضاء على لغتهم وآدابهم في فلسطين، كما يتخوف الوفد العربي).

الأسلـوب نفســه، وحلاوة طـرف اللسان ذاتهـا التي نسمعهـا كلما حاس الحيس، ألم تصنـع السياسة الأمريكية ما صنعته السياسة البريطانية؟ فكانت سياســة طرف اللسان ووعود الحلاوة في أعلى تركيز سكَّريتها في بداية الحرب المسمــاة بحـرب الخليج الثانية، بـدءًا بمؤتمر مدريد ومـرورًا بورقة الضمانات الأمريكيــة التــي أخذهــا الرئيس بوش الأب علــى نفسه عــام ١٩٩١م، وانتهاءً بالحرب الأمريكية العراقية أو ما سمي بحرب الخليج الثالثة، ووعود بوش الابن، وخارطة الطريق التي درست معالمها وجلسنا نبكي على أطلالها.

كنــت أستمع إلى اللقاء الذي أجرته إحـدى الفضائيات مع محمود عباس بالعربي (أبو مازن) الذي اعترف أنه صحا من سكر الثقة بأمريكا بعد وعد بوش الأخـير لشارون، والذي جاد فيه عليه بأموالنا وديارنــا، وحلّل له سفك دمائنا، وقضى أمرنا دون أن نشهده، وكأنه قرأ قول شاعرنا العربي:

ويُقضى الأمرُ حين تغيبُ تيمٌ ولا يُســتأذنون وهم شــهودُ

وقال رئيــس الوزراء الفلسطينــي السابق: إنه لم يعــد للسياسة الأمريكية مصداقية.

صــح النوم يــا سيادة الرئيــس، ولا أدري كم هو الوقت الــذي نحتاج فيه إلى النــوم علــى أبواب سياسة أطراف اللسان لنصحــوَ على أنَّ مصداقية آلاف الصفحــات اللاتي وزنهــا أبو عمار بيديه بعد اتفاقيــة أوسلو، وضمنها عشرات الخطابــات التطمينية الأمريكية قد أصبحت هباءً منثورًا أمام إغراءات كرسي البيت الأبيض.

هل حقًّا يقرأ سياسيونا التاريخ؟ كم من مرة لُدغنا من جحر الأفعى، ومع ذلــك نعود في كلِّ مــرة، ونحن نمنّي أنفسنا بعــد كلِّ عودة بالقــول المأثور: ربَّما يصدق الكذوب.

القصة: (تاريخها، وأنواعها، وخصائص بنائها، ونموذج عليها)

ثانيًا: القصة:

تاريخها:

يتقدَّمُ فنٌّ أدبيٌّ على سواه في عصر من العصور، كونه الأكثر ملاءمةً، والأشدُّ تأثيرًا، أو الأيسر استخدامًا، والأسهلُ وصولاً، أو الأفضلُ عرضًا، والأقربُ تناولاً، أو لكونه مناسبًا لأدوات العصر ومتطلباته.

كان الشعر مقدَّمًا حيث الرواية والحافظة تنقله، ويُتناشدُ به في المحافل، ويُتفاخرُ به في المجالس والندوات، ثمَّ تصدَّرت الخطابةُ، فالرسالةُ، فالمقامةُ.

وفي العصر الحديث أصبحت القصة - بأنواعها المتعددة، ومستوياتها المختلفة، واتجاهاتها التي تستوعب اتجاهات الناس، وقوالبها وطرائقها وأساليبها المتنوعة - تتقدَّمُ الأنواع الأدبية؛ لما لها من تأثير في النفوس، ومن قدرة على تكوين الاتجاهات، والتعبير عن الأماني والتطلعات، وتصوير الزمان والمكان والأحداث والشخصيات بما يلائم العصر.

فأقبل الكتاب على القصة يضعون فيها مُثُلَهُم، ويصبّونَ فيها آراءهم واتجاهاتهم، وغدت ساحةً لتصوير الأفكار، والقيم والمبادئ، والأحداث الجسام، مما ربط القارئ بها ربطًا محكمًا، فغدا أسير قراءتها، والاطلاع عليها، وجاء إخراجها في صورة مُمثَّلةً مُجسَّدةً؛ ليزيد من حرارة الاتصال بها، ويقوِّي علاقة القُرَّاءِ بهذا الفن الذي غدا سوقًا رائجًا، فنجاح القصة لا يعني شهرتها أو شهرة كاتبها، وإنَّما يعني إخراجها إلى حيز التجسيد لتعبِّر بلسان شخصياتها وأحداثها حقيقةً لا خيال كاتبٍ، أو تصوُّرَ قارئ، ولتصبح ميدانًا لأفواج من العاملين من خلالها.

و(لا يختلف اثنان في أنَّ القصة في عصرنا الحديث، أصبحت من ذوات الشأن في الميدان الأدبي، فقد تصدَّرت الموضوع الثقافي، وغدت مؤهّلة لحمل أفكار لا حصر لها، ومعالجة مشكلات إنسانية عديدة.

ولكونها تُقرأ في كتاب، أو تُسمع من خلال المذياع، أو تُشاهد على شاشات الفضائيات، ولأنها ترتبط بعواطف الناس ومشاعرهم، وتتحدَّث عن قيمهم وتاريخهم وأمجادهم، وتُصوِّر آمالهم وآلامهم، وتبين عن الواقع في قضاياه السياسية والاجتماعية، لكل هذا التأثير البيّن أصبحت القصة من الوسائل المهمة في توصيل الآراء، وتصدير الأفكار، وزرع الثقافات، وتغيير الاتجاهات والقناعات.

بل غدت سلاحًا حادًّا تواجه بها المجموعات المتنافسة منافسيها وأعداءها، وتبدو قدرتها في هذا الحشد الضخم من القصص والمسلسلات التي بدأت تغزو جوانب العالم في مهمة قولبة هذا العالم وعولمته ضمن رؤية ثقافية، أو خطة مبرمجة لإقناع الآخر، والسيطرة على فكره، وأصبحت القوة الإعلامية المسيطرة تفرض مادتها فرضًا[1]).

أنواع القصة:

يتفق كثير من المعنيين بالشأن القصصي على أن القصة تتمثل في أشكال ثلاثة، هي: القصة القصيرة، والقصة، والرواية.

ولعل الاسمين الأول والثالث، أعني القصة القصيرة، والرواية أصبحا أكثر إطلاقًا، وسيكون حديثنا مقتصرًا على هذين النوعين؛ لكثرة تردد استخدامهما، ولكونهما أصبحا علمين على ما ينتجه الكُتّاب من قصص.

---

(١) انظر كتابنا (الكتابة بين الموضوع والفن: ص ١٦١- ١٦٨).

فالقصة القصيرة هي تلك القصة التي لا يزيد حجمها عن بضع صفحات، والروايـة مـا زاد على ذلك في حجميـه المتوسط والطويل، فكل مـا عدا القصة القصيرة غدا داخلاً في ميدان الرواية من حيث التسمية.

ولا يعنينا كثرة الأسماء التي نسمعها من: (قصة قصيرة، أو قصيرة جدًّا، أو أقصوصة، وقصة، ورواية) بمقدار ما يعنينا الجانب الفني، إذ لا يقف الطول وحده سندًا لهذه التسميات، فاختصار الرواية لا يعني قصة، وتلك اللقطات من السطـور اليسيرة لا تعني بأي حال قصة قصـيرة، فالقصة تحت أي اسم، هي تلك التي تكتمل فيها العناصر القصصية الفنية أيًّا كان حجمها.

وتاريخ نشوء القصـة يرتبط بتاريخ البشرية، فمما لا شك فيه أن الإنسان بـدأ يحكي حكاياته، وحكايات سابقيه لأولاده وأحفـاده، وأبناء قبيلته ومجتمعه منـذ أن بدأت الحياة على الأرض، فالقصـ الشفوي مرتبط بالحياة الإنسانية، وبالتعبير الشفوي، لكننا إذا قصدنا القصة الفنية فإننا نعيدها في أدبنا العربي إلى العصـر الذي سادت فيه اللغة العربيـة بروعة بيانها، وشدة إحكامها، وقوة أسرهـا، وذلك في العصـر الجاهلي، ولكنها لم تكن مـن ذوات الشأن كالشعر، فقد كان للشعر المقام الأسنى، وعندما جاء الإسلام، وبدأ القرآن الكريم يقص أحسن القصص، فبـدأت قصص الأنبياء مع أقوامهم، وقصص إغواء إبليس، ومـا ورد من قصصـ الأمم الغابـرة تجول المسامـع والأفهام، برائـع تصوير، وجميل عبـارة، وأساليب فنية موجـزة غاية في روعـة الأداء والتصوير، وتبعها مـا ورد في الحديث النبـوي، والسيرة النبويـة، كل ذلك مهّد لوجـود هذا الفن القصصـي الذي نجده في المقامة، وقصص البخلاء، والطفيليين، وما ورد على لسان الحيوان، وغيرها.

وفي العصـر الحديث نهضت القصة نهوضًا واسعًا، وشملت في التعبير عن شؤون الناس وحاجاتهم جُلَّهـا ودقيقها، واتسعت لخاصها وعامها، واستطاعت

أن تصل إلى كلّ شرائح المجتمع أعلاها وأدناها، وقارئها وأمّيها، وصغيرها وكبيرها، نتيجة خروجها إلى ميدان التشخيص عن طريق تمثيلها، وغدا تأثيرها يفوق كلَّ فن، ومشاهدتها تسلية تفوق كل متعة.

وإذا ما أردنا أن نخلص إلى تعريف نرتضيه للقصة القصيرة، فإننا نقول: هي شبكة من خيط نسيج واحد مترابط، يفضي أوله إلى نهايته، في أسلوب شاعري محكم الأداء، وفنٍّ تصويري متمكن، وكاتب قادر على تشكيل الحدث بدقة وروعة، وتصوير الشخصية بإحكام وإتقان، والخروج بلحظة تنوير تضيء المكان والزمان، وتضفي جوًّا من الخلابة والسحر على قارئها.

خصائص البناء الفني للقصة القصيرة:

تحكم القصة القصيرة مجموعة خصائص بنائية، تتشكَّل في الآتي:

١- **الوحدة الكلية** المتمثّلة في وحدة الفكرة والحدث والمغزى، والمنطلقة من وحدة القص، حيث اللفظ المرتبط بالجملة، والجملة المنسربة في الفقرة، والفقرة الخاضعة للسياق الواحد الذي يجمع سائر الفقرات، فيحدث سياق واحد ذو أثر كلي، فإذا مثّلنا للكلمة الأولى في القصة ببداية خيط النسيج، فإنَّ السياق بأجمعه يربطه خيط واحد، بشكل واحد، ومادة واحدة، ولا نعني بوحدة القص، وحدةَ التعبير، وإنّما نعني رؤية الحدث المتتابع تتابعًا مسلسلاً مُقنعًا ومترابطًا، ومن هنا قال النُّقّاد بوحدة الانطباع، وقالوا كذلك بوحدة الحدث الذي لا يتشعَّب حتى لا يفقد مركزيته، والفكرة الأساس التي يجري الحدث من خلالها، فهي بؤرة القصة، ومركز دائرتها، بل هي مركز الإشعاع الذي يُلقي بأضوائه على جميع أجزاء الدائرة.

٢- **التكثيف والتركيز:** الأسلوب الموجز، والعبارة الخالصة من كلّ شائبة هو ما يتبادر للذهن من هذا العنوان، وإن كان هذا من متطلّبات التكثيف والتركيز، إلاّ أنَّ هذا المصطلح أشمل وأعم، وأوسع، وأجمع، فالتكثيف والتركيز يفرضان على الكاتب أمورًا عدّة، منها:

أ. **البناء اللفظي المكين المعتمد على اللبنات التي يحتاجها**، ومن هنا فإنَّ الحشو والتطويل، والسرد الذي لا يخدم البناء من دواعي الخلل، ولا حاجة بالقصة إليه.

ب. **الفكرة المشعَّة المسلَّطة والمركّزة** التي تحدث أثرًا فعّالاً وقويًّا.

جـ. **تكثيف الشعور واختصار الزمان والمكان**، واختزال الشخصيات والتركيز على الشخصية المركزية التي يدور حولها الحدث، وعدم الضياع في تفرّعات، ودخول مضائق وتشعبات تُفضي إلى ولادة أحداث أخرى، كلُّ ذلك من الخصائص التي تُعطي القصة القصيرة صفة التركيز والتكثيف.

٣- **البناء الفني للقصة وطرائقها الفنية، وأساليبها الإبداعية:** يحتاج بناء القصة للوقوع على موضوع شيق ومهم، ولكنَّ الوقوف على فكرة معيَّنة، أو الاطلاع على حدث مهم، لا يكفي لصياغة قصة فنية مؤثّرة، ومن هنا فإنَّ السبك الفنّي يعتمد على مجموعة قواعد وأسس تتيح للكاتب النجاح في بناء قصّته، وتُتيح للبناء الجودة، وللقصة الذيوع[1].

(١) انظر الكتابة بين الموضوع والفن: ص ١٦٥- ١٦٨.

نموذج قصصي:

مسالم بن محارب

أتساءل كثيرًا عن سبب تلك الابتسامة الساخرة التي تُولَد في وجه كل من يدعوني بهذا الاسم؟

وأغيب في غابة من أسماء، وأعود كحاطب ليل، أُضيء مصباحي، ثم أَنثرها أمامي: جندل بن جبل، صعب بن سهل، طريد بن الشريد، حنظلة بن مرة، حتى النساء أسماؤهن فيها من الغرابة أكثر مما يوحيه اسمي، فهذه قرادة بنت اليعسوب، وتلك حية بنت حنش، وثالثة قبيحة بنت وضاح.

ومع ذلك فلا أتصور أن اسمًا من الأسماء لاقى صاحبُه ما أُلاقيه من هذه الابتسامات الساخرة التي تترعرع على الشفاه بمجرد ولادة اسمي على أَلسنتهم.

بحثت عن سبب هذه السخرية، كنت أتمنى لو كان أبي حيًّا؛ حتى أعرف منه سبب هذه التسمية، بحثت في كل أوراقه،عدت إلى كبار السن، ولكني كنت أصطدمُ في كل مرة بجدار السخرية ذاته.

كم أتمنى حياتك ليوم واحد يا أبي، لتحلَّ لي هذا اللغز المُحَيِّر المزعج، أيكون ملّ الحرب وأراد السلام، أم أنه كان من المختصين في بديع البلاغة فأَراد المطابقة؟ أم أنه رأى جسمي النحيل فأراد الرفق بي؟ أم أنه لم يكن يفكر في كل تلك الأمور؟ويكون جَدّي أو أحد الأقارب أو لعلَّهُ موظف دائرة النفوس هو الذي تولى اختيار اسمي؟

كان البحث في هذا الموضوع يُؤجِّجُ السخرية بي، وكانت الشفاه المزمومةُ والوجوه المكفهرَّة تقول: لو أَن كلَّ واحد عاش يبحث عن سبب اسمه لتعطلت الحياة، فهناك أَسماء أسوأ من اسْمِك ومع ذلك فإِنَّ أصحابها يعيشون بلا قلقٍ

أو أرق، ثـم إن هذه الأسماء مجرد أداة للمعرفة لا أكثر، حتى الكلاب أصبح لها أسماء؛ ليعرفَها أَصحابها بها.

اصطدمت ببعض هؤلاء الساخريـن، كنت أَشْتَطُّ في صدامي معهم، ولكنَّ وُجوهَهُم الساخرةَ وتعليقاتِهِمُ اللاذعةَ تظل تتراقَصُ أمام عيني كأشباحٍ في ليلةٍ حالكة السواد.

قال لي أحدهم: كن واقعيًّا، فالواقع هو الواقع لن تمحوه بانفعالاتك.

وقـال لي ثانٍ: غيِّـر اسمك، واخلصْ مـن هذه المشكلة، اذهـب إلى دائرة سجلِّ النفوس وبدِّلْهُ إلى اسم آخر يريحك، وتنتهي معاناتك.

و يصـرخ آخر قائـلًا: إياك أن تفعل ذلك، فهذه خيانـة، نعم، إنك بتبديل اسمـك تخـون أباك، إذ تُغَيِّرُ اسمًا به سمّـاك، ويتدخل المتدخلون أهذا هو البر بالآباء بعد وفاتهم، أم هو العقوق الذي أصبح العلامة المسجلة لهذا العصر؟ لم أستمـع لكل رغائهم، فقد كانت هـذه الفكرة الغائبة هي الدواء المنتظر، والمنقذ الأعظم الذي كنت في انتظاره.

عدت إلى البيت، ودفنت نفسي بين كتب التراجم؛ لأختار اسمًا مدويًا يزرع الرعب في القلوب والمفاصل، ويزلزل هذه الوجوه الساخرة قبل نطقه، الضباب يغشي عيني لكثرة الأسماء المتشابهة، أصابعي تنـزل وتصعد وكأنها سرب طيور ينـزل إلى سطح البحر، ثم يصعد إلى أعلى الجبل.

كان قلبـي يخفق عند كل اسم له معنـى جميل أو فضيل أو كريم أو عظيم، وفجـأة يقف إصبعي عند اسم له مـن الروعة والهيبة ماله من الصيت والدوي، ولكنـي صرفـت النظـر؛ لخوفي مـن أن ينقلـب السحر علـى الساحـر، وتزداد السخريـة، فهل يحـق لمثلي أن يُسمى بهذا الاسم وفي هذا الزمن بالذات؟ ويقف

إصبعي مرة أخرى عند اسم رشيق أنيق، إنه هو لا غيره، وأمسكت به إمساك الجائع بالرغيف، والموعود بالوعد، والمنتظر بالبشرى.

إنه عاهد، ياله من اسم مهذب أنيق! تلفظه الشفاه بكل يسر وسهولة، عاهد، نعم اسم يحمل معنى العهد يا أبي، ولن أخونك أو أعقك سأغير اسمك إلى مجاهد، أعلم أنك لن تغضب مني، فمحبتك لولدك، وحرصك على مكانته بين الناس يمنعانك من أن تغضب ولو كنت حيًا ورأيت كيف يسخر من ابنك لاقتنعت بصواب خطتي، ها..لن تعتب أو تغضب يا أبي؟ عاهدني على ذلك.

جهزت نفسي صباح اليوم اللاحق، واصطحبت معي كل الأوراق الثبوتية حتى الشهود، وتوجهت إلى دائرة سجل النفوس عملت كلَّ الإجراءات دون تأفُّف، فعادتي أن أتضجر من هذه التي لها أوَّل وليس لها آخر، لكني كنت مقبلاً عليها حريصًا على أدائها، من تقديم طلب وتعهد، تتعهَّد فيه بألا تغير اسمك مرَّة أخرى مهما كانت الأسباب، وأكملت ما أحتاج إليه من طوابع وأختام وتوقيعات، كان رقمها الثالث عشر توقيع المدير العام، بعدها توجهت للصندوق ودفعت الرسوم، وقالوا: موعدك غدًا الساعة الواحدة.

يكاد قلبي يخرج من بين ضلوعي وأنا في انتظار وليدي القادم الذي سيملأ عليَّ حياتي بالأمن والطمأنينة، بعد لحظات سأتسلم شهادتي الجديدة، أكاد أطير من الفرح.

صوت الموظف بدأ يعلو مناديًا، الآن يصل اسمي، ها.. لعله بعد هذا، أو بعد هذا.

رقم ١٣ (معاهد بن مجاهد).

أيكون قد أخطأ؟ أم أنَّ السمع قد خانني؟ أنا عاهد ولست معاهدًا، لا بدَّ أن يكون هناك خطأ ما..!

أخذت شهادتي، نظرت في الاسم، فإذا هو معاهد، أسقط في يدي، وتطلعت حولي، فإذا بالابتسامات الساخرة كالسياط اللاهبة تجلد اسمي الجديد.

• **الرواية: (تاريخها، وتعريفها، الأنواع والاتجاهات، الصياغة الفنية، مقارنة بين روايتين)**

ثالثًا: الرواية:

تاريخها.

يعد الاستماع والاستمتاع بالقصص، وإعادة روايتها وحكايتها، والميل إلى قصها وتأليفها من مألوف الغرائز، وكأنَّ البحث ومحاولة معرفة الأحداث والأخبار، ومشاهدة ما جرى ويجري في هذه الحياة من المشاهد ميل فطري، ولعلَّ حبَّ الاستطلاع هو أيضًا من الدوافع التي تدفعنا لنعرف: الحدث، وطبيعته، ومن قام به، وردود الأفعال، والنهاية التي انتهى إليها.

والقص والرواية يمثلان الاجتماع الإنساني،حيث هما الوسيلة التي يتم عبرها نقل المعلومات والأخبار، والحديث والمسامرة، فالحديث عن الماضي وشخصياته وأحداثه، والافتخار بالآباء والأجداد، وذكر سيرهم وأفعالهم، وقصة التاريخ والأديان والاجتماع، والعادات والتقاليد مما كان يشغلهم في لقاءاتهم واجتماعاتهم، وسمرهم ولهوهم، فكل شيء في هذه الحياة له قصة.

والقصة جزء لا يتجزأ من حضارات الشعوب وثقافاتهم، ولذلك فقلما تجد شعبًا من الشعوب على وجه الأرض لا يملك رصيدًا من التراث القصصي.

ومع هذا كله نجد من يقول: إنَّ التراث العربي والإسلامي خلوٌّ من الفن القصصي، وإنهم لم يعرفوا القصة والفن القصصي، هذا ما يمكن أن يجده المطلع على دائرة المعارف البريطانية في الجزء الخاص بالإسلام، وعلى وجه الخصوص في الجانب الذي يتعلق بالأدب، فالموسوعة تذكر: أنَّ الأدب التمثيلي، وأدب القصص من الفنون المحرمة والممنوعة في الإسلام، وتابعها على هذا

الـرأي بعضـ كتابنا ومؤرخـي أدبنا، ولسنـا بصدد الدفاع، فذلك قـد سبق أن دحضناه في كتاب سابق، ولكنَّ هذا الادعاء فيه كثير من المغالطة والافتراء، ومن يعدّ إلى كتب التاريخ والمعارف يجدّ أن العرب قد اهتموا بالقصة منذ القدم، وما القصصـ الواردة في القرآن الكريم، والحديث الشريف إلاَّ أنصع دليل وبرهان للرد على هذه الآراء المتهافتة، وقد وجدنا في الأدب العربي من الاهتمام بالقصة ما جعلهم يبتكرون القصص، كالمقامـات، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ورسالـة التوابـع والزوابـع لابن شهيـد الأندلسي، وحي بن يقظـان لابن طفيل، وغير ذلك كثير، كما امتد اهتمامهم إلى ترجمة القصص الدخيل، مثل: قصص كليلـة ودمنة، وألف ليلة وليلـة، وألّفوا قصصًا على غرارهـا، كما فعل سهل بن هـارون في قصته ثعلة وعفراء، وأبو العلاء المعري في الصاهل والشاحج، واشتد تأثرهـم بهـذا القصص، حتـى إنَّ بعضهم نظمه شعرًا، كما فعـل أبان بن عبد الحميد اللاحقي في نظم كليلة ودمنة.

وتشهد لرأينا كتب الأدب المقارن على مدى تأثير القصص العربي المكتوب والمترجـم بالعربية في كثير مـن الآداب العالمية، يقـول د. محمد غنيمي هلال: (وقـد شرحنا في مجال آخر كيـف أثَّرتْ المقامات العربيـة في قصص الشطار الإسبانية، ثم الفرنسية التي تأثرت بالإسبانية، وقد أدى ذلك إلى نشأة قصص العادات والتقاليد في الأدب الفرنسي، كقصة «جيل بلا» للكاتب الفرنسي لوساج، ثمَّ أثّرت قصص العادات والتقاليد بدورها في قصص القضايا الاجتماعية التي كانت من بواكير القصة الحديثة العالمية في معنى القصة الفني، فكان للمقامات العربية تأثير مباشر وغير مباشر في نهضة القصة العالمية [1]).

(١) في النقد التطبيقي المقارن: ص١٥.

فهـذا النص يبين أن القاعدة التي اعتمد عليها الفن القصصي في الغرب إنما هي قاعدة عربية إسلامية، ولم يقتصر تأثير الأدب العربي على غيره على قصص المقامات، فهناك أمثلة عديدة، من ذلك قصة حي بن يقظان لابن طفيل وأثرها في قصة روبنسون كروزو لدانييل ديفو اللتين سنعرض لهما، وأثر التوابع والزوابـع ورسالة الغفـران في الكوميديا لدانتي الإيطـالي، ولسنا بصدد التتبع الدقيـق؛ لأن ذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة، وإنما هي نماذج وأمثلة أوردناها؛ تدليلاً على صحة نظرتنا.

تعريف الرواية:

هـي قصة مكتملة العناصر، متعـددة الفصول، ممتدة في الزمان والمكان، تتعمق الأشخاص، وتسبر أغوارهم، وتتبّع سلوكهم ودوافعهم، تسير ضمن حدث ضخـم، يتفـرع منه أحـداث فرعية، وهي في غالبهـا تعالج المواقـف الإنسانية، ولذلك فإنَّ أشهـر الروايات هي تلك التي تتحدث عن حياة الشعوب، والأحداث العظيمـة التـي مرَّت بها، ولا يعني قولنا هذا أنها اقتصرت على ذلك، بل لها أن تعالج حتى الشؤون الفردية إذا قُدِّر لها أن تمتلك خواص الرواية.

الأنواع والاتجاهات:

للرواية أنـواع عديدة، فمنها: (الرواية الدينية، والتاريخية، والاجتماعية، والسياسيـة، والعلميـة) ولا شك في أنَّ نوع الرواية تبـع لاتجاهها الذي يقصده الكاتب، ويصب فيه الحدث.

فالروايـة الدينيـة: قد تعالج شـؤون المرء الدينيـة، أو قضايا الإيمان، أو الشخصيات الدينية، كالأنبياء والرسل.

والرواية التاريخية: تسير ضمن تخليد الأحداث التاريخية العظيمة للأمة، من: فتوحاتها، وانتصاراتها، وقادتها، وسير أبطالها.

والرواية الاجتماعية: تعالج شؤون الإنسان في مجتمعه وأسرته، وقضايا الحب والطلاق، والإرث، والتعليم والمرأة، والوظيفة، والمال، وغير ذلك.

والرواية السياسية: تتجه إلى إثارة الحديث عن حركات التحرير، والوقوف في وجه المستعمر، والتخلص من الطغاة والمستبدين، وتدور في فلك الحركات السياسية، والأحزاب، والأفكار المتعلقة بذلك.

أما الرواية العلمية: فتتجه للحديث عن العلوم، والتقدم الظاهر فيها، وعن قدرات الإنسان على الابتكار والتطوير، وغزو الفضاء، والغوص في أعماق البحار، والمكتشفات العلمية.

الصياغة الفنية:

إذا كانت القصة القصيرة لها أدواتها الفنية المتمثلة في الدقة والإيجاز، والتلميح والترميز، فإن الرواية أوضح وأشرح، وهي تستوعب الإطناب والتكرار، مما يجعل الفرق بين أسلوبي الصياغة واضحًا، ولا يعني قولنا هذا أن الرواية لا تعتمد الصوغ الفني المتأنّق، بل عليها أن تعتمد ذلك، وإلّا فقدت جانبًا مهمًّا من جوانب قدرتها الفنية والإبداعية والإمتاعية، ولكنّنا نعني أنَّ خاصية التركيز والتكثيف أقوى وأظهر في القصة القصيرة منها في الرواية. ونستطيع أن نوضح هذه الفروق في الآتي:

١- الحدث في القصة القصيرة محدود في الزمان والمكان، بينما في الرواية ممتد ومتفرع.

٢- الشخصية في القصة القصيرة محدودة العدد، وقد تكون فكرة أو موضوعًا، بينما الشخصية في الرواية قد تصل في تعدادها إلى عبور أجيال مختلفة فيها.

٣- التكثيف والتركيز في القصة القصيرة، يقابله التطويل والشرح والتفريع والتفصيل في الرواية.

٤- لا تقف الفروق عند الحجم في الطول والقصر، أو في امتداد الحدث وانكماشه، أو تعدد الشخصيات وقلتها، وإنما يكمن الفرق أيضًا في الصياغة الفنية، حيث القصة القصيرة تعتمد اعتمادًا واضحًا على الصياغة الفنية الراقية التي تصل بها في قدرتها الإيحائية إلى الأسلوب الشاعري، وهذا لا يعني كما قلنا آنفًا، عدم اتصاف الرواية بالأسلوب الأدبي المتقن، ولكن سعة التناول في الرواية للأحداث والشخصيات المختلفة زمانًا ومكانًا وثقافة ومكانة، يؤدي إلى أن تُعرض بأسلوب واضح قريب من مفاهيم الجميع، فكأنَّ القصة القصيرة فن للخاصة والرواية فن للعامة.

والذي يهمنا هنا هو كيفية كتابة الرواية والنجاح فيها، والكتابة الروائية فن له أدواته ومهاراته، فليس كل من كتب حديثًا يتحدث به عن ذكرياته،أو عن واقعة حصلت له، فلا يعني ذلك نجاحًا في هذا الفن، ولذلك فإنَّ أدوات النجاح تكمن في الآتي:

١- الموهبة القصصية التي يجب أن يتمتع بها كل من يلج باب هذا الفن.

٢- العلم بأصول وفنية هذا الفن، وتاريخه، ونقده.

٣- الثقافة الواسعة المعمقة في: اللغة، والأدب، والتاريخ، والسياسة.

٤- الخيال الخصب، والفكر الدقيق، والقدرة على التحليل، والتعليل، والاستنباط والاستنتاج، والتأمل العميق لسبر أغوار الحياة.

٥- معرفة الواقع والوقائع معرفة الرائي أو الشاهد، فليس من رأى كمن سمع، ولا يعني هذا كل الأنواع الروائية، إذ ينوب عن الحضور والمشاهدة والتجربة العيش في جو الرواية بكل المشاعر والأحاسيس،

فمـن يكتب الروايـة التاريخية القديمـة، فإنَّ قـراءة التاريخ والتعمق في حوادثـه، والحيـاة في أجوائه كل ذلك يساعد علـى تمثل الحوادث والشخصيات.

٦- الحاجـة إلى المصـادر والمراجع، فليست الروايـة مجرد خيال سردي، وإنما يحتاج كاتبها إلى مصادر لمعرفة الحقائق وسير الأحداث، فكتب التاريـخ ضرورة للرواية التاريخية، وكتـب التراجم مهمة لمن يكتب في السِّـير والشخصيات، وكتب الاجتماع والطـب وغيرها مفيد للمؤلف؛ كي يكون دقيقًا في توصيف الأشياء والأحداث.

مقارنة بين روايتين:

- **الأولى: رواية من الأدب العربي القديم، هي: (حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي).**
- **الثانية: رواية من الأدب الإنجليزي، هي: (روبنسون كروزو لدانيال ديفو).**

ظهرت قصة حي بن يقظان في القرن السابع الهجري، أي الثاني عشر الميلادي، بينما ظهرت قصة روبنسون كروزو بعدها بفترة طويلة تصل إلى ستة قرون أي في القرن الثامن عشر الميلادي، وهنا مع أهمية السبق الزمني الذي يعد الأساس في المقارنات الأدبية، فإنه لا يقف كأساس للمقارنة إلاَّ إذا كان هناك تأثر وتأثير في الأفكار والسرد والشخصيات والحدث، ومن أجل تبيان ذلك نورد ملخصًا للقصتين؛ ليتبين القارئ صورة أحداث الروايتين وبناءهما الفني، ثم نخلص إلى عرض بعض آراء النقاد عن حقيقة تأثير قصة حي بن يقظان في رواية روبنسون كروزو.

موضوع قصة «حي بن يقظان» يدور حول بطل القصة وهي شخصية طفل نشأ في جزيرة من جزر الهند النائية التي سماها المؤلف «الواق واق» وقد نشأ هذا الطفل في تلك الجزيرة من دون أبوين يرعيانه، وقد كان هذا الطفل ابنًا لأخت أحد الملوك، إذ أنَّها تزوجت زواجًا شرعيًّا سرًّا عن أخيها الذي كان معارضًا لهذا الزواج، فلما حملت بمولودها، أصابتها الحيرة فيما تصنع به عند ميلاده، وعندما خرج الطفل إلى الحياة، أتت بتابوت وضعته فيه، وأحكمت إغلاقه، وألقته في البحر، فنقلته الأمواج إلى شاطئ تلك الجزيرة النائية، حيث تعهدت ظبية برعايته وإرضاعه، إذ حسبته رضيعها المفقود.

كبر هذا الطفل، وأصبح قادرًا يافعًا، ولاحظ بعض الفوارق بينه وبين من يعايشهم، فهو يكاد يختلف في قامته وشكله، وتفاصيل سحنته، وطريقة حياته عن الحيوانات التي تشاركه الحياة في الجزيرة.

وهنا بدأ بإعمال فكره وعقله، وأخذ يعيش حياة الإنسان في المجتمع الإنساني ذي الفرد الواحد، فأخذ في بناء بيت له يحميه من تأثير الجو من حر وبرد ومطر وعواصف، وشرع في زراعة النبات بمختلف أصنافه، من: حبوب، وفواكه، كما أخذ في اصطياد الطيور والحيوانات؛ ليعيش، وشعر بحاجته للباس وستر جسده، فاستفاد من جلود الحيوانات التي يصطادها؛ ليكسو نفسه.

وظلَّ على هذا الحال حتى ظهر له شخص يشبهه في الخلقة، وكان ذلك الرجل متصوفًا قد دخل الجزيرة؛ ليخلو بنفسه للعبادة، ويبتعد عن المدن وصخبها، واضطراب الحياة البشرية، وكان يدعى «آسال» فالتقى هذا العابد بحي بن يقظان، فعلمه الدين، ونقله بعد ذلك إلى المجتمع البشري في المدينة التي عاش حي بن يقظان بعيدًا عنها مدة خمسة وثلاثين عامًا قضاها بين الوحوش والحيوانات في الجزيرة.

- **الثانية: رواية «روبنسون كروزو» لدانيال ديفو من القصص الإنجليزي.**

تروي هذه الرواية حكاية بحار اسمه « روبنسون كروزو « كان مسافرًا على ظهر سفينة مع مجموعة من البحارة في رحلة إلى بعض السواحل البحرية، بعد أن تعمقوا البحر، وامتدت رحلتهم أيامًا من الإبحار، اشتد البحر، وثارت العواصف الشديدة، وارتفعت أمواج البحر، وبدأت السفينة تتأرجح، ثمَّ ارتطمت بأمواج عنيفة نتيجة لعاصفة قوية، مما أدى إلى تحطم بعض أجزاء السفينة، فاستقل البحارة قاربًا للنجاة، لكنه اصطدم بموجة عاتية، ما أدى إلى غرق جميع الركاب باستثناء «روبنسون كروزو» الذي نقلته الموجة إلى

شاطئ البحر مغشيًا عليه، وبعد أن استيقظ وجد نفسه وحيدًا في جزيرة مليئة بالحيوانات والوحوش الكاسرة، فبدأ يفكر فيما سيصنعه وهو وحيد ولا يملك شيئًا يدافع به عن نفسه، فكان لا بد من المحافظة على روحه وجسده، فهو في هذه الجزيرة الخالية من البشر يعيش دون أنيس، ولا مفر من مواجهة هذه الحياة الجديدة، فبدأ يبني كوخًا لنفسه، ومن ثم صنع قاربًا صغيرًا أبحر به إلى السفينة المحطمة، وجلب منها كل ما يحتاجه مما تبقى عليها، فأحضر في صندوق كبير بعض الأطعمة، وبعض الكتب، وأحضر فأسًا وبندقية، وبعض الأخشاب، وبعد أن بنى كوخه شرع في زراعة بعض الحبوب، وتربية بعض الحيوانات، وصار يصطاد الطيور والحيوانات؛ ليأكل من لحومها، ويصنع ثيابه من أصوافها وأوبارها، ومضى على ذلك، واستمرت حياته البسيطة، وهو يحاول أن يتأقلم معها، فيصنع له ضوءًا لكوخه، ثم يصنع بعض القدور لطهي طعامه، وظلت حاله كذلك حتى رأى يومًا ما أثرًا لقدم إنسان، فتبعها، واقتفى أثرها حتى أدرك أن بعض البحارة قد نزلو الجزيرة يطاردون أحد الزنوج الفارين للبحث عنه والإمساك به، لكنه أفلت منهم، وأنقذ روبنسون كروزو حياة هذا الزنجي، وتعهده بالتربية والرعاية، وعاشا معًا مدة طويلة، حتى مرَّت ذات يوم سفينة ضلَّ أصحابها، وعرض روبنسون كروزو مساعدة الركاب، إلاَّ أنهم شكّوا في ذلك، فقامت في بادئ الأمر معركة بين الطرفين، اصطلحا بعدها، فركبوا السفينة جميعًا، وعادوا بروبنسون كروزو إلى موطنه، بعد أن غاب عنه مدة ثمانية وعشرين عامًا، وقد عاش حياة منعزلة في جزيرة نائية، أعتمد في حاجاته الضرورية للحياة على ما ينبت في هذه الجزيرة، وما تحويه من طيور وحيوانات كان يربيها أو يصطادها.

ولعل القارئ للروايتين من خلال هذا العرض الموجز يلحظ ما يلي:

١- الروايتـان تدوران حـول موضوع واحد هو قصة إنســان وجد في مكان منعزل، بعيد عن بني البشر.

٢- المكان للروايتين واحد.

٣- الوسيلة للوصول للجزيرة واحدة وهي السفينة.

٤- مواجهة الحياة وأخطارها متفقة في الروايتين من بناء البيت والزراعة وصنـع القدور واللباس، هذا في الموضوع، أمـا في البناء الفني فهناك خصائص متشابهة أيضًا، نذكر منها:

١- *فيهما بعض خصائص المدرسة الواقعية.*

٢- *تتسمان بالحوار الداخلي أو ما يسمى بتيار الوعي، أو المنولوج، وبخاصة في تفكير البطلين في مواجهة الأحداث والصعوبات.*

٣- *الشخصيـة في الروايتـين نامية متطـورة، وليسـت مـن الشخصيات الثابتة.*

ويذهـب بعض نقاد الأدب الإنجليـزي إلى أنَّ مؤلف رواية روبنسون كروزو استطـاع أن يقدم لنا صـورة واقعية لمغامـرة إنسانية فرديـة استطاع صاحبها بقدراتـه أن يكيـف نفسه مـع البيئة الجديـدة، وبذلك قدم لنـا الكاتب نظرية اقتصادية للمجتمع ذي الفرد الواحد.

أمـا رواية حي بـن يقظان فقد قامت كمـا يرى بعض النقـاد على أسلوب رمـزي، الهدف منه العبرة والعظـة، وهي توضح تلك القـدرة التي أودعها الله في الإنســان، واستخدام هذه القـوة العقلية في الاستفادة مما سخره الله تبارك وتعـالى للإنســان، وخدمته، ويؤكد هذا ما ذكره ابـن طفيل مؤلف رواية حي بن يقظـان في مقدمة قصته، فيقول: ففـي قصصهم عبرة لأولي الألباب، وذكرى لمـن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو يشير بذلك إلى الهدف الرئيس من القصة.

وقـد تجد بعض الخـلاف في الشخصية من حيث: طفولـة حي بن يقظان التـي تبني أفعالها على المشاهـدة والتجريب والتعلم، ورجولـة روبنسون كروزو التي تتمتع بمعرفة مسبقة في مواجهة الظروف.

ولا شك في أن هذا الفرق في التحوير في شخصية روبنسون كروزو لم يغطِّ علـى المشابهة الواضحة في الموضوع والأحداث. ومـن المعروف أن قصة حي بن يقظان قد ترجمت إلى كثير من اللغات: كاللاتينية، والإنجليزية، والألمانية، وقد ظهرت الترجمة الأولى لها عام ١٦٧٤م، وتبعتها أخرى عام ١٦٨٦م، وثالثة عام ١٧٠٨م فكانت آخر ترجمة لها قبل ظهور قصة روبنسون كروزو بإحدى وعشرين سنـة، وكل هذا يؤكد لنـا على أن هذا التشابه الكبير بـين الروايتين لا يمكن أن يتـم مصادفة، وإنما نقول على وجه التأكيد والجزم: إنَّ دانيال ديفو قد تأثّر في روايته روبنسون كروزو بالكاتب العربي ابن طفيل في روايته «حي بن يقظان».

رابعًا: المسرحية:

(تعريفها، وعناصرها، وأنواعها، ونموذج عليها)

نوع أدبي نما وازدهر في أدبنا العربي مع أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث ظهر العديد من كتّاب المسرحية، مثل: مارون النقاش، وسليم النقاش، وأبو خليل القباني، وجورج أبيض، وإن كان غالب ما كتبه هؤلاء الكتاب من مسرحيات إنما كان مسرحيات معرَّبة عن الفرنسية والإنجليزية.

وبدأت كتابة المسرحيات العربية في الظهور مع كتابة أحمد شوقي مسرحيته (مصرع كليوباترة) ثمَّ مسرحياته الأخرى التي أخذت من تاريخنا العربي والإسلامي موضوعاتها وأفكارها، ثمَّ تعدَّد كُتّاب المسرحية في مختلف بلادنا العربية.

تعريف المسرحية:

يعرفها الزيّات بأنّها (تمثيل طائفة من الناس لحادث متحقّق أو متخيّل[1]) ولذلك فإنَّ أهم ما يميز المسرحية من غيرها من فنون الأدب كونها تُكتب لتُمثَّل لجمهور يحضرها.

أهم عناصر المسرحية:

(الحوار والصراع والحدث)

الحوار: هو أهم عناصر المسرحية؛ لأنها تقوم عليه، فهو عمود خيمتها، إذ هي تُكتب على شكل حوار بين الأشخاص الذين يقومون بتمثيلها، (فليس هناك مؤلف أو راوٍ يقص الأحداث، ويعرفنا بالشخصيات وطبائعها وعلاقتهم

(١) في أصول الأدب للزيات: ص ٢٠٦.

بعضهـم ببعض، كما نشاهد في الرواية مثلاً، وإنما تكشف الشخصيات بنفسها عـن نفسها وما يجـري فيها [1])، وتتحاور فيما بينهـا، لينمو الحدث من خلال ذلـك الحوار والمواقـف، ويجب أن يتمثَّـل في هذا الحوار: الحـدث، والصراع، والشخصيـة. ومن مواصفاته الإيجاز غير المخل، بحيث يعبر عن الموقف تعبيرًا تامًّا، وعن الشخصية في طبيعتها وقدراتها الفكرية، وأن تكون لغة الحوار معبرة عن الحدث دون خطابية، أو دعائية، فصدق التعبير يؤدي إلى صدق القبول.

الصراع:

ينشـأ الصـراع في المسرحيـة مـن خـلال سلـوك شخصيـات المسرحية وتطلعاتهـم وحاجاتهـم، فالتوافـق والتعارض، والاختلاف والتصـادم، هو ما يعبر عنه بالصـراع، والصراع له أشكال عديدة، فمنها: الاجتماعي، والطبقي، والفكري، والسياسي.

والصراع ضربان: خارجي وهو صـراع الشخصيات في الأشكال السابقة، وصراع داخلي الذي يتمثل في معاناة الشخصية ذاتها.

الحدث:

تقـوم المسرحية وكل عمل أدبي على حدث أو فكـرة، فبناء المسرحية يقوم على حادثة أو عدة حوادث تمثل العلاقات الإنسانية في جميع أحوالها.

أنواعها: اعتاد الكُتّاب على تقسيم المسرحية إلى نوعين:

النـوع الأول: جـاد: وهـي المسرحيـات التي تتنـاول الموضوعـات المهمة، والمتعلقـة بالمثل العليا والأعمال الفاضلة، وقد عرّفها الفيلسوف اليوناني أرسطو

(١) دراسات في النقد المسرحي: ص ٢٨.

(بالمأساة التي تتم بوساطة أشخاص يفعلون لا بوساطة الحكاية، وتثير الرحمة والخوف، فتؤدّي إلى التطهير من هذه الانفعالات).

النوع الثاني: الهزلي: وهو ما أطلق عليه أرسطو (الملهاة) وهي (محاكاة فعل هزلي ناقص.. يحصل به تطهير المرء بالسرور والضحك) وقد التزمت المسرحية هذين النوعين، إلى أن بدأ الكتّاب يخلطون بين اللونين، فظهر:

نوع ثالث يمزج ما بين الجدّ والهزل، وهذا التقسيم تقسيم خارجي يعتمد على الأثر الذي تحدثه المسرحية في نفوس الحضور، وهناك تقسيمات حسب الموضوع مثل:

المسرحية التاريخية: هي المسرحية التي تستمد موضوعها من أحداث التاريخ.

المسرحية الاجتماعية: هي تلك التي تستمد أحداثها من خلال الواقع ومشكلاته.

المسرحية السياسية: هي التي تعالج شأنًا سياسيًّا.

المسرحية الفكرية: وهذه تهتم بالقضايا الفكرية، والصراعات العقلية.

نموذج مسرحي:

هلك المتنطعون

مسرحية لعلي أحمد باكثير

في بيت سلمـان الفارسي الصحابي الجليل، حجرة صغيرة متواضعة ليس بها من الرياش غير القليل، ولكن يظهر عليها الترتيب والتنسيق، أريكة صغيرة واطئة تكاد تلامس الأرض».

ترى أميمة زوجة سلمان، وهي تكنس الحجرة، ولا تكاد تفرغ من ذلك حتى تسمع قرعًا على الباب.

أميمة: من؟

صوت: أنا أم الدرداء.

أميمة: «تفتح الباب» أهلاً وسهلاً. مرحبًا بك يا أم الدرداء.

أم الدرداء: أظنك كنت تكنسين. أتمي عملك يا أم عبدالله.

أميمـة: قد فرغـت من الكنس يـا أم الـدرداء. اجلسي أنـت على الرحب والسعة «تجلسان على الأريكة».

أم الدرداء: كيف حالك يا أم عبدالله؟ وكيف حال سلمان زوجك؟

أميمة: بنعمة الله وعافيته. وكيف حال أبي الدرداء ؟ لعله بخير.

أم الدرداء: تسأليننـي عن أبي الدرداء. هو كحاله يا أختاه. بخير.

أميمة: ما خطبك؟ أليس كما تحبين؟

أم الدرداء: بلى، كما أحب وكما يحب لنفسه.

أميمة: كما يحب لنفسه، وليس كما تحبين!

أم الدرداء: استغفر الله يا أختي، لم أقل ذلك.

أميمة: أردت ذلك، ولم تقوليه.

أم الدرداء: كلا، لست أشكو من أبى الدرداء أي شيء.

أميمة: بل في نفسك شيء تكتمينه عني. أنت لست راضية عن زوجك.

أم الدرداء: ويحك يا أم عبدالله، من أين جاءك هذا الظن؟

أميمة: من لحن قولك يا خيرة.

أم الدرداء: لتطب نفسك يا أميمة، فإني راضية راضية.

أميمة: فما بالك على هذه الهيئة؟

أم الدرداء: ماذا تنكرين من هيئتي؟

أميمة: شعرك أشعث غير مدهون ولا مرجل.

أم الـدرداء: كنت أرفو اليوم قميص أبي الدرداء فشغلني ذلك عن إصلاح شعري.

أميمة: ما أحسبه عرف الدهن منذ أيام. إن لم يكن عندك دهن فسأعطيك شيئًا من عندي.

أم الـدرداء: بل عندي الدهن ولله الحمـد. وعندي المشط كذلك. سأدهن شعري، وأرجله لك حين أزورك يومًا آخر.

أميمة: لي أنا أم لأبي الدرداء؟

أم الدرداء: لك أنت أولاً، ثم لأبي الدرداء.

أميمة: بل لأبي الدرداء أولاً ثم لي.

أم الدرداء: لا مشاحة يا أميمة.. كما تشائين.

أميمة: «لا تريد أن تستسلم للجواب الذي تخلصت به أم الدرداء» وهذا الثوب؟

أم الدرداء: ما باله؟

أميمة: لا يعجبني أن أراه عليك، فما أنت بعانس ولا أيم.

أم الدرداء: بالله يا أميمة، دعيني من هذا. أنا جئت لأَتَنِس بك، لا لتنقدي ثوبي وشعري.

أميمة: يا خيرة، يا بنت أبي حدود، لا ينبغي لك أن تنسي أن رسول الله ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار قد آخى بين زوجي وزوجك.

أم الدرداء: هذا أمر لا ينسى أبدًا.

أميمة: فسلمان الفارسي، وأبو الدرداء الخزرجي شيء واحد، وأنا وأنت شيء واحد.

أم الدرداء: هذا حق.

أميمة: فما ينبغي لي أن ألبس ثوبًا خيرًا من ثوبك، ولا أن أصلح من شعري ما لا تصلحين من شعرك.

أم الدرداء: لا عليك مني في هذا الشأن يا أميمة، فما عندي ميل إلى التزين والتجمل مثلك.

أميمـة: أما والله لقد كنت فيما مضى من أملح نسـاء الأنصار، وأجملهن شعرًا، وأفضلهن زينة وتطرية.

أم الدرداء: ذاك عهد مضى يا أم عبدالله، وقد اختلف الحال اليوم.

أميمة: فيم يا أم الدرداء؟

أم الدرداء: كان أبو الدرداء تاجرًا من قبل، فأصبح اليوم، وقد لزم العبادة وترك التجارة.

أميمة: ما كان أبو الدرداء بموفق في ذلك.

أم الدرداء: إنه يزعم أنهما لا يجتمعان. العبادة والتجارة.

أميمة: ماذا يمنع؟ هذا سلمان مازال حتى اليوم ينسج الخوص، ويأكل من كسب يده، ويرى ذلك من أفضل العمل.

أم الـدرداء: يـا أم عبـدالله، ألا تعلمين أن زوجك شيء آخـر؟ إنه رجل لا يشغله شيء عن شيء.

أميمة: لا ينبغي لك يا أم الدرداء، أن تحذي حذو زوجك، فتنسي ما ينبغي للمرأة المتزوجة من زينة.

أم الدرداء: لمن ينبغي على المرأة المتزوجة أن تتزين؟ أليس لزوجها؟

أميمة: بلى.

أم الـدرداء: فزوجـي أصبح لا يعنيه اليوم من زينتي شيء. لقد صار سواء عنـده اليوم: أتزين أو لا أتزين، وأن أتكحـل أو لا أتكحل، وأن أصلح شعري أو لا أصلحه، فلمن تريدين أن أتزين؟ للشيطان؟!

أميمة: معاذ الله يا أم الدرداء، كيف تقولين هذا؟

أم الدرداء: ماذا أصنع لك؟ أبيت إلا أن تحاوريني، حتى أعلنت لك.

أميمة: نِعْمَ ما فعلت يا خيرة، قد كان ينبغي عليك أن تصارحيني بهذا الذي تجدين في نفسك من أول الأمر.

أم الدرداء: ما خير ذلك يا أختي، إلا أن ألقي همي على همك.

أميمة: لعلي أستطيع أن أصنع لك شيئًا.

أم الدرداء: ماذا بوسعك أن تصنعي لي؟ تهدين لي ثوبًا آخر من ثيابك؟

أميمة: إذا شئت يا أم الدرداء، فإن عندي ما تحبين.

أم الدرداء: كلا، يا أم عبدالله. احتفظي بثوبك خيرًا لك. أتدرين ماذا صنع زوجي بذلك الثوب الذي أهديته إلي؟

أميمة: ماذا صنع به؟

أم الدرداء: ما إن رآه ذات يوم حتى أمرني أن أخلعه، وأتصدق به على إحدى فقيرات أهله.

أميمة: غفر الله لأبي الدرداء. والله لأكلمنَّ سلمان في شأنه؛ لينصحه.

أم الدرداء: كلا. إياك أن تفعلي يا أم عبدالله.

أميمة: أي بأس في ذلك؟

أم الدرداء: هذا سر بيني وبين زوجي، لا ينبغي أن يعلم أني بحت به لأحد.

أميمة: لن يعلم زوجك شيئًا. إن سلمان كما تعلمين لكيِّسٌ لبقٌ.

أم الـدرداء: كلا، يـا أختي. إني بعد لأستحي من بعلـك أكثر مما أستحي من بعلي.

أميمة: سلمان أخ لزوجك، فهو بمنـزلة أخيك.

أم الدرداء: حتى أخي ابن أبي وأمي أستحي منه في مثل هذا الشأن.

أميمة: فاعلمي إذن أن سلمان قد عرف هذا السر الذي تكتمين.

أم الدرداء: ويلك ممن عرفه؟

أميمة: منك أنت.

أم الدرداء: ماذا تقولين؟

أميمـة: إنـه زاركم ذات يوم، فأنكـر هيئتك، فسألك فقلت لـه: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.

أم الـدرداء: يـا هنتاه. حقًّا قلت لـه ذلك، ولكنى ما قصـدت هذا المعنى، وإنما قلت ما قلت اعتذارًا له، كراهية أن يكلف نفسه فيهدي لنا ثوبًا من عنده.

أميمـة: مهما يكن من قصدك فقد فطن سلمان لحقيقة ما بك وإنه لكيس فطين، إني والله لربما أكتم عنه الشيء فيكشفه لي كأنما يقرأ من كتاب.

أم الدرداء: واحياءاه ! واخجلتاه!

أميمة: هوِّني عليك، فإن هو إلا أخ أمين.

«في بيت أبى الدرداء. حجرة تشبه الحجرة السابقة إلا أنها أكثر تواضعًا منها».

أبو الدرداء: «يستقبل سلمان الفارسي» مرحبًا بك يا أبا عبدالله، يا سباق فارس!

سلمان: «فرحًا» سابق فارس! بأبي هو وأمي إذا لقيني بذلك!

أبو الدرداء: ﷺ.

سلمان: لقد حضرت أنا وأهلي يا أبا الدرداء.

أبو الدرداء: ومرحبًا بأهلك.

سلمان: سنتغدى ونتعشى عندكم.

أبو الدرداء: على الرحب والسعة يا أخي. أين هي امرأتك؟

سلمان: قد سبقتني إليكم. داخل الدار عند أهلك.

أبو الدرداء: عجبًا والله ما علمت.

سلمان: وأنى لك أن تعلم وأنت مشغول يومك كله عن أهلك؟ وعسى أن تكون مشغولاً عنهم ليلك كله كذلك!

أبو الدرداء: ويل بنت أبى حدرد. كان عليها أن تخبرني «ينادي»: أم الدرداء يا أم الدرداء.

أم الدرداء «صوتها» لبيك يا أبا الدرداء.

أبو الدرداء: هذا سلمان أخي عندي.

أم الدرداء: مرحبًا به وأهلاً. وهذه امرأة أخيك سلمان عندي.

أبو الدرداء: مرحبًا بها وأهلاً. اصنعي لهما شيئًا يا خيرة. فإنهما سيتغديان عندنا.

أم الدرداء: وسيتعشيان أيضًا.

أبو الدرداء: أجل أجل.. هيئي لهما ما عندك.

أم الدرداء: قد هيأت كل شيء.

أبو الدرداء: أحسنت يا خيرة. أحسن الله إليك.

أبو الدرداء: هلم يا أبا عبدالله، فها قد أحضرت أم الدرداء الغداء.

سلمان: «ينظر إلى الصفحة أمامه على الخوان» ما شاء الله. لقد عنيت بنا أم الدرداء، فهيأت لنا هذا الطعام الطيب.

أبو الدرداء: كُلْ يا أخي هنيئًا مريئًا.

سلمان: وأنت ألا تجلس فتأكل؟

أبو الدرداء: اعذرني يا سلمان، فإني صائم.

سلمان: صائم؟!. أجيء أنا من بيتي لأكل عندك فتصوم؟!

أبو الدرداء: قد نويت الصوم يا أخي، قبل أن تحضر.

سلمان: فأفطر الآن، إذ حضرت.

أبو الدرداء: ألا تدعني يا سلمان، أتم صومي؟ وسأجلس معك أحادثك على الطعام.

سلمان: أيصح هذا في شرعتكم يا معشر العرب؟

أبو الدرداء: بئس ما تقول يا أخي. إن الله قد أكرمنا بالإسلام، فأغنانا عن شرعة العرب.

سلمان: وبئس ما تفعل أنت يا عويمر. فإن الإسلام لا يرضى ذلك. وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». والله ما أنا بآكل حتى تأكل.

أبو الدرداء: فسآكل معك إذن يا سلمان. باسم الله.

سلمان: باسم الله «يأكل الاثنان من الصفحة».

«أم الدرداء تتزين، وتساعدها في ذلك زوجة سلمان».

أم الدرداء: انظري يا أختي. لقد جاء زوجك من صلاة العشاء، ولا يجيء أبو الدرداء.

أميمة: لعله آتٍ في الأثر.

أم الدرداء: والله ما هذا بحسن. يكون عنده الضيف، فلا يسبق الضيف إلى البيت.

أميمة: اتركي ذلك لسلمان، فإنه كفيل بتأديبه.

أم الدرداء: صدقت لقد أدبه اليوم، فأحسن تأديبه.

أميمة: هيا أكملي الآن زينتك.

أم الدرداء: قد أكملتها.. ماذا تريدين بعد؟

أميمة: هذا الطيب لم تمسِّيه بعد ! ضمَّخي به رأسك وما بين كتفيك.

سلمان: «يدخل عليه أبو الدرداء من الخارج» معذرة يا أبا الدرداء، أن سبقتك إلى بيتك.

أبو الدرداء: بل اعذرني أنا يا أبا عبدالله، إذ تأخرت عنك في المسجد. البيت بيتك على كل حال.

سلمان: غفر الله لأم الدرداء. لقد أكثرت لنا في العشاء، حتى أسرع إليَّ النعاس.

أبـو الـدرداء: إن كنـت تريد النـوم فادخـل إلى أهلك. فقـد أعددنا لكما الحجرة الداخلية.

سلمان: وأنت يا أخي، ألا تأوي إلى أهلك؟

أبو الدرداء: ليس الآن. سأبقى هنا قليلاً؛ لأقوم بعض الليل.

سلمـان: ويلـك كيف يطيب لي ولأهلـي النوم في بيتك، وأنـت قائم تتهجد وامرأتك ساهرة تنتظر؟

أبو الدرداء: عجبًا لك اليوم يا سلمان، ما خطبك؟

سلمان: إن كنت تكره أن نبيت عندك فدعنا ننصرف إلى بيتنا.

أبو الدرداء: معاذ الله يا أخي. ادخل إلى أهلك، وسأدخل إلى أهلي.

سلمان: بل ادخل أنت أولاً، وسأدخل بعدك.

أبو الدرداء: سمعًا يا أبا عبدالله.

سلمـان: وإياك أن تقوم حتى أكـون أنا الذي أوقظك من آخر الليل، فنقوم معًا، ونصلي معًا.

أبو الدرداء: (في غيظ مكتوم) سمعًا يا سلمان.

«بعد بضعة أيام في نفس المكان»

أبـو الدرداء: ما هـذا الذي فعلت يا سلمان؟ كيف تقيـم في بيتي، وتحضر طعامًا من بيتك؟

سلمـان: قـد صـارت لنـا ثلاثـة أيـام في بيتـك، فـلا ينبغـي أن نبقى في ضيافتك.

أبـو الـدرداء: كلا، يا سلمـان، إما أن تقيمـا في ضيافتنـا أو تنصرفا إلى بيتكما.

سلمان: فهلم أنت وأهلك فأقيما في بيتنا بضعة أيام.

أبو الدرداء: ويحك ما يدعونا إلى ذلك؟

سلمان: لنتعاون على البر والتقوى. نذهب إلى المسجد معًا، ونعود إلى أهلنا معًا، ونقوم آخر الليل معًا.

أبـو الـدرداء: «محتدًّا» يـا سلمان، قد صـبرت لك طويلاً. وقـد آن لي أن أصارحـك إنك لم تُعنِّي على الـبر. بل شغلتني عنه. ما عدت أستطيع أن أصوم، ولا أقوم منذ أقمتما عندنا أنت وأهلك.

سلمـان: وقد آن لي أنا أيضًـا أن أصارحك. إن كنت تبغي التقرب إلى الله بما تفعل فإن الله تعالى لا يتقرب إليك بإضاعة الحقوق التي عليك.

أبو الدرداء: أي حقوق أضعت؟

سلمـان: إن لربـك عليك حقًّـا، وإن لبدنك عليك حقًّـا، وإن لأهلك عليك حقًّا. فأعطِ كل ذي حق حقه.

أبو الدرداء: هذا حق. وما أراني إلا معطيًا كل ذي حق حقه.

سلمان: بل أضعت حق بدنك، وحق أهلك.

أبو الدرداء: أفلهذا أقمت عندي هذه الأيام؟

سلمان: أجل لأحملك على البر، وأسير بك في الجادة.

أبو الدرداء: هذا رأيك يا سلمان، وأنا أرى خلاف رأيك.

سلمان: هلم إذن نحتكم إلى النبي ﷺ لنرى أينا أهدى سبيلاً؟

أبو الدرداء: أنصفت يا سلمان، فهلم.

«في بيت سلمان.. أم الدرداء تزور أميمة، وهي في هندام حسن»

أميمة: أهلاً أهلاً بك يا أم الدرداء. أراك اليوم على خير حال؟

أم الدرداء: جزاك الله صالحة يا أختاه، وجزى سلمان خيرًا. لقد صار أبو الدرداء خلقًا آخر.

أميمة: حديث النبي ﷺ هو الذي أصلحه.

أم الدرداء: أجل.. أصبح زوجي لا يكف عن ترديده في كل حين.

أميمة: هلك المتنطعون.

أم الدرداء: لا تختصري الحديث يا أم عبدالله. لقد قال ﷺ لأبي الدرداء لما احتكم هو وسلمان إليه: «**لقد صدق سلمان. سلمان أفقه منك يا أبا الدرداء. هلك المتنطعون. هلك المتنطعون**».

ملحق يتضمن:

١- نصوصًا في مهارات الاتصال.

٢- أسئلة في مهارات الاتصال.

نصوص في مهارات الاتصال:

إنَّ حُسْنَ تأليف الكلام، وإدارته في الأغراض المتعددة، والأحوال المختلفة، لهو توفيق من الله ﷻ أولاً، ومن ثم تعلُّمٌ، وتثقُّفٌ، وتدريبٌ، وممارسة.

وقد هدفت من هذه النصوص التي اخترتها من أهم كتب أمهات التراث العربي، وضع نجاحات السابقين، وعرض تجاربهم وخبراتهم في مختلف المواقف التي تحتاج للسان وفضيلة البيان.

وهذه النصوص المختارة من كتب التراث القيمة تمثِّل كثيرًا من المهارات التي نحتاجها، والتي يجب أن نتعلمها، فهي زبدة تجارب الأمة، ومخض ثقافة تراثية عظيمة، وكنز بيان رائع.

ومما جاء فيها: أقوال في ضبط اللسان، والأدب في التعليم، والكلام في موضعه وغير موضعه، والخجل والعلم، والحال والموقف والقدرة على البيان واختلافها، وفصاحة القول، ومحاسن ومساوئ المخاطبات والمكاتبات، والأسئلة والأجوبة، والذكاء والبديهة، وحسن الاعتذار، وجميل الأمثال، وحسن الخلق والحلم، والكرم، والجود والرفق، والصفح، والعفو.

وفي آداب العلماء والمتعلمين [1]:

---

(١) وردت هذه النصوص في كتاب آداب العلماء والمتعلمين ١/ ١- ١٠١.

قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه».

وَلأَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ [1]».

وقد صح عن الشافعي -رحمه الله- أنه قال: ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر على يديه.

وقال: ما كلمت أحدًا قط إلا وددت أن يوفق، ويسدد، ويعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ.

قال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا البيان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مرسلة أو ضالة.

قالوا: المرء بأصغرية لسانه وقلبه.

وكان يقال: عقل المرء مخبوء تحت لسانه.

قال حسان بن ثابت:

لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي

وقال الخليل رحمه الله:

لساني وسيفي صارمان كلاهما وما السيف أقوى وقعة من لسانيا

(١) مسند الإمام أحمد رقم ١٥٨٥٢ وصحيح البخاري رقم ٦٤٧٨.

وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله حاجة، فأحسن المسألة، فأعجبه قوله، فقال: هذا والله السحر الحلال.

وقال علي بن عباس بن الرومي:

وحديثها السحر الحلال لو أنها لم تجنِ قتل المسلم المتحرِّز

وكان يقال: في اللسان عشر خصال محمودة: أداة يظهر بها البيان، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وواعظ ينتهي به عن القبيح، ومعز تسكن به الأحزان، وملاطف تذهب به الضغينة، وموفق يلهي به الأسماع.

نظر معاوية رضي الله عنه إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فأتبعه ببصره، ثم قال متمثلاً بقول الشاعر:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل مصيب ولم يثنِ اللسان على هجر

يصرف بالقول اللسان إذا انتحى وينظر في أعطافه نظر الصقر

كان يقال: الجمال في اللسان.

قيل لأعرابي: ما الجمال؟

قال: في اللسان.

باب ذم العي وحشو الكلام:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: لا خير في فضول الكلام.

قال عطاء: كانوا يكرهون فضول الكلام.

وقالوا: بترك الفضول تكمل العقول.

وقالوا: فضول الكلام ما ليس في دين ولا دنيا.

وقالوا: الصمت صيانة اللسان، وستر العي.

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري[1]:

أما بعد فتفقهوا في السنة وتعلموا العربية، وروي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا أنه قال:

رحم الله عبدًا أصلح لسانه.

قال علي بن محمد العبرتاني: رأيت لسان المرء وافد عقله... وعنوانه فانظر بماذا تعنون.

وقال أيضًا: اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدري في الوجه.

قال ابن شبرمة: إذا سرك أن تعظم في أعين من كنت عنده صغيرًا، ويصغر في عينك من كان فيه كبيرًا، فتعلم العربية؛ فإنها تجزيك عن المنطق، وتدنيك من السلطان.

قال الشاعر:

النحو يصلح من لسان الألكنِ ... والمرء تكرمه إذا لم يلحنِ

وإذا أردت من العلوم أجلها ... فأجلها منها مقيم الألسنِ

وترى الوضيع إذا تكلم معربًا ... نال الكرامة باللسان الأحسنِ

ورأى أبو الأسود الدؤلي أعدالاً للتجار عليها مكتوب: لأبو فلان، فقال سبحان الله يلحنون ويربحون.

قال رجل للحسن البصري: يا أبو سعيد.

فقال: كسب الدراهم شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد.

---

(١) هذه الأقوال وما بعدها جاء في بهجة المجالس ١/ ٧ .

مر خالد بن صفوان بقوم من الموالي يتكلمون في العربية، فقال: لئن تكلمتم فيها فأنتم أول من أفسدها.

وقالوا: العربية تزيد المروءة.

قال نصر بن أحمد:

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهلُ ... وكل امرئ ما بين فكيه مقتلُ
وكم فاتحٍ أبوابَ شرٍّ لنفسه ... إذا لم يكن قفل على فيه مقفلُ
إذا ما لسان المرء أكثر هذرةً ... فذاك لسان بالبلاء موكَّلُ
إذا شئت أن تحيا سعيدًا مسلمًا ... فدبِّر وميِّز ما تقول وتفعلُ

قال الأعمش رحمه الله: احذروا الجواب.

قال تميم بن نصر بن سيار لأعرابي: هل أصابتك تخمة قط؟

قال: أما من طعامك فلا.

وهذه نصوص من كتاب إحياء علوم الدين:

الضرب الثاني الفروع، وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعانٍ تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله ﷺ: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**[1]» حديث: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**» متفق عليه من حديث أبي بكرة أنه لايقضي إذا كان: خائفًا، أو جائعًا، أو متألمًا بمرض.

قال الأحنف: لأن أدعى من بعد أحب إلي من أن أقصى عن قرب.

(١) سنن الترمذي رقم ١٣٣٤ وفيه برواية: «**لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان**».

وقال البعيث بن حريث:

وإن مكاني بالنديِّ وموضعي ... لبالموضع الأقصى إذا لم أقرَّبِ
ولست وإن قربت يومًا ببائع ... خلاقي ولا ديني ابتغاء التحبُّبِ
وقد عده قوم كثير تجارة ... ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

أقوال: في ضبط اللسان:

قال الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]:

(من كثُر كلامه كَثُر خطؤه، ومن كَثُر خطؤه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤُه قلَّ ورعُه، ومن قلَّ ورعهُ مات قلبُه، ومن مات قلبهُ دخل النار).

المطلع أو الافتتاح: يقول الحصري: (أول ما يقرع الآذان أدعى إلى الاستحسان[2]).

وجاء في البيان والتبيين[3]: (وكان بشَّارٌ كثيرَ المديح لواصِل بن عطاء قبل أن يدين بَشَّارٌ بالرَّجْعة،.. وكان قد قال في تفضيله على خالِد بن صفوانَ، وشبيبِ بن شَيبة، والفضل بن عيسى، ويومَ خطَبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق:

أبا حُذيفَة قد أوتِيتَ مُعْجِبةً ... في خُطبةٍ بَدَهَتْ من غير تقديرِ
وإنَّ قولاً يروق الخالِدَين معًا ... لَمُسْكِتٌ مُخرِسٌ عن كلّ تحبيرِ

(١) نهج البلاغة: ص ٧٣٨والمنتخب والمختار: ص ٤٢.
(٢) زهر الآداب ٤/ ١١٦٣.
(٣) ١/ ٧.

لأنه كان مع ارتجاله الخطبَة التي نزع منها الراء، كانت مع ذلك أطولَ من خطبهم، وقال بشّار:

تكلَّفُوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلوا ... وحَبّروا خطبًا ناهِيكَ من خُطبِ
فقام مرتجِلا تغلي بداهتُه ... كمِرْجَل القين لما حُفَّ باللهب
وجانَبَ الراءَ لم يشعُرْ بها أحد ... قبل التصفُّح والإغْراق في الطّلبِ

وقال في كلمة له يعني تلك الخطبة:

فهذا بديهٌ لا كتحْبيرِ قائلٍ ... إذا ما أراد القول زَوَّرَه شهرا

ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة، وما يحضرني منها:

قال أبو عثمان: وهي أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء، فأما التي هي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوِّره الخَطّ؛ لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مَخْرجٌ من المخارج، والمخارجُ لا تُحصَى ولا يُوقف عليها، وكذلك القولُ في حروف كثيرة من حروف لغات العجم؛ وليس ذلك في شيء أكثرَ مِنه في لغة الخوز، وفي سواحل البحر من أسياف فارسَ ناسٌ كثير، كلامُهم يشبه الصَّفير، فمَنْ يستطيع أن يصوِّر كثيرًا من حروف الزَّمزمة، والحروفِ التي تظهر من فم المجوسيّ إذا تَرك الإفصاحَ عن معانيه، وأخَذَ في باب الكناية وهو على الطعام.

فاللُّثغة التي تعرِض للسّين تكون ثاء، كقولهم لأبي يَكسوم: أبي يَكثوم؛ وكما يقولون: بُثْرَةٌ، وبِثْم اللهِ، إذا أرادوا بُسْرة، وبسم الله، والثانية اللثْغة التي تعرِض للقاف؛ فإن صاحبها يجعل القاف طاءً، فإذا أراد أن يقول: قلت له، قال: طُلْت له؛ وإذا أراد أن يقول: قال لي، قال: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام، فإن مِن أهلها مَن يجعل اللام ياء، فيقول بدل قوله: اعتَلَلْتُ: اعتيّيت، وبدل جَمَل: جَمَيّ، وآخرون يجعلون اللامَ كافًا، كالذي عرض لعُمَر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا؟ قال: مَكّعِكّة في هذا [1]).

وقال بشار [2]:

فسائلْ بعبدالله في يوم حَفْلِه ... وذاك مَقامٌ لا يشاهده وَغْدُ
أقام شبيبٌ وابنُ صَفوانَ قبلَه ... بقولِ خطيبٍ لا يجانبه القَصْدُ
وقام ابنُ عيسى ثُمَّ قفّاه واصلٌ ... فأبدَعَ قولاً ما له في الورى نِدُّ
فما نقَصَتْهُ الرّاءُ إذْ كان قادرًا ... على تركِها واللفظُ مطّرِدٌ سَرْدُ
فَفَضّل عبدُالله خُطبةَ واصلٍ ... وضُوعف في قَسْمِ الصّلات له الشُّكْد

وهذا كقول بشّارٍ الأعمى [3]:

وعِيُّ الفَعَالِ كعِيّ المقال ... وفي الصّمت عِيٌّ كعِيّ الكلمْ

وقالوا في الصمت كقولهم في المنطق، قال أُحَيْحَة بن الجُلاح:

والصمت أجْمَل بالفتى ... ما لم يكن عِيٌّ يَشينُهْ
والقول ذو خَطَل إذا ... مَا لم يكن لُبٌّ يُعينُهْ

وقال مُحرِزُ بن علقمة:

لقد وارَى المقابرُ من شَريكٍ ... كثيرَ تحلُّمٍ وقليلَ عابِ
صموتًا في المجالس غير عَيٍّ ... جديرًا حين ينطق بالصّواب [1]

(١) البيان والتبيين ١/١٠.
(٢) المصدر نفسه ١/١٠.
(٣) المصدر نفسه ١/١٠.

وسأل الله ﷻ موسى بنُ عمرانَ عليه السلام، حين بعثه إلى فرعونَ بإبلاغ رسالته، والإبانـةِ عن حجّته، والإفصاح عن أدِلّته، فقـال حين ذكر العُقْدة التي كانت في لسانه، والحُبْسةَ التي كانت في بيانه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ طه.

وأنبأنا اللهُ تبـارك وتعالى عن تعلُّق فرعونَ بكلِّ سببٍ، واستراحته إلى كل شَغَب، ونبَّهنا بذلك على مذهبِ كلِّ جاحدٍ معاند، وكلِّ مُحْتالٍ مكايد، حينَ خبَّرنا بقوله: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ الزخرف.

وقال موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ القصص.

وقـال: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣﴾ الشعراء.

رغبـةً منه في غاية الإفصـاح بالحجّة، والمبالغةِ في وضـوح الدَّلالة؛ لتكون الأعنـاقُ إليه أَمْيَـلَ، والعقولُ عنه أفهمَ، والنفوسُ إليه أسـرع، وإن كان قد يأتي مـن وَرَاءِ الحاجة، ويَبْلـغ أفهامَهم على بعض المشقّة، ولله ﷻ أن يمتحِنَ عبادَه بما شاء من التخفيف والتّثقيل، ويبلُوَ أخبارَهم كيف أحَبَّ من المحبوب والمكروه، ولـكلِّ زمانٍ ضرب من المصلحة ونوعٌ من المِحْنة، وشكلٌ من العبادة، ومن الدَّليل على أنّ الله تعالى حَلّ تلك العقدة، وأطلق ذلك التعقيد والحُبْسة، قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ طـه. إلى قوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ طه.

---

(١) المصدر نفسه ١/١.

فلم تقع الاستجابة على شيءٍ من دعائه دون شيء؛ لعُموم الخبر، وسنقُول في شأنِ موسى عليه السلام ومسألتِه[1].

وذكر الله تبارك وتعالى جميلَ بلائه في تعليم البيان، وعظيمَ نِعمته في تقويم اللسان، فقال: « ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ الرحمن. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ آل عمران.

ومدح القرآنَ بالبيان والإفصاح، وبِحسن التَّفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقانًا، كما سمّاه قرآنًا، وقال: ﴿عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ۝١٠٣﴾ النحل.

وقال ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ۝١١٣﴾ طه.

وقال: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩﴾ النحل.

وقال: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ۝١٢﴾ الإسراء.

وذكر الله عز وجل لنبيّه عليه السلام حالَ قريش في بلاغةِ المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحّة العقول، وذكر العربَ وما فيها من الدُّهاء والنُّكراء والمَكْر، ومن بلاغة الألسنة، واللَّدَدِ عند الخُصومة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ ۝١٩﴾ الأحزاب. وقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝٩٧﴾ مريم. وقال: ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤﴾ البقرة.

---

(١) المصدر السابق ٢/١.

وقال: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الزخرف ثم ذكر خلابةَ ألسنتهم، واستمالتَهم الأسماعَ بِحُسنِ منطقهم، فقال: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ ﴿٤﴾﴾ المنافقون.

ثمَّ قال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ البقرة.

وقيل في البشاشة وحسن الاستقبال: إنّ الحديثَ جانبٌ من القِرَى.

وقال الآخر:

لحافُ الضَّيفِ والبيتُ بيتُه ... ولم يُلهني عنه غزالٌ مقنَّعُ

أُحَدِّثُه إنّ الحديثَ من القِرى ... وتعلمُ نفسي أنّه سوف يهجعُ

ولذلك قال عمرو بن الأهتم [1]:

فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبًا ... فهذا مَبيتٌ صالحٌ وصديقُ

وقال آخر [2]:

أُضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزال رَحْلِه ... ويُخصب عندي والمحلُّ جَديبُ

وما الخِصْبُ للأضياف أن يكثُرَ القِرَى ... ولكنّما وجهُ الكريمِ خصيبُ

وفي التصوير بالنظر:

قال تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ ﴾ القلم.

---

(١) المصدر نفسه ١٣/١.

(٢) المصدر نفسه ٣/١.

وقد قال الشاعر في نظر الأعداء بعضِهم إلى بعض:

يتقارضون إذا التَقَوْا في موقفٍ نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاطِئَ الأقدامِ

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ٤﴾ إبراهيم.

لأنَّ مدار الأمر على البيان والتبيُّن، وعلى الإفهام والتَّفهُّم، وكلّما كان اللّسانُ أبْيَنَ كان أحمدَ، كما أنّه كلما كان القلبُ أشدّ استبانةً كان أحمد، والمفهمُ لك والمتفهِّم عنك شريكان في الفضل، إلّا أنّ المفهِم أفضل من المتفهِّم وكذلك المعلِّم والمتعلِّم، هكذا ظاهرُ هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا في الخاصّ الذي لا يُذكَر، والقليلِ الذي لا يُشهر، وضرب الله ﷻ مثلاً لعيِّ اللسان ورداءة البيان، حين شبّه أهلَه بالنساء والولدان: فقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ الزخرف.

ومن أجْل الحاجة إلى حُسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقَها من الفصاحة رامَ أبو حذيفةَ إسقاطَ الراء من كلامه، وإخراجَها من حروفِ منطِقه؛ فلم يزل يكابِد ذلك ويغالبُه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لسَتره والراحةِ من هُجْنته، حتَّى انتظم له ما حاول، واتَّسق له ما أمَّل، ولولا استفاضةُ هذا الخبر، وظهورُ هذه الحال حتّى صار لغرابته مثلاً، ولطَرافته مَعْلمًا، لما استجَزْنا الإقرارَ به، والتأكيدَ له، ولستُ أَعْنِي خُطَبه المحفوظة، ورسائله المخلَّدة؛ لأنَّ ذلك يحتمل الصَّنعة، وإنما عَنيْتُ محاجَّة الخصوم، ومناقلةَ الأكْفاء، ومفاوضةَ الإخوان، واللُّثغة في الراء تكون: بالغين، والذال، واليـاء، والغينُ أقلُّها قبحًا، وأوجَدُها في كبار الناس، وبلغائهم، وأشرافهم، وعلمائهم.

وكانت لُثْغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوَّم لسانه أخرج الراء، وقد ذكره في ذلك أبو الطُّرُوق الضبّيّ، فقال:

عليمٌ بإبدال الحروف وقامعٌ لكلِّ خطيبٍ يغلبُ الحقَّ باطلُه

وكان واصلُ بن عطاءٍ قبيحَ اللُّثغة شنيعَها، وكان طويلَ العنق جِدًّا، ولذلك قال بَشَّارٌ الأعمى:

ما لي أشايعُ غزَّالاً له عنقٌ كنِقْنِقِ الدَّوِّ إن ولّى وإن مَثَلا
عُنْقَ الزَّرافةِ ما بالي وبالُكُمُ أتُكْفِرون رجالاً أكفَروا رجُلا

فلما هجا واصلاً وصوَّب رأيَ إبليسَ في تقديم النَّار على الطِّين، وقال:

الأرض مظْلمةٌ والنارُ مُشرِقةٌ والنار معبودةٌ مذْ كانت النارُ

وجعل واصل بنَ عطاءٍ غَزَّالاً، وزعَم أنَّ جميعَ المسلمين كفَروا بعد وفاة الرسول، فقيل له: وعليٌّ أيضًا؟ فأنشد:

وما شَرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا

قال واصلُ بن عطاءٍ عند ذلك: أمَا لهذا الأعمى الملحِد المُشنَّف المكَنَّى بأبي معاذٍ مَن يقتله، أما والله، لولا أن الغِيلة سجِيَّةٌ من سجايا الغالية، لبعثْتُ إليه من يبعَج بطنه على مضجعه، ويقتُله في جوف منزِله وفي يوم حَفْله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عُقَيليٌّ أو سَدُوسيّ، قال إسماعيل بن محمّدٍ الأنصاريُّ، وعبدُ الكريم ابن رَوح الغِفَاريّ: قال أبو حفص عُمر بن أبي عثمان الشَّمَّرِيُّ: ألا تَريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا، وأنتما لِلَّذي تريان من سلامته، وقلة ظهور التكلُّف فيه، لا تظُنّان به التكلّف، مع امتناعه من حَرْفٍ كثير الدَّوران في الكلام، ألا تريانِ أنّه حين لم يستطعْ أن يقول بشَّار، وابن بُرد، والمرعَّث، جعل المشنَّف بدلاً من المرعَّث، والملحِد بدلاً من الكافر؛ وقال: لولا أنّ الغِيلة سجيَّةٌ من سجايا الغالية،

ولم يذكـر المنصوريّة ولا المُغيريَّة ؛ لمـكان الراء ؛ وقال: لبعثت من يبعج بطنه، ولم يقـل: لأرسلتُ إليه ؛ وقال: عَلَـى مضجعه، ولم يقل: على فراشه، وكان إذا أراد أن يَذْكُـر البُرَّ قال: القمح أو الحنطة، والحنطةُ لغـةٌ كوفيَّة، والقمح لغة شاميّة، هذا وهو يعلم أنّ لغةَ من قال بُرّ، أفصحُ من لغة مَن قال قمح أو حنطة [1]).

قال قطرب [2]: أنشدني ضِرار بن عمرو قولَ الشاعر في واصل بن عطاء:

ويجعل البُرَّ قمحًا في تصرُّفه ... وجانَبَ الراءَ حتّى احتال للشَعَرِ

ولم يُطِقْ مطَرًا والقول يُعجِلُه ... فعاذَ بالغيث إشفاقًا من المَطرِ

قال الجاحظ في البيان[3]:

قـال بعضُ جهابذة الألفاظِ ونُقّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور النّاس المتصـوَّرَة في أذهانهم والمتخلِّجة في نفوسهـم، والمتَّصِلة بخواطرهم، والحادثة عـن فِكَرهـم، مستورةٌ خفيّـة، وبعيدةٌ وحشيـة، محجوبةٌ مكنونـة، وموجودةٌ في معنَـى معدومـةٍ، لا يعرف الإنسـانُ ضميرَ صاحِبـه، ولا حاجة أخيـه وخليطِه، ولا معنَـى شريكِـهِ والمعـاونِ له على أمـوره، وعلى ما لا يبلغه مـن حاجات نفسه إلاّ بغـيره، وإنما يُحيي تلـك المعانيَ ذكرُهم لها، وإخبارُهـم عنها، واستعمالُهم إيّاها، وهذه الخصالُ هي التي تقرّبها من الفهم، وتُجَلِّيها للعقْل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهرًا، والغائبَ شاهـدًا، والبعيدَ قريبًا، وهي التي تلخِّص الملتبِس، وتحلُّ المنعقد، وتجعل المهمَل مقيَّدًا، والمقيَّد مطلقًا، والمجهولَ معروفًا، والوشيَّ مألوفًا، والغُفْـل موسومًـا، والموسومَ معلومًا، وعلى قَدر وُضـوح الدَّلالة وصوابِ الإشارة، وحسـن الاختصار، ودِقّةِ المَدْخَل، يكون إظهارُ المعنى، وكلّما كانت الدَّلالة أوضَحَ

(١) المصدر السابق ١/٥.

(٢) المصدر نفسه ١/٦.

(٣) المصدر نفسه ١/٢٣ .

وأفْصَـح، وكانـت الإشارةُ أبينَ وأنْـوَر، كان أنفعَ وأنْجَـع، والدَّلالة الظاهرةُ على المعنى الخفيِّ هو البيانُ الذي سمِعْتَ الله يمدحُه، ويدعو إليه ويحثُّ عليه، بذلك نَطَقَ القُرآنُ، وبذلك تفاخَرَت العَرب، وتفاضَلَتْ أصنافُ العَجَم.

والبيـان اسمٌ جامـعٌ لكلِّ شيءٍ كشَفَ لك قِناعَ المعنـى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمـير؛ حتّى يُفْضِيَ السّامعُ إلى حقيقته، ويَهجُـم على محصولِهِ كائنًا ما كان ذلـك البيانُ، ومن أيِّ جنسٍ كان الدّليل؛ لأنّ مَدَارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجرِي القائـل والسّامع، إنَّما هـو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأيِّ شيءٍ بلغْـتَ الإفهامَ، وأوضَحْتَ عـن المعنى، فذلك هو البيـانُ في ذلك الموضع، ثم اعلم - حفِظَكَ الله - أنّ حُكْمَ المعـاني خلافُ حُكمِ الألفـاظ ؛ لأنّ المعانِيَ مبسوطةٌ إلى غير غاية، وممتدّةٌ إلى غير نهاية، وأسماءَ المعاني مقصورةٌ معدودة، ومحصلَّةٌ محدودة، وجميعُ أصنافِ الدَّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياءَ لا تنقُص ولا تَزيد:

أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخَطّ، ثمَّ الحالُ التي تسمّى نِصْبةً، والنِّصبـة هي الحال الدّالةُ، التي تقوم مقامَ تلك الأصنافِ، ولا تقصرُّ عن تلك الـدَّلالات، ولكلِّ واحدٍ من هذه الخمسة صورة بائِنةٌ من صورة صاحبتها، وحليةٌ مخالفـةٌ لحِلْية أُختها ؛ وهـي التي تكشِف لك عن أعيان المعـاني في الجملة، ثمَّ عن حقائقهـا في التَّفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصِّها وعامِّها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعمّا يكون منها لَغْوًا بَهْرَجًا، وساقطًا مُطَّرَحًا.

قـال أبو عُثمـان: وكان في الحقِّ أن يكـون هذا البـابُ في أوَّل هذا الكتاب، ولكنَّـا أَخَّرْنـاه لِبعض التَّدبير، وقالـوا: البيان بَصَرٌ، والعِيُّ عمـىً، كما أنّ العلم بصرٌ والجهلَ عمى، والبيانُ من نِتاج العِلم، والعِيُّ من نِتاج الجهل.

وقـال سهلُ بن هـارون: العقل رائـد الـرُّوح، والعلمُ رائدُ العقـل، والبيان تَرجمان العلم، وقال صاحبُ المنطق: حَدُّ الإنسانِ: الحيُّ النَّاطق المبِين.

وقالـوا: حياةُ المروءة الصّدق، وحياة الرُّوح العفـاف، وحياة الحِلم العِلم، وحياة العِلم البيان.

وقـال يونسُ بنُ حبيب: ليس لعييّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حَكَّ بيافوخِهِ أَعْنَانَ السَّماء.

وقالوا: شعرُ الرَّجل قطعةٌ من كلامه، وظنُّهُ قطعةٌ من علمِه، واختيارُه قطعةٌ من عقلِه، وقال ابنُ التَّوْأم: الرُّوح عِماد البدَن، والعِلْم عِماد الرُّوح، والبيان عماد العلم.

قـد قلنـا في الدَّلالة باللفـظ، فأمّـا الإشارة فبالـيـد، وبالرأس، وبالعين، والحاجـب، والمَنْكِب إذا تباعَدَ الشخصان، وبالثَّـوب وبالسَّيف، وقد يتهدَّد رافعُ السَّيـف والسَّوط، فيكـون ذلك زاجرًا، ومانعًـا رادعًا، ويكون وعيـدًا وتحذيرًا، والإشـارة واللّفـظ شريكان، ونِعْم العـونُ هي له، ونعم الترجمـانُ هي عنه، وما أكـثَرَ ما تنوب عن اللّفظِ، وما تُغني عن الخطِّ، وبعدُ فهل تَعدو الإشارةُ أن تكون ذاتَ صـورةٍ معروفةٍ، وحِلْية موصوفـة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطَّرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفقٌ كبير، ومَعُونة حاضرة في أُمـورٍ يسترُها بعضُ النَّاسِ مـن بعض، ويخفونها من الجليس وغيرِ الجليس، ولـولا الإشارةُ لم يَتفاهم النَّاسُ معنَى خاصّ الخاصّ، ولَجَهلوا هذا الباب البتّة، ولولا أن تفسيرَ هذه الكلمة يَدخل في باب صناعة الكلام لفسَّرتها لكم، وقد قال الشاعر في دَلالات الإشارة:

أشارتْ بطَرْفِ العين خِيفةَ أهلِها ... إشـارةَ مـذْعـورٍ ولم تتكَلَّمِ
فأيقنْتُ أنَّ الطَّرْفَ قد قال: مرحبًا ... وأهـلا وسـهلا بالحبيب المتيَّمِ

وقال الآخر:

ولـلـقـلـب عـلـى الـقـلـب ... دلـيـلٌ حـيـنَ يـلـقـاهُ

وفي النَّاسِ من الناس مقاييسُ وأشباهُ
وفي العينِ غنى للمر ءِ أنْ تنطقَ أفواهُ

وقال الآخر في هذا المعنى:

ومَعشرٍ صِيدٍ ذوِي تجَلَّةْ ترى عليهم للنّدى أدلّةْ

وقال الآخر:

ترى عينُها عَيْنِي فتعرف وَحْيَها وتعْرف عيني ما به الوَحْيُ يرجعُ

وقال آخر:

وعينُ الفتى تُبدي الذي في ضميره وتعْرِف بالنجوَى الحديثَ المعَمَّسا

وقال الآخر:

العينُ تُبدِي الذي في نفسِ صاحبها من المحبة أو بُغضٍ إذا كانا
والعينُ تنطق والأفواهُ صامتةٌ حتَّى ترى من ضمير القلب تِبْيانا

هذا، ومبلغُ الإشارة أبعَدُ من مبلغ الصَّوت، فهذا أيضًا باب تتقدَّم فيه الإشارةُ الصوتَ، والصوتُ هو آلةُ اللَّفظِ، والجوهرُ الذي يقوم به التقطيع، وبه يُوجَد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلّا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف، وحُسنُ الإشارة باليدِ والرأسِ مِن تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدَّلِّ والشَّكل والتقَتُّل والتَثَنِّي، واستدعاء الشّهوة، وغير ذلك من الأمور، قد قُلْنا في الدّلالة بالإشارة، فأمّا الخطُّ، فمما ذكَر اللهُ عزّ وجلّ في كتابه من فضيلة الخَطِّ والإنعام بمنافع الكتاب، قولُه لنبيِّه عليه السلام: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ العلق.

وأقسم به في كتابه المُنْزَل على نبيّه المُرسَل، حيث قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ القلم.

ولذلك قالوا: القَلَم أَحَدُّ اللِّسانين.

كما قالوا: قِلّة العِيال أَحَدُّ اليَسارَين.

وقالوا: القلمُ أبقى أثرًا، واللسان أكثرُ هَذَرًا.

وقال عبدُالرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدَرُ أن يحضَّ الذِّهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللِّسان على تصحيح الكلام.

وقالوا: اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر، والقلمُ مطلقٌ في الشاهد والغائب، وهو للغابِر الحائن، مثلُه للقائم الرَّاهن، والكتاب يُقرَأ بكلِّ مكان، ويُدرَس في كلِّ زمان ؛ واللسان لا يَعْدُو سامعَه، ولا يتجاوزُه إلى غيره [1].

وقال عليٌّ رحمه الله: قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحسِن، فلو لم نَقف من هذا الكتابِ إلّا على هذه الكلمة لوجدْناها شافيةً كافية، ومجزئة مغْنِية؛ بل لوَجدناها فاضلةً عن الكفاية، وغيرَ مقصِّرة عن الغاية، وأحسنُ الكلام ما كان قليلُه يُغْنيك عن كثيرِه، ومعناه في ظاهر لفظِه، وكان الله عزّ وجلّ قد ألبسَه من الجَلالة، وغَشّاه من نُور الحكمة على حَسَب نيّة صاحبه وتقوَى قائِله، فإذا كان المعنى شريفًا واللفظُ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيدًا من الاستكراه، ومنزَّهًا عن الاختلالِ مصونًا عن التكلُّف، صنَعَ في القُلوب صنيعَ الغَيث في التُّربة الكريمة، ومتى فَصَلت الكلمةُ على هذه الشّرِيطة، ونفذَتْ من قائلها على هذه الصِّفة، أَصَحبَها الله من التوفيق ومَنَحَها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة،

(١) البيان والتبيين ١/٢٤.

ولا يذهَل عن فهمها معه عقولُ الجَهَلة، وقد قال عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعتْ في القلب، وإذا خرجت من اللِّسان لم تجاوِز الآذان، وقال الحسنُ رحمه الله، وسمِع رجلاً يَعِظ، فلم تقع موعظتُه بموضعٍ مِن قلبه، ولم يرِقَّ عندها، فقال له: يا هذا، إنّ بقلبك لَشَرًّا أو بقلبي.

وقال عليُّ بنُ الحسَين بنِ علي رحمه الله: لو كان النّاسُ يعرِفون جُملةَ الحال في فضل الاستبانة، وجملةَ الحال في صواب التَّبيين، لأَعرَبُوا عن كلِّ ما تخَلَّجَ في صدُورِهم، ولَوجَدوا من بـرْدِ اليقين ما يُغْنيهم في الأيّام القليلة العِدّة، والفِكْرة القصيرة المُدّة، ولكنَّهم من بين مغمورٍ بالجَهْل، ومفْتُون بالعُجْب، ومعدولٍ بالهوى عن باب التثبُّت، ومصروفٍ بسوء العادة عن فَضْلِ التَّعلُّم، وقد جَمَع محمَّد بنُ عليّ بن الحسين صلاحَ شأن الدُّنيا بحذافيرها في كلمتين، فقال: صلاحُ شأن جميعِ التّعايُشِ والتعاشر، مِلءُ مكيالٍ ثلثاه فِطنة، وثلثُه تغافُل، فلم يجعَلْ لغير الفِطنة نصيبًا من الخير، ولا حظًّا في الصلاح؛ لأنّ الإنسان لا يتغافل إلا عن شيءٍ قد فَطِن له وعَرَفه، وذكر هذه الثلاثة الأخبارَ إبراهيمُ بنُ داحَة، عن محمَّد بن عمير، وذكرها صالح بن عليّ الأفقم، عن محمد بن عُمَيْر، وهؤلاء جميعًا من مشايخ الشِّيَع، وكان ابنُ عمير أغْلاهم، وأخبرني إبراهيمُ بن السِّنْديّ، عن عليّ بن صالحٍ الحاجب، عن العباس بن محمد قال: قيل لعبد الله ابن عبّاس: أنَّى لك هذا العِلمُ؟ قال: قلبٌ عَقُولٌ، ولسانٌ سَؤُول، وقد روَوْا هذا الكلامَ عَن دَغفَل بن حنظلةَ العلّامة وعبدُ الله أوْلَى به منه، والدّليل على ذلك قولُ الحسن: إنّ أوّلَ مَن عرَّف بالبَصرة ابنُ عباسٍ، صعد المنبر فقرأ سورةَ البقرة، ففسَّرَها حرفًا حرفًا، وكان مِثَجًّا يسيل غَرْبًا، المِثَجُّ: السائل الكثير، وهو من الثَّجّاج، والغَرْب، ها هنا: الدَّوّام، هشام بن حسّانَ وغيرُه، قال: قيل للحسن: يا أبا سعيد، إنّ قَومًا زعمُوا أنّك تذمُّ ابنَ عباسٍ، قالوا: فبكى حتَّى اخضلَّت لحيتُه، ثم قال: إنّ ابنَ عباسٍ كان من الإسلام بمكان، إنّ ابن عبّاس

كان مـن القرآنِ بمـكان، وكان والله له لسـانٌ سَؤُولٌ، وقلب عَقُـول، وكان والله، مِثَجًّا يسيل غَرْبًا.

قالـوا: وقال عليٌّ بـن عبد الله بن عباس: من لم يجد مَسَّ الجهل في عقله، وذُلَّ المعصيـة في قلبـه، ولم يَستبِنْ موضع الخَلَّةِ في لسانـه، عند كلال حَدِّه عن حَـدِّ خَصمه، فليس ممّن يَنْزِع عن ريبة، ولا يَرغبُ عن حال مَعْجَزةٍ، ولا يكترث لفَصْلِ ما بين حُجة وشُبهةٍ.

قالوا: وذكَر محمَّدُ بن عليّ بن عبد الله بن عباس، بلاغَةَ بعض أهلِه فقال: إنيٌّ لأكْـرهُ أن يكـون مقدارُ لسانـه فاضلاً على مقدار عِلمه، كمـا أكره أن يكون مقدارُ علمه فاضلاً على مقدار عقله[1].

وهذا كلامٌ شريفٌ نافع، فاحفظوا لفْظَه وتدبَّرُوا معناه، ثمّ اعلموا أنّ المعنى الحقـيرَ الفاسـدَ، والدنيَّ الساقـط، يعشِّش في القلب، ثم يَبيض ثـم يفرِّخ، فإذا ضَـرَب بجرانِهِ ومَكَّن لعُروقه، استفحل الفساد وبَزَل، وتمكّن الجهل وقَرَحَ، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤُه ؛ لأنّ اللفظَ الهجينَ الرديّ، والمستكْرَهَ الغبِيّ، أعلَقُ باللِّسـان، وآلف للسمع، وأشدُّ التحامًا بالقلب من اللفظ النَّبِيه الشّريف، والمعنى الرَّفيع الكريم، ولـو جالَسْتَ الجُهّالَ والنَّوْكى، والسُّخَفاءَ والحمقَى، شهرًا فقط، لم تَنْقَ من أوضار كلامهم، وخَبَال معانيهم، بمجالَسة أهل البيان والعقل دهرًا ؛ لأنّ الفسادَ أسرعُ إلى النَّاس، وأشَدُّ التحامًا بالطبائع، والإنسانُ بالتّعلُّم والتكلُّف، وبطُول الاختلاف إلى العلماء، ومدارَسَةِ كُتُبِ الحكماء، يَجُودُ لفظُه ويحسُن أدبُه، وهـو لا يحتـاج في الجهل إلى أكثَر من ترك التعلُّم، وفي فساد البيان إلى أكثر من تـرك التخيُّر، وممـا يؤكِّد قولَ محمّد بن عليّ بن عبد الله بـن عبّاس، قولُ بعض

(١) المصدر السابق ١/٢٦.

الحكمـاء حين قيل له: متـى يكون الأدبُ شـرًّا مِن عدمه؟ قـال: إذا كثُر الأدب، ونَقَصَـت القريحة، وقد قال بعضُ الأوَّلين: مَن لم يكن عقلُه أغلبَ خصال الخَير عليه، كان حتْفُه في أغلَب خصال الخير عليه، وهذا كلّه قريبٌ بعضُه من بعض.

وذكـر المغيرةُ بن شُعْبة عُمَر بنَ الخطّـاب -رحمه الله-، فقال: كان والله، أفضَلَ من أن يَخْدَع، وأعْقَلَ من أن يُخْدَع.

وقال محمّد بن عليّ بن عبدالله بن عباس: كفَاكَ مِن عِلْمِ الدين أن تعرِف ما لا يسَعُ جَهلُه، وكفاك مِن علم الأدب أن تروِي الشّاهدَ والمَثل.

وكان عبدُالرحمـنِ بنُ إسحـاقَ القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة، قـال: سمعتُ أبا مسلم يقول: سمِعـت الإمام إبراهيمَ بنَ محمّدٍ يقول: يكفي من حـظِّ البلاغة ألا يُؤتَى السَّامعُ من سوء إفهام النَّاطق، ولا يُؤتَى النَّاطقُ من سوء فهم السَّامع.

قـال أبـو عثمان: أما أنـا فأستحسنُ هـذا القَوْلَ جدًّا، بسـم الله الرحمن الرحيـم الحمـد لله، ولا حول ولا قُـوَّة إلّا بالله، وصلّى الله علـى محمّدٍ خاصَّة، وعلـى أنبيائِه عامة، خبَّرني أبو الزُّبير كاتـبُ محمَّدِ بن حَسَّان، وحدّثني محمد ابن أبان ولا أدري كاتب مَن كان - قالا: قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟

قال: معرفة الفَصْل من الوصل.

وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟

قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكَلام.

وقيـل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسـن الاقتضاب عند البداهة، والغَزارة يَوْمَ الإطالة، وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟

قال: وضُوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.

وقال بعضُ أهل الهند: جِمَاع البلاغة البَصر بالحُجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحُجة، والمعرفة بمواضع الفُرصة، أن تدَعَ الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاحُ أوعَرَ طريقةً، وربما كان الإضرابُ عنها صفحًا أبلَغَ في الدَّرَك، وأحقَّ بالظَّفَر، قال: وقال مَرَّةً: جِمَاع البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفةُ بساعات القول، وقلة الخَرَقِ بما التبَسَ من المعاني أو غَمُضَ، وبما شَرَد عليك من اللّفظ أو تعذّر، ثم قال: وزَينُ ذلك كلّه، وبهاؤُه وحلاوتُه وسناؤُه، أن تكون الشّمائلُ موزونةً، والألفاظُ معدَّلةً، واللهجة نقيَّة، فإنّ جامَعَ ذلك السنُّ، والسمتُ، والجمال، وطولُ الصَّمت، فقد تَمَّ كلَّ التمام، وكمل كلَّ الكمال، وخالَفَ عليه سهلُ بن هارونَ في ذلك، وكان سهلٌ في نفسه عتيقَ الوجه، وحسنَ الشّارةِ، بعيدًا من الفَدَامة، معتدل القامة، مقبول الصُّورة، يُقضَى له بالحكمة قبل الخبرة، وبِرقّةِ الذِّهن قبل المخاطبة، وبدقّة المذهب قبل الامتحان، وبالنُّبْل قبل التكشُّف، فلم يمنَعْه ذلك أن يقول ما هو الحقُّ عِنده، وإن أدخَلَ ذلك على حالِه النَّقْص[1].

وقال الجاحظ: للكلام غايةٌ، ولنشاط السَّامعين نِهاية، وما فَضَل عن قدْر الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والمَلَال، فذلك الفاضل هو الهَذَر، وهو الخَطَل، وهو الإسهاب الذي سمِعتَ الحكماءَ يَعيبُونه.

قال: كان مطرِّف بن عبد الله يقول: لا تُطعِم طعامَك مَن لا يشتهيه، يقول: لا تُقبِلْ بحديثك على مَن لا يقبلُ عليه بوجهه.

وقال عبدُ الله بنُ مسعود: حَدِّث النّاسَ ما حَدَجُوك بأبصارهم، وأذِنُوا لك بأسماعِهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فأمْسِكْ.

هذا كلامٌ يُكتَفى بأُولاه، ويُشتَفَى بأُخراه.

(١) المصدر السابق: ص ٢٦- ٣١.

وقال آخر:

إنَّ الكلامَ مِنَ الفؤادِ وإنمَّا ... جُعِلَ اللّسانُ على الفؤاد دليلا
لا يُعجِبنّك من خطيب قولُهُ ... حتّى يكونَ مع البيان أصيلا

وقال نُصَيبٌ، مولى عبد العزيز بن مروان:

يقول فيُحسنُ القولَ ابنُ لَيلَى ... ويفعل فوقَ أحْسَنِ ما يقولُ

وقال آخر:

فتىً مثلُ صَفْو الماء ليس بباخلٍ ... عليك ولا مُهْدٍ مَلامًا لَبَاخِل
ولا قائلٍ عَوْراءَ تؤذِي جليسَه ... ولا رافع رأسًا بعوراء قائِل
ولا مُسْلِمٍ مولىً لأمرٍ يُصيبُه ... ولا خالطٍ حقًّا مصيبًا بباطل
ولا رافعٍ أحدوثَة السَّوءِ مُعْجبًا ... بها بين أيدِي المجلسِ المتقابِل

وسمع الأحنفُ رجلاً يقول: التعلُّم في الصِّغَر كالنَّقش في الحجر.

فقال الأحنف: الكبيرُ أكبرُ عقلاً، ولكنه أَشْغَل قلبًا.

يكتب الرَّجلُ أحسنَ ما يسمع، ويحفظ أحسن ما يكتب، وكان يقال: اجعل ما في كتبك بيتَ مال، وما في قلبك للنَّفَقة.

وقال أَعرابيّ: حَرْفٌ في قلبك خير من عشرة في طُومارك.

ولبشّار أيضًا:

وكأنَّ رَفْضَ حديثها ... قِطَعُ الرّياض كُسِين زَهْرا
وتخالُ ما جَمَعت عليه ... ثيابَها ذهبًا وعِطرا
وكأنّ تحتَ لسانِها ... هاروتَ ينفُثُ فيه سِحرا

وقال بشّار:

وحـديـث كـأنـه قِـطَـعُ الـرو ... ض وفيه الصّفراءُ والحمراءُ

وقال الهُذَليُّ أيضًا:

وإنّ حديثًا منكِ لو تبذلينَهُ ... جَنَى النَّحْلِ أو ألبانُ عُوذٍ مَطَافِلِ

مطافيلَ أبْكارِ حديثٍ نتاجُها ... تُشاب بماءٍ مثل ماء المَفَاصِلِ

وقال القُطَاميُّ:

وفي الخدور غماماتٌ بَرَقن لنا ... حَتَّى تصيّدْنَنَا من كلّ مُصْطَادِ

يقتُلْنَنا بحديثٍ ليس يَعلَمُه ... مَن يتّقينَ ولا مكنونُهُ بادِي

فهنَّ ينبِذْنَ من قول يُصِبنَ به ... مَواقعَ الماء من ذي الغُلّةِ الصَّادِي

يَنبِذْن: يُلقِين، الغُلّة والغليل: العطش الشّديد، والصادي: العَطشان أيضًا؛ والاسمُ الصَّدَى.

وأنشد أبو العميثل عبد الله بن خليد:

وإنّا لنُجري بيننا حين نلتقي ... حديثًا له وشْيٌ كَحِبْرِ المَطَارِفِ

حديث كطعم القَطْرِ في المَحْلِ يُشْتَفَى ... به من جوىً في داخل القلب لاطِفِ

المَحْل: الجدب، وسنةٌ مَحولٌ، وأمحل البلد فهو ماحل ومُمحِل، وزمانٌ ماحلٌ وممحِل، الجوى ها هنا: شدّة الحبّ حتى يمرَضَ صاحبُه، لاطِفٌ: لطيف.

وقال جِرَان العَود:

فنِلنا سقاطًا من حديث كأنّه ... جَنَى النحل أو أبكارُ كَرْمٍ يُقطَّفُ [1]

(١) جميع هذه الأقوال والأشعار وردت في البيان والتبيين: ص ٣١- ٧٦.

سرعـة البديهـة: ورد في أدب الكتاب للصـولي[1]: وجاء يومًا عبد الله بن المعتـز في المسجد الجامع إلى أبـي العباس أحمد بن يحيى ليسلم عليه، فقام له وأجلسه مكانه، فداس ابن المعتز قلمًا فكسره، فلما جلس قال لمن حوله:

لكفيّ وتـر عنـد رجْـلِـي لأنَّهـا أثـارت قتيلاً مـا لأعظُمِـه جبرُ

فعجب الناس من سرعة بديهته!.

قال ابن المقفع في الأدب الكبير والأدب الصغير[2]: انظر أين تضع نفسك؟ الواصفون أكثرُ من العارفين، والعارفون أكثرُ من الفاعلينَ.

فلينظرُ امرؤ أين يضعُ نفسه. فإن لكل امرئ لم تدخل عليه آفةً نصيبًا من اللـب يعيشُ به، لا يُحب أن لهُ به مـن الدنيا ثمنًا. وليس كل ذي نصيبٍ من اللب بمستوجـبٍ أن يسمـى في ذوي الألبابِ، ولا يوصفُ بصفاتهم. فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصفِ أهلاً، فليأخذ له عتاده وليعد له طول أيامه، وليؤثره على أهوائهِ. فإنهُ قد رام أمرًا جسيمًا لا يصلحُ على الغفلة، ولا يدركُ بالعجزة، ولا يصيرُ على الأثرةِ. وليس كسائرِ أمورِ الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها التي قد يدركُ منها المتواني ما يفوتُ الثابرُ، ويصيبُ منها العاجزُ ما يخطئ الحازمُ.

بالأدب تعمرُ القلوبُ، وبالعلمِ تستحكمُ الأحلامُ.

ماذا يجب على المرء؟

ليكنِ المرء سؤولاً، وليكن فصولاً بين الحق والباطل، وليكن صدوقًا؛ ليؤمن علـى ما قال، وليكن ذا عهـد ليوفي لهُ بعهده، وليكن شكـورًا ليستوجب الزيادة، وليكن جوادًا ليكون للخير أهـلاً، وليكن رحيمًا بالمضرورين؛ لئلا يبتلى بالضر،

(١) أدب الكتاب ١/١٥.

(٢) الأدب الكبير والصغير: ص ١- ٢٧.

وليكـن ودودًا؛ لئـلا يكون معدنًا لأخـلاق الشيطان، وليكن متواضعًـا؛ ليفرح لهُ بالخـير ولا يُحسد عليه، وليكن قنعًا؛ لتقرّ عينه بما أوتي، وليسر للناسِ بالخيرِ؛ لئـلا يؤذيـه الحسدُ، وليكن حذرًا؛ لئـلا تطول مخافتهُ، ولا يكونـن حقودًا؛ لئلا يضرّ بنفسهِ إضرارًا باقيًا، وليكن ذا حياء؛ لئلا يستذم إلى العُلماء.

فالرأيُ والأدبُ زوجٌ، لا يكملُ الرأي بغيرِ الأدبِ، ولا يكملُ الأدبُ إلا بالرأي.

تحفـظ في مجلسك وكلامكَ من التطاولِ علـى الأصحابِ، وطب نفسًا عن كثيرٍ مما يعرضُ لـك فيهِ صوابُ القولِ والرأي، مُداراةً؛ لئلا يظن أصحابكَ أن دأبكَ التطاوُلُ عليهم.

حسن الاستماع:

تعلم حسنَ الاستماعِ، كما تتعلمُ حسنَ الكلامِ. ومن حسنِ الاستماع إمهالُ المتكلمِ حتى ينقضي حديثهُ، وقلـة التلفت إلى الجوابِ، والإقبالُ بالوجهِ والنظر إلى المتكلمِ، والوعي لما يقولُ.

واعلـم، فيما تكلمُ بهِ صاحبكَ، أن مما يهجـنُ صوابَ ما يأتي به، ويذهبُ بطعمهِ وبهجتهِ، ويـزري به في قبولهِ، عجلتكَ بذلك، وقطعك حديثَ الرجل قبل أن يفضي إليك بذاتِ نفسهِ.

ومـن الأخلاقِ التي أنتَ جديرٌ بتركها، إذا حـدث الرجلُ حديثًا تعرفهُ، ألا تسابقـهُ إليه وتفتحهُ عليهِ، وتشاركهُ فيـه، حتى كأنكَ تظهر للناس أنك تريدُ أن يعلموا أنكَ تعلمُ مثل الذي يعلمُ.

وما عليكَ أن تهنئهُ بذلكَ وتفرده به.

قـال ابن المقفع: أما بعد، فإن لكل مخلوقٍ حاجـةً، ولكل حاجةٍ غايةً، ولكل غايـة سبيـلًا. والله وقَّت للأمُـور أقدارهـا، وهيـأ إلى الغايات سبلهـا، وسبب الحاجات ببلاغها.

فغايـةُ الناسِ وحاجاتهم صلاحُ المعاشِ والمعـاد، والسبيل إلى دركها العقل الصحيح. وأمارةُ صحةِ العقلِ اختيارُ الأمورِ بالبصرِ، وتنفيذُ البصرِ بالعزمِ.

لبعض الأكابر:

مـا وهـب الله لامـرئ هبـة أحسـن مـن عقلـه ومـن أدبـه

هـما جمـال الفتـى فـإن فُقِـدا ففقـده للحيـاة أجمـل بـه[1]

سمع أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا يتكلم بما لا يعنيه، فقال: يا هذا، إنما تملي على كاتبيك كتابًا إلى ربك.

سرعة البديهة من ثمرات الأوراق:

المهدي والقاضي شريك:

ومـن ذلك مـا روي عن المهدي، وهو أن شريك بـن عبد الله القاضي دخل عليـه يومًا، فأراد المهدي أن يبخـره، فقال للخادم أحضر للقاضي عودًا، فذهب الخـادم فجاء بالعود الذي يلهى به، فوضعه في حجر شريك، فاضطرب شريك من ذلك.

وقال: ما هذا، يا أمير المؤمنين؟

قـال: عود أخذه صاحب العسس البارحـة، فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضي.

(١) الأدب الصغير: ص ١- ٢٧.

فقال شريك: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين.

ثم أفاضوا في الحديث، حتى نسي الأمر.

فقال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلًا له أن يأتي بشيء بعينه فجاء بغيره، فتلف ذلك الشيء؟

فقال للخادم: اضمن ما أتلفت.

مثله ما نقل عن ذكاء إياس الذي سارت به الركبان:

قيل: إن رجلًا استودع أمينَ إياسٍ مالًا، وخرج المودع إلى الحجاز، فلما رجع طلبه، فجحده، فأتى إياسًا فأخبره.

فقال له إياس: أعلمته أنك أتيتني؟

قال: لا.

قال: أفنازعته عند غيري؟

قال: لا.

قال: فانصرف، واكتم سرك، ثم عد إلي بعد يومين.

فمضى الرجل، ودعا إياس أمينه، فقال: قد حضر عندنا مال كثير، أريد أن أسلمه إليك، أفحصين منزلك؟

قال: نعم.

قال: فأعد موضعًا للمال، وقومًا يحملونه.

وعاد الرجل إلى إياس.

فقـال: انطلـق إلى صاحبـك، فـإن جحـد، فقـل لـه: إني أخـبر القاضي بالقصة.

فأتـى الرجـل صاحبه، فقـال: تعطيني الوديعـة أو أشكـوك إلى القاضي، وأخبره بالحال، فدفع إليه المال، فرجع الرجل وأخبر إياسًا،

وقال: أعطاني الوديعة.

وجـاء الأمين إلى إياس ليأخذ المال الموعود به، فزجره، وقال له: لا تقربني بعد هذا يا خائن.

ذكاء في القضاء:

ومثلـه أنه ولِّي القضاء رجـل مشهور الدين والذكاء المفـرط، فجاءه رجل استودع بعض الشهود كيسًا مختومًا، ذكر أن فيه ألف دينار، فلما حصل الكيس عنـد الشاهـد وطالت غيبته، ظـن أنه قد مـات، فهمَّ بإنفاق المـال، وخشي من مجـيء صاحبه، ففتق الكيس من أسفلـه، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم، وأعاد الخياطة كما كانت.

فقدر أن الرجل حضر إلى واسط، وطالب الشاهد بوديعته، فأعطاه الكيس بختمـه، فلما حصـل في منـزله، فضَّ ختمه، فإذا في الكيـس دراهم، فرجع إلى الشاهد، وقال له: أردد علي مالي، فإني أودعتك دنانير، والذي وجدت دراهم.

فأنكر، فاستدعى عليه إلى القاضي المتقدم ذكره، فلما حضرا بين يديه،

قال الحاكم للمستودع: منذ كم أودعك الكيس؟

قال منذ خمس عشرة سنة.

فقال القاضي لصاحب الكيس: أحضر لي الدراهم.فأحضرها.

فقال القاضي للشهود: اعتبروا تواريخ الدراهم.

فقرؤوا سككها، فإذا منها ما له سنتان، وثلاث سنين ونحو ذلك، فأمره أن يدفع له الدنانير.

فدفعها، وعزله القاضي، وأطاف به البلد وأسقطه.

ومثله بل أغرب منه أن رجلاً استودع رجلاً مالاً، ثم طلبه، فجحده، فخاصمه إلى إياس وقال المدعي: إني أطالبه بمال أودعته إياه، وقدره كذا وكذا.

فقال له إياس: ومن حضرك؟

قال: كان رب العزة حاضرًا.

قال: دفعته إليه في أي مكان؟

قال: في موضع كذا.

قال: فأي شيء تعهده من ذلك الموضع؟

قال: شجرة عظيمة.

قال: فانطلق إلى الموضع، وانظر إلى الشجرة؛ لعل الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك أو لعلك دفنت مالك تحت الشجرة، فنسيت فتذكره إذا رأيت الشجرة.

فمضى الرجل مسرعًا.

فقال إياس للرجل المدعى عليه: اقعد حتى يرجع خصمك.

فجلس، وإياس يقضي بين الناس، ونظر إليه بعد ذلك، ثم قال له: يا هذا، أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكرها؟

قال: لا.

فقال له: والله، يا عدو الله، إنك لخائن.

فقال: أقلني أقالك الله يا أمير المؤمنين.

فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل.

فقال إياس: قد أقر بحقك فخذه [1].

قال ابن الأثير في المثل السائر[2]:

حفظ القرآن الكريم:

وأما النوع السادس: وهو حفظ القرآن الكريم فإن صاحب هذه الصناعة ينبغي له أن يكون عارفًا بذلك؛ لأن فيه فوائد كثيرة، منها أنه يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق، ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحرًا يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه، كما فعلته أنا فيما أنشأته من المكاتبات، وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام، فعليك أيها المتوشح لهذه الصناعة، بحفظه والفحص عن سره وغامض رموزه وإشاراته، فإنه تجارة لن تبور، ومنبع لا يغور، وكنز يرجع إليه، وذخر يعول عليه.

قال الثعالبي في سحر البلاغة وسر البراعة[3]:

ذكر القرآن:

حبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظله العميم، وصراطه المستقيم، وحجته الكبرى، ومحجته الوضحى، هو الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي من استضاء

---

(١) ثمرات الأوراق.

(٢) المثل السائر ١١/١.

(٣) سحر البلاغة ١١/١.

بمصابيحه أبصر ونجا، ومن أعرض عنها زل وهوى، فضائل القرآن لا تستقصى في ألف قرآن. حجة الله وعهده، ووعيده ووعده، به يعلم الله الجاهل، ويعمل العاقل، وينتبه الساهي، ويتذكر اللاهي بشير الثواب، ونذير العقاب، وشفاء الصدور، وجلاء الأمور. ومن فضائله أنه يقرأ دائبًا، ويكتب ويمل فلا يمل. ما أهون الدنيا على من جعل القرآن إمامه، وتصور الموت أمامه. طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه، ومفتاح لبه. من خلق القرآن حفظ ترتيبه، وحسن ترتيله.

جاء في العمدة لابن رشيق[1]: باب المبدأ والخروج والنهاية، قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر: لقد طار اسمك واشتهر.

فقال: لأنني أقللت الحز، وطبقت المفصل، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم، ولطف الخروج إلى المدح والهجاء، وقد صدق؛ لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى المديح، سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس؛ لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها.

وأنشد ابن عائشة قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

قلدتك الشعر يا سلامة، ذا ... فايش، والشيء حيث ما جعلا

والشعر يستنزل الكريم كما ... ينزل رعد السحابة السبلا

جاء في رسائل الجاحظ:

فصل من صدر كتابه في صناعة الكلام: ذكرت - حفظك الله - تفضيلك صناعة الكلام، والذي خصصت به مذهب النظام، وشغفك بالمبالغة في النظر، وصبابتك بتهذيب النحل، مع أنسك بالجماعة، ووحشتك من الفرقة، والذي

(١) انظر العمدة ١/ ٢٧- ٢٨.

تم عليه عزمك من إدامة البحث والتنقير، ومن حمل النفس على مكروهها من التفكير، ومن الانتساب إليهم والتعرف بهم.

والذي تهيأ لك من الاحتساب في الأجر، والرغبة في صالح الذكر، والذي رأيت من النصب للرافضة والمارقة، وطول مفارقة المرجئة والنابتة، ولكل من اعترض عليهم، وانحرف عنهم، والذي يخص به الجبرية ويعم به المشبهة.

فيا أيها المتكلم الجماعي، والمتفقه السني، والنظار المعتزلي، الذي سمت همته إلى صناعة الكلام مع إدبار الدنيا عنها، واحتمل ما في التعرض للعوام من الثواب عليها، ولم يقنعه من الأديان إلا الخالص الممتحن، ولا من النحل إلا الإبريز المهذب، ولا من التمييز إلا المحض المصفى.

والذي رغب بنفسه عن تقليد الأغمار والحشوة، كما رغب عن ادعاء الإلهام والضرورة، ورغب عن ظلم القياس بقدر رغبته في شرف اليقين: إن صناعة الكلام علق نفيس، وجوهر ثمين، وهو الكنز الذي لا يفنى ولا يبلى، والصاحب الذي لا يمل ولا يغلّ، وهو العيار على كل صناعة، والزمام على كل عبارة، والقسطاس الذي به يستبان نقصان كل شيء ورجحانه، والراووق الذي به يعرف صفاء كل شيء وكدره، والذي كل أهل علم عليه عيال، وهو لكل تحصيل آلة ومثال.

ألا إنه ثغر والثغر محروس، وحمىً والحمى ممنوع، والحرم مصون، ولن تصونه إلا بابتذال نفسك دونه، ولن تمنعه إلا بأن تجود بمهجتك ومجهودك، ولن تحرسه إلا بالمخاطرة فيه. والثواب على قدر المشقة، والتوفيق على مقدار حسن النية.

وكيف لا يكون حرمًا، وبه عرفنا حرمة الشهر الحرام والحلال المنزل، والحرام المفصل؟! وكيف لا يكون ثغرًا، وكل الناس لأهله عدو، وكل الأمم له مطالب.

وأحـق الشـيء بالتعظيم، وأولاه بـأن يحتمل فيه كل عظيم مـا كان مسلمًا إلى معرفـة الصغير والكبـير، والحقير والخطير، وأداة لإظهـار الغامض، وآلة لتخليص الغاشية، وسببًا للإيجاز يوم الإيجاز، والإطناب يوم الإطناب.

وبـه يستدل على صرف ما بين الشرين مـن النقصان، وعلى فضل ما بين الخيرين من الرجحـان، والذي يصنع في العقول من العبارة، وإعطاء الآلة مثل صنيع العقل في الروح، ومثل صنيع الروح في البدن.

وأي شيء أعظم من شيء لولا مكانه لم يثبت للرب ربوبية، ولا لنبي حجة، ولم يفصل بين حجة وشبهة، وبين الدليل وما يتخيل في صورة الدليل. وبه يعرف الجماعة من الفرقة، والسنة من البدعة، والشذوذ من الاستفاضة.

واعلـم أن لصناعة الكلام آفات كثـيرة، وضروبًا من المكروه عجيبة، منها ما هو ظاهر للعيون والعقول، ومنها ما يدرك بالعقول ولا يظهر للعيون، وبعضها وإن لم يظهـر للعيـون وكان مما يظهـر للعقول فإنه لا يظهـر إلا لكل عقل سليم جيد التركيـب، وذهن صحيح خالص الجوهر، ثم لا يدركه أيضًا إلا بعد إدمان الفكـر، وإلا بعد دراسة الكتب، وإلا بعد مناظرة الشكل الباهر، والمعلم الصابر. فإن أراد المبالغة وبلوغ أقصى النهاية، فلا بد من شهوة قوية، ومن تفضيله على كل صناعة، مع اليقين بأنه متى اجتهد أنجح، ومتى أدمن قرع الباب ولج.

فإذا أعطى العلم حقه من الرغبة فيه، أعطاه حقه من الثواب عليه.

ومـن آفات صناعة الكلام أن يرى من أحسن بعضها أنه قد أحسنها كلها، وكل مـن خاصم فيها ظن أنـه فوق من خاصمه، حتى يرى المبتدئ أنه كالمنتهي، ويخيل إلى الغبي أنه فوق الذكي. وأيضًا أنه يعرض عن أهله، وينصب لأصحابه مـن لم ينظـر في علم قـط، ولم يخض في أدب منذ كان، ولم يـدرِ ما التمثيل ولا التحصيل، ولا فرق ما بين الإهمال والتفكير.

وهـذه الآفات لا تعتري الحساب ولا الكتاب، ولا أصحاب النحو والعروض، ولا أصحاب الخبر وحمال السير، ولا حفاظ الآثار ولا رواة الأشعار، ولا أصحاب الفرائض، ولا الخطباء ولا الشعراء، ولا أصحاب الأحكام، ومن يفتي في الحلال والحرام، ولا أصحـاب التأويل، ولا الأطباء ولا المنجمين ولا المهندسين، ولا لذي صناعة ولا لذي تجارة، ولا لذي عيلة ولا لذي مسألة.

فهـم لهذه البليـة مخصوصون، وعليهـا مقصورون، فللصابـر منهم من الأجـر حسب ما خص به مـن الصبر. وهي الصناعة لا يـكاد تظهر قوتها، ولا يبلغ أقصاها، إلا مع حضور الخصم.

ولا يـكاد الخصم يبلغ محبته منهـا إلا برفع الصوت وحركة اليد، ولا يكاد اجتماعهمـا يكـون إلا في المحفل العظيـم، والاحتشاد من الخصـوم، ولا تحتفل نفوسهمـا، ولا تجتمع قوتهما، ولا تجود القوة بمكنونها، وتعطي أقصى ذخيرتها التـي استخزنت ليوم فقرها وحاجتها، إلا يوم جمـع وساعة حفل، وهذه الحال داعية إلى حب الغلبة.

وليس شيء أدعى إلى التغلب من حب الغلبة. وطول رفع الصوت مع التغلب، وإفسـاد التغلب طباع المفسد، يوجبان فسـاد النية، ويمنعان من درك الحقيقة. ومتى خرجا من حد الاعتدال أخطأا جهة القصد.

وعلـم الكلام بعد ملقىً من الظلم، متاح له الهضم. فهو أبدًا محمول عليه ومبخوس حظه وباب الظلم إليه مفتوح، لا مانع له دونه.

والعلـم بما فيه من الضرر يخفى على أكـثر العقلاء، ويغمض على جمهور الأدباء. وإذا كان ملقىً من أكبر العقلاء، ومخذولاً عند أكثر الأدباء، فما ظنك بمـن كان عقلـه ضعيفًا ونظره قصـيرًا؟ بل ما ظنـك بالظلوم الغـادر، والغمر

الجاسر؟ فهذا سبيل العوام فيه، وجهل عوام الخواص به، وانحرافهم عنه، وميل الملوك عليه، وعداوة بعض لبعض فيه.

وصناعة الكلام كثيرة الدخلاء والأدعياء، قليلة الخلص والأصفياء، والنجابة فيها غريبة، والشروط التي تستحكم بها الصناعة بعيدة سحيقة؛ ولدعي القوم من العجز ما ليس لصحيحهم، ولردي الطبع في صناعة الكلام من ادعاء المعرفة ما ليس للمطبوع عليها منهم، بل لا تكاد تجده إلا مغمورًا بالحشوة مقصودًا بمخاتل السفلة.

ومن مظالم صناعة الكلام عند أصحاب الصناعات أن أصحاب الحساب والهندسة يزعمون أن سبيل الكلام سبيل اجتهاد الرأي، وسبيل صواب الحدس، وفي طريق التقريب والتمويه، وأنه ليس العلم إلا ما كان طبيعيًّا واضطراريًّا لا تأويل له، ولا يحتمل معناه الوجوه المشتركة، ولا يتنازع ألفاظه الحدود المتشابهة.

ويزعمون أنه ليس بين علمهم بالشيء الواحد أنه شيء واحد، وأنه غير صاحبه فرق في معنى الإتقان والاستبانة، وثلج الصدور والحكم بغاية الثقة.

فلو كان هذا المهندس الذي أبرم قضيته، وهذا الحاسب الذي قد شهر حكومته، نظر في الكلام بعقل صحيح وقريحة جيدة، وطبيعة مناسبة، وعناية تامة، وأعوان صدق وقلة شواغل، وشهوة للعلم، ويقين بالإصابة، لكان تهيب الحكم أزين به، والتوقي أولى به. فكيف بمن لا يكون عرف من صناعة الكلام ما يعرفه المقتصد فيه، والمتوسط له؟.

على أنا ما وجدنا مهندسًا قط، ولا رأينا حاسبًا يقول ذلك، إلا وهو ممن لا يتوقى سرف القول، ولا يشفق من لائمة المحصلين، وقضيته قضية من قد عرف

الحقائق، واستبان العواقب، ووزن الأمور كلها، وعجم المعاني بأسرها، وعلم من أين وثق كل واثق، ومن أين غر كل مغرور.

وعلى أنهم يقرون أن في الحساب ما لا يعلم، وأن في الهندسة ما لا يدرك ولا يفهم. والمتكلمون لا يقرون بذلك العجز في صناعتهم، وبذلك النقص في غرائزهم.

وأقول: إنه لو لم يكن في المتكلمين من الفضل إلا أنهم قد رأوا إدبار الدنيا عن علم الكلام، وإقبالها إلى الفتيا والأحكام، وإجماع الرعية والراعي على إغناء المفتي، وعلم الفتوى فرع؛ وإطباقهم على حرمان المتكلم، وعلم الكلام أصل، فلم يتركوا مع ذلك تكلفه، وشحت نفوسهم عن ذلك الحظ؛ مخافة إدخال الضيم على علم الأصل، وإشفاقًا من ألا تسع طبائعهم اجتماع الأصل والفرع، فكان الفقر والقلة آثر عندهم مع إحكام الأصول، من الغنى والكثرة، مع حفظ الفروع، فتركوا أن يكونوا قضاة، وتركوا القضاة وتعديلهم وتركوا أن يكونوا حكامًا، وقنعوا بأن يحكم عليهم، مع معرفتهم بأن آلتهم أتم، وآدابهم أكمل، وألسنتهم أحد، ونظرهم أثقب، وحفظهم أحضر، وموضع حفظهم أحصن.

والمتكلم اسم يشتمل على ما بين الأزرقي والغالي، وعلى مادونها من الخارجي والرافضي، بل على جميع الشيعة وأصناف المعتزلة، بل على جميع المرجئة وأهل المذاهب الشاذة.

وجاء في أدب الخواص [1]: واللسان جارحة يكمل بها النطق و المذاق، فما على من تكلم بما لا يعنيه، و في غير موقعه أن يتذوق ما لم يحصل في قرارة فمه، وأن يتمطق بالهواء طول دهره، و أن يعاتب ماضغه، ويصرف بأنيابه في غير

(١) أدب الخواص ٢/١.

ساعـة اغتدائـه، على أنه لو استحسن ذلك لما وجـب أن يستحسن إدامة الكلام لغير حينه، واللهج من القول بما لا ينفعه في شيء من أمره؛ لأن الأول قبيح وغير ضـار، والثاني قبيح وضار، وفاحش قتال، وهو أصل المضرة بـالأذى، وكما هو أصل المضرة بالعيب فهو موجه بالمعرة، ومعهم مخول في المساءة.

واللسان عضو مثل اليد والرجل، فما على من تكلم عاجزًا عن ملك لسانه، وملقيًـا إلى التهلكة الخرق والجهل بيده، أن يعبث بأنامله دائمًا لغير بطش، وأن يلبـط بقدمـه سرمدًا لغير سعي، ثـم يطرد المقياس عليه بـأن ينغض برأسه في جميع أوقاته، وأن يواقح به كل صفات تبدو لعينه.

قـد علم الله، وعلـم العالمون أن الآفـة ليست شيئًا غير العجـز والتعاجز، وغـير أن يعـود الخاطر الـوكال، ويحل عنـه ربـاط النهضة والاعتـزام، وغير الانسيـاح مع جريه الماء قبل جهـد النفس في الخلاص، والميل مع هبّة الريح من غـير أعذار بالاستمساك، ونعوذ بالله أن نخرق بنعمه فنعيدها نقمًا، وأن نفسد مثابتـه فنجعلها عقابًا، فإن اللسان نعمة من الله علـى عبده، فإن أحسن أيالته وملك تدبيره، وذلل بالرياضة جامحه، وركزه و راء قلبه، وأوطأه أعقاب تمييزه وتدبره، ولم يرسله إلا لخير في الدنيا أو لخير في الآخرة من إحراز نفع، وإزاحة مضـرة، وأقتـل الضر الـذل، فذاك هو الـذي يطب به إحسان بطبـه، ويستديم الأنعام بحسن سياسته، وإن أرسله و شأنه، وأعفاه من ولاية العقل عليه، وأجراه في الوعـث و الخبار، وأنطقـه بالصواب والمحال، أكتبه حصائـده في النار على وجهـه، بعـد أن تكسوه في الدنيا ليط عار لا ينسل منه، و تحوش له من العداوات منـزعجًا لا قرار معه، كما قال أبو عبد الله محمد بن ميسرة، وكان بليغًا شاعرًا وفقيهًا ناسكًا، وصاحب نظر وتأمل، وبيان وتبحر:

أكـــثر مـــن الـصـديـق لـــكـــل يـــــوم ضـــيـــق
مـــن أكـــــثر الـــعـــدوا لم يـســـتـطـع هـــدوا

وقال آخر:

ومـا أودعـــت أحـشـاء الـلـيـالي أضـر عليك مـن حقد الـرجـال

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي:

لا تـأمـنن امـرأً أسكنت مهجته غيظًا وإن قيل: إن الجرح يندمل
واقبل جميل الذي يبدي وجار به وليحرسنك من أفعاله الرجل

وقال حريث بن جابر الخنفي:

لا تـأمـنن الـدهـر حـرًا ظلمته وإن نمت فاعلم أنـه غير نائم
إذا كـان ذا عـودٍ صليب ومـرةٍ ركوبًا لإحـنـاء الأمـور العظائم

و قال آخر محدث:

نم عـــن مـــعـــاداة الـــرجـــا ل فـإنـهـا حسـك المضـاجـع
وإذا أذيـــــت فـحـــامِ عـنـد الـضـيـم مجـتـهـدًا، ومـانـع

وقال آخر في المعنى الأول:

إن كـان يعجبك السكوت فإنه قد كـان يعجب قبلك الأخـيـارا
ولـئـن نـدمـت على سكوتٍ مـرةً فلقد نـدمـت على الكلام مـرارا

كأنه منظم من قول بعض الأوائل: الندم على السكوت خير من الندم على القول.

و قال أكثم: رب قولٍ أشد من صول.

وقال أيضًا: وأحسن الصمت يكسب المحبة.

ويروى أن لقمان قال: الصمت حكم وقليل فاعله.

وقال الحسن بن علي عليه السلام، وقد ليم على كثرة الصمت: إني وجدت لساني سبعًا إن أرسلته أكلني.

وقيل لعبد العزيز بن مروان: أنت من أطول الناس لسانًا، فإذا رقيت المنبر تكلمت بكلام نزر.

فقال: إني لأستحيي من ربي عز وجل أن آمرهم بما لا أفعل.

فلا جرم أن هذا القول من عبد العزيز صيره إلى أن يقول فيه المادح، وهو نصيب مولاهم:

يقول فيحسن القول ابن ليلى ... ويفعل فوق أحسن ما يقول

فتى لا يرزأ الخلان إلاَّ ... مودتهم، ويرزؤه الخليل

وقال بعض الحكماء: من أطلق أمله فلا قنوع له، و من أطلق لسانه أهدر دمه.

وقال آخر منهم: من ضاق قلبه اتسع لسانه.

وسب رجل عابدًا، فقال العابد: لولا أن الله يسمعك لأجبتك. وهذا قول حسن.

وجاء في الصناعتين[1]: والقول في حسن الخروج والفصل والوصل وما يجري مجرى ذلك.

---

(١) كتاب الصناعتين ١/ ١٣٠.

الفصل الأول في ذكر المبادئ:

قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات، فإنهن دلائل البيان.

وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله، مما يتطيّر منه، ويستجفى من الكلام، والمخاطبة، والبكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتيت الألّاف، ونعى الشباب، وذمّ الزمان، لا سيّما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة، فإن الكلام إذا كان مؤسسًا على هذا المثال تطيّر منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح، مثل ابتداء ذي الرّمة:

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ كأنه من كلىً مفريّةٍ سربُ

وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس ابتداءه:

أربع البلى إن الخشوع لبادي عليك وإني لم أخنك ودادِي

قال فلما انتهى إلى قوله:

سلامٌ على الدّنيا إذا ما فقدتُم بني برمكٍ من رائحين وغاد

وسمعه استحكم تطيّره، وقيل: إنه لم يمضِ أسبوع حتى نكبوا.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: حدثنا الصولي، قال: حدثنا محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثني عمي عن أخيه أبي محمد، قال: لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه، وأمر أن يلبس الناسُ كلّهم الديباج، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسافسا الذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصّع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرّة اليتيمة، وفي الإيوان أسِرّة آبنوس عن

يمينــه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رتّبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم، فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم في النّشيد، فأذن له، فأنشده شعرًا ما سمع النــاس أحسن منه في صفته وصفة المجلس، إلّا أن أوله تشبيب بالديار القديمة، وبقية آثارها فكان أول بيت منها:

يـا دارُ غـيّرك البـلـى فمحـاكِ يا ليت شعري ما الّذي أبلاك

فتطـيّر المعتصم منها، وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك.

قــال: فأقمنا يومنا هذا، وانصرفنــا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سُرّ مَنْ رأى، وخرب القصر.

وأنشد البحتري أبا سعيد قصيدة، أولها:

لك الويلُ من ليلٍ تطاول آخرُه ووشـك نـوَى حـيٍّ تـزم أبـاعـرُه

فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك، فغيّره، وجعله له الويل، وهو رديء أيضًا.

وأنشد أبو مقاتل الداعي:

لا تـقـلْ بـشـرى ولـكـن بشـريان غـرّة الـداعـي ويـوم المهـرجـان

فأوجعه الداعي ضربًا.

ثم قال: هلا قلت: إن تقل بشرى فعندي بشريان.

فإن أراد أن يذكر دارًا فليذكرها كما ذكرها الخريمي:

ألا يـا دارُ دام لـك الحـبـورُ وسـاعـدك الـغـضـارةُ والـسـرورُ

وكما قال أشجع:

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ نشرت عليه جمالَها الأيامُ

وقالوا: أحسن ابتداءات الجاهلية قول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

وأحسن مرثية جاهلية ابتداء قول أوس بن حجر:

أيّتها النفس أجملِي جزعا إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

قالوا: وأحسنُ مرثية إسلامية ابتداء قول أبي تمام:

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمَعا وأصبحَ مغنى الجودِ بعدَك بلقعَا

وقول الآخر:

أنعى فتى الجود إلى الجودِ ما مثل منْ أنعَى بموجود

أنعى فتىً مصَّ الثرى بعده بقية الماء من العود

وقد بكى امرؤُ القيس واستبكى، ووقف واستوقف، وذكر الحبيبَ والمنزل في نصف بيت، وهو قوله:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل

فهو من أجود الابتداءات.

ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموءل:

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللؤمِ عرضُه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

وإنْ هوَ لم يحملْ على النفس ضيَمها فليس إلى حسنِ الثناء سبيل

وقال بعضهم: أحكم ابتداءاتهم قول لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل وكلُّ نعيم لا محالة زائل

وجاء في سر الفصاحة [1]: وما أحسن ما قال إبراهيم بن محمد المعروف بالإمام: يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا الناطق من سوء فهم السامع.

وهذا كلام مختار في تفضيل البلاغة.

وقال سهل بن هارون الكاتب: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: لما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر احتقره لما رأى من دمامته.

وقال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

فقال: أبيت اللعن أن الرجال لا تكال بالقفزان، وليست تستقي فيها، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن صال صال بجنان، وأن نطق نطق بلسان.

وجاء في صبح الأعشى[2]:

فمن أحسن ما مدح به كاتب قول ابن المعتز:

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه تفتح نورًا أو تنظم جوهرا

وقول الآخر:

يؤلف اللؤلؤ المنثور منطقه وينظم الدر بالأقلام في الكتب

---

(١) سر الفصاحة ١/٢١ .

(٢) صبح الأعشى ١/٧٥- ٧٦ .

وقول الآخر:

وكاتب يرقم في طرسه ... روضًا به ترتع ألحاظه
فالدرُّ ما تنظم أقلامه ... والسحر ما تنثر ألفاظه

وقول الآخر:

إن هز أقلامه يومًا ليعملها ... أنساك كل كمي هز عامله
وإن أقر على رق أنامله ... أقر بالرق كتاب الأنام له

وقول الآخر:

لا يخطر الفكر في كتابته ... كأن أقلامه لها خاطر
القول والفعل يجريان معًا ... لا أول فيهما ولا آخر

وقول الآخر:

وشادن من بني الكتاب مقتدر ... على البلاغة أحلى الناس إنشاء
فلا يجاريه في ميدانه أحد ... يريك سحبان في الإنشاء إن شاء

وكذلك أولعوا بذم حمقى الكتاب، ولهجوا بهجوهم في كل زمن، فمن ذلك قول بعض المتقدمين يهجو كاتبًا:

حمار في الكتابة يدعيها ... كدعوى آل حرب في زياد
فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو غرقت ثيابك في المداد

وورد: (إذا تمَّ العقلُ نقصَ الكلام [1]).

(١) هذا من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نهج البلاغة: ص٦٧٢.

الأدب في التعليم:

قال الفضل للرقاشي[1]: إنّا والله ما نعلمكم ما تجهلون، ولكنا نذكّركم ما تعلمون.

الكلام في غير موضعه:

أول من استعمل (أمّا قبل) أبو العبر[2].

كان الربيع بن خيثم يقول[3]: لو كانت الذنوب تفوح ما جلس أحدٌ إلى أحد.

قال: وقال إبراهيم بن المهدي للمأمون: يا أمير المؤمنين، ليس للعالم بعد القدرة عليه ذنب، وليس للمعاقب بعد المِلك عذر.

قال: صدقت، فما حاجتك؟

قال: فلان.

قال: هو لك.

قال: وقال الواثق يومًا لأحمد بن أبي دؤاد، وقد تضجّر بكثرة حوائجه: قد أخليت بيوت الأموال بطلباتك للائذين بك والمتوصلين إليك!

فقال: يا أمير المؤمنين، نتائج شكرها متصل بك، وذخائر أجرها مكتوب لك، وما لي من ذلك إلا عشق الألسن لخلود المدح فيك.

---

(١) نثر الدر: ج ٧ ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ج٧ ص ٢٩٦.

(٣) المصدر نفسه: ج٧ ص ١٢٩.

فقال: يا أبا عبدالله، والله، لا منعتك ما يزيد في عشقك، وتقوى به منتك، إذ كانا لنا دونك. وأمر فأُخرج له ثلاثون ألف دينار يفرقها في الزوار.

قال: وقدم أبـو وجزة السلمي على المهلب بن أبي صفرة، فقال: أصلح الله الأمير، إني قطعت إليك الدهناء، وضربت إليك أكباد الإبل من يثرب.

فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو قرابة أو عشرة؟

قـال: لا، ولكني رأيتـك لحاجتي أهلاً، فإن قمت بهـا فأهل ذلك أنت، وإن يحل دونها حائل لم أذمم يومك، ولم أيأس من غدك.

فقال المهلب: يعطى ما في بيت المال.

فوجد فيه مائة ألف درهم فدفعت إليه، فأنشأ يقول:

يا من على الجود صاغ الله راحته ... فليس يحسن غير البذل والجود

عمّت عطاياك من بالشرق قاطبةً ... وأنت والجود منحوتان من عُود

قال: ودخل الكوثـر بن زفر على يزيد بن المهلب، فقال: أصلحك الله، أنت أعظم قدرًا من أن يستعان عليك، ويستعان بك، لست تفعل من المعروف شيئًا إلا وهو أصغر منك، وليس من العجب أن تفعل، ولكن العجب ألا تفعل.

قال: سل حاجتك.

قال: تحملت عن قومي عشر ديات، وقد نهكتني.

قال: قد أمرنا لك بها، وأضعفناها بمثلها.

فقـال الكوثر: إن ما سألتك هو بوجهي لمقبول منك، وأما ما بدأتني به فلا حاجة لي فيه. قال: ولم، وقد كفيتك ذل السؤال؟

قال: لأني رأيت الذي أخذته مني بمسألتي إياك أكثر مما نالني من معروفك، فكرهت الفضل على نفسي.

قال يزيد: فأنا أسألك بحقك عليّ فيما أملتني له من إنزالك إليّ إلا قبلتها.

فقبلها.

قال: وكتب عبدالله بن طاهر إلى المأمون من خراسان: بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته، وإن كنت حيث تصرفت لا أتفيأ إلا به، وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة، والتزين بحضور مجلسه، وتلقيح عقلي بحسن رأيه، فلا شيء عندي آثر من قربه، وإن كنت في سعة من عيش وهبه الله جل ذكره لي به، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المسير إلى دار السلام، لأحدث عهدًا بالنعم عليّ، وأتهنأ بالنعمة التي أقرها لدي فعل.

فأجابه المأمون: قربك إلي يا أبا العباس حبيب، وأنا إليك مشتاق، وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك، والتخير لحسن العاقبة، فالزم مكانك، واتبع قول الشاعر:

رأيت دنو الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيدا

وحدثنا خصيف بن الحارث عن أبي رجاء قال:

قدم مع المأمون رجل من دهاقين الشاش وعظمائهم على عدة سلفت من المأمون له من توليته بلدًا، وأن يضم إليه مملكته، فطال على الرجل انتظار خروج المأمون، وأمره له بذلك، فقصد عمرو بن مسعدة، وسأله إنفاذ رقعة إلى المأمون من ناحيته.

فقال عمرو: اكتب ما شئت، فإني أوصله.

قال: فتولَّ ذلك عني يكن لك عليّ نعمتان.

فكتب عمرو: إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته أو يأذن له في الانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله تعالى.

فلما قرأ المأمون الرقعة، دعا عمرًا فجعل يعجبه من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها.

قال عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟

قال: الكتاب له في هذا في الوقت بما سأل؛ لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة مائة ألف درهم صلة عن دناءة المطل وسماجة الإغفال. ففعل عمرو ذلك.

وحدثنا إسماعيل بن أبي شاكر قال: لما أصاب أهل مكة سنة ثمانٍ ومائتين السيل الذي شارف الحجر، ومات تحت هدمه خلق كثير، كتب عبدالله بن الحسن العلوي، وهو والي الحرمين إلى المأمون:

يا أمير المؤمنين، إن أهل حرم الله، وجيران بيته، وألّاف مسجده، وعمرة بلاده قد استجاروا بفيء معروفك من سيل تراكمت أحداثه في هدم البنيان، وقتل الرجال والنسوان واجتياح الأموال، وجرف الأمتعة والأثقال، حتى ما ترك طارفًا ولا تالدًا يرجع إليهما في مطعم وملبس، قد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على: الأمهات، والأولاد والآباء، والأجداد، فأَجِرّهم يا أمير المؤمنين، بعطفك عليهم، وإحسانك إليهم، تجد الله مكافئك عنهم، ومثيبك عز الشكر لك منهم.

قال: فوجه إليهم المأمون بالأموال الكثيرة.

وكتب إلى عبد الله: أما بعد، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم مكة إلى أمير المؤمنين،فتلافاهم الله بفضل رحمته، وأنجدهم بسيب نعمته، وهو متبع ما أسلفه إليهم بما يخلفه عليهم عاجلاً وآجلاً إن أذن الله جل وعز في تثبيت عزمه على صحة نيته فيهم.

قال: فكان كتابه هذا أسرّ إلى أهل مكة من الأموال التي أنفذها إليهم.

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون يومًا ومعه كتاب يعجب به، كتبه إليه عمرو بن مسعدة، فالتفت إليّ وقال: أحسبك مفكرًا فيما رأيت؟

قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين المكروه.

قال: إنه ليس بمكروه، ولكني قرأت كلامًا نظير الخبر خبرني به الرشيد، سمعته يقول: البلاغة التقرب من معنى البغية، والتباعد من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير، فلم أتوهم أن هذا الكلام يسبك على هذه الصيغة حتى قرأت هذا الكتاب، والله لأقضين حق هذا الكلام، وكان الكتاب استعطافًا على الجند، فيه كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والموالاة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند، وقد تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم. قال: فأمر بإعطائهم لثمانية أشهر.

قال: ولما بعث طاهر بن الحسين برأس محمد الأمين، كتب إليه: آتى الله أمير المؤمنين من شكره ما يزيد به في نعمته عليه وأياديه لديه، فقد كان من قدر الله جل وعز في إعانة أمير المؤمنين على الظفر بحقه وسلامة الأولياء ووفاة محمد بن الرشيد ما لا دافع له من القضاء في الخلق والاستبداد بالأمر، لنفوذ مشيئته فيما أحب من إعزاز وإجلال وموت وحياة، فليهنئ أمير المؤمنين فوائد تطوّل الله عليه، وليعزه عن أخيه الرضى بما يؤول إليه أهل الأرض والسماء من الانقراض والفناء.

فكان المأمون يقول: والله لسروري بتعزيته، أوقع بقلبي من تهنئته.

قال: وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: أما بعد، فإن المأمون أحله الله دار كرامته، رآك لأكثر الذي أنت له فيه أهلاً، وقد جمع الله لك إلى حسن رأيه كان فيك جميل رأيي لما محضته من حسن الطاعة، وكرم الوفاء، وشكر الإحسان، وقد اتصلت الأخبار بأنك في كفاية من أولياء أمير المؤمنين وأموال خراسان، وفي منعة من خاصتك وعامتك عن أن ينالك عدوك أو أحد ممن يخالفك بسوء، فاكتب بشرح ذلك إلى أمير المؤمنين؛ ليعرفه إن شاء الله.

فلما وصل كتابه، قال عبدالله لكاتبه إسماعيل بن حماد: ما تقول في هذا الكتاب؟

قال: كتاب تعريض بأنك خارج من طاعته، مالك أمر نفسك دونه.

قال: فأجبه عنه.

فكتب إليه: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإن حزب الله وإن قلّوا، وأنصار المؤمنين وإن ضعفوا فهم الغالبون، وما أنا بشيء في ملاقاة عدو أوثق مني بعز دولة أمير المؤمنين، فأما الأيدي فقليلة، والأموال فنزرة، وفي الله، وفي أمير المؤمنين أعظم الغنى. فقبل عذره وحسن موقع كتابه منه.

قال: وكتب أحمد بن إسرائيل إلى الواثق، وقد عزله عن ديوان الخراج، وأمر بتقييده، ليصحح حساباته: يا أمير المؤمنين، بم يستحق الإذلال من أنت بعد الله ورسوله موئل عزه، وإليك مفزع أمله، ولم تزل نفسه راجية لابتداء إحسانك إليه، وتتابع نعمك لديه، وعينه طامحة إلى تطولك عليه، ورفعك منه، والزيادة في الضيعة إليه، فهب له يا أمير المؤمنين، ما يزينك، واعفُ عما لا يشينك، فما به عنك معدل، ولا على غيرك معول.

فأمر بإطلاقه.

قـال: وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيـى بن خالد يستعفيه من العمل: شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من نال الدخول فيه.

وكتـب عليّ بـن هشـام إلى إسحاق بن إبراهيـم الموصلي: مـا أدري كيف أصنع؟ أغيب فأشتاق، وألتقي فلا أشتفي، ثم يحدث لي اللقاء نوعًا من الحرقة للوعة الفرقة.

وكتـب معقل إلى أبي دلف: فلان جميل الحال عند كرام الرجال، وأنت إن لم ترتبطه بفضلك عليه، غلبك فضل غيرك عليه.

وكتـب رجـل إلى أخ لـه: أما بعد، فقد بان لنا من فضـل الله جل وعز ما لا نحصيـه، لكـثرة ما نعصيه، وما ندري مـا نشكر؟ أجميل ما نشـر؟ أم قبيح ما سـتر؟ أم عظيـم ما أبلـى؟ أم كثير ما عفا؟ غـير أنه يلزمنـا في الأمور شكره، ويجب علينا حمده، فاستزد الله من حسن بلائه بشكرك إياه على حسن آلائه.

وكتب رجل إلى أخ له:

أوصيـك بتقوى الله الـذي ابتدأك بإحسانـه، وأتم عليك نعمـه بأفضاله، وصـبر عليك مـع اقتداره، ولا يغررك إمهاله، فإنه ربمـا كان استدراجًا، عافانا الله وإياك من الاغترار بالإمهال، والاستدراج بالإحسان.

قـال: وكتب أبو هاشم الحراني إلى بعض الأمراء: عوضي من أمل الأمير متأخر، والصبر على الحرمان متعذر.

وكتـب رجـل إلى محمد بن عبـد الله: إن من النعمة على المثنـي عليك أن يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير، ولا يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب، ولاينتهي مـن المدح إلى غاية إلا وجد في فضلك عونًا على تجاوزها، ومن سعادة جدك أن الداعي لك لا يعدم كثرة المادحين، ومساعدة من النية على ظاهر القول.

وكتب رجل إلى أبي عبد الله بن يحيى: رأيتني فيما أتعاطاه من مدحك، كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر المضيء الزاهر الذي لا يخفى على ناظر، وأيقنت أني حيث أنتهي من القول منسوب إلى العجز، مقصر عن الغاية، فانصرفت عن إثناء عليك، إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك، إلى علم الناس بك.

قال: وكتب المهلب بن أبي صفرة إلى عبد الملك بن مروان لما هزم الشراة: أما بعد، فإنا لقينا المارقة ببلاد الأهواز، وكانت للناس جولة، ثم ثاب أهل الدين والمروءة ونصرنا الله جل وعز عليهم، ونزل القضاء بأمر جاوزت النعمة فيه الأمل، فصاروا ردية رماحنا، وضرائب سيوفنا، وقتل رئيسهم في جماعة من حماتهم وذوي النيات منهم، وجلا الباقون عن عسكرهم، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها تمامًا وكمالاً، والسلام.

وكتب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة: الحمد لله الكافي بالإسلام ما وراءه، الذي لا تنقطع مواد نعمته حتى ينقطع من خلقه مواد الشكر، وإنا كنا أُعطينا من الله جل وعز على عدونا حالين يسرنا منهم أكثر مما يسوؤنا، ويسوؤهم منا أكثر مما يسرهم، فلم يزل الله جل وعز يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويخذلهم، حتى بلغ الكتاب أجله، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

أخبرنا ابن أبي السرح أن الحجاج أغزى جيشًا، فظفروا، وأن صاحب جيشه كتب إليه: الحمد لله الذي جعل لأوليائه أمام نصره موعدًا قوّى به قلوبهم، وقدم إلى أعدائه بين يدي خذلانه إياهم وعيدًا أرعب به مفاصلهم، وزعزع معه قلوبهم.

فلما بلغ هذا الموضع، طوى ما كان نشره من الكتاب، ولم يقرأ ما بعده، ثم التفت إلى الرسول، فقال: غيّرنا هذا الكلام المبتدأ به، إن العدو ولّى من غير حرب!

فقال: صدق الأمير، صدّق الله ظنه، وأصاب، أصاب الله رأيه.

قال: وكتب مروان بن محمد إلى عبد الله بن علي يوصيه بحرمة، فكتب إليه عبد الله: يا مائق، إن الحق لنا في دمك، والحق علينا في حرمك.

وكتب علي رضوان الله عليه، إلى زياد ابن أبيه: لئن بلغتني عنك خيانة لأشدنّ عليك شدة أدعك فيها قليل الوفر ثقيل الظهر.

قال: وكتب رجل إلى أبي مسلم حين خرج: أحسن الله لك الصحبة، وعصمك بالتقوى وألهمك التوفيق، إن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء والعاقبة للمتقين، فسر فيها راغبًا إلى الله ورسوله، والرضا من هذه الأمة بالكتاب والسنة.

واعلم أن التقوى أسّ ما تبني عليه أمرك، فإن ضعف الأساس تداعى البنيان، ودخل الأعداء من كل مكان، فتألف الأعلام من الرجال وسرواتهم، وتصفّح عقولهم ومروءاتهم، فكلما ارتضيت رجلاً ففره عن عزائم رأيه، واصرف نظرك إلى تصرّف حاله، وإن وجدته على خلاف ما أنت عليه فلا تعجل بإلقاء أمرك إليه فتدخل الوحشة منك والنفور عنك، لكن اقرعه بالحجة في رفق، وسقه إلى شرك المحجة في لين؛ حتى يتكشف لك ثوب الظلمة عن النور، وتظهر لك وجوه الأمور، فإنه سيكثر أعوانك على الحق، ويسهل لك منهاج الطرق. فإذا كثرت العدة من أصحابك، وأمكنتك الشدة على أعدائك، فحارب الفئة الباغية، والأئمة الطاغية، الذين أباحوا حمى المسلمين، وأجروا عليهم أحكام الفاسقين، وقادوهم بجرائر المهن، واستذلوهم في البر والبحر.

واعلم أن من عرف الله جل وعز لم يرَ لأهل البغي جماعة، ولا لأئمة الضلالة طاعة. وكلما غلبت على بلدة فأمسك عن القتل، وأظهر في أهله العدل؛

لتسكـن إليك النفوس، ويثوب نحوك الناس، وينتشر فعلك في الخاصة والعامة، فتستدعـي أهواءهـا، وتستميل آراءها، وتهشـ إليك من الآفـاق نفوس عرانين الكـرم، ومصابيح الظلَم، مـن ذوي الأحساب الكريمة، والبيـوت القديمة التي شرفها الإسلام، وزينها الإيمان، لتزرع بذلك لك المحبة في قلوب العباد، ويكونوا لك دواعي في نواحي البلاد. تمم الله لك أمرك، وأعلى كعبك.

قال: ولمـا استقامت المملكة لأبرويز، وانقضى مـا بينه وبين بهرام جوبين، أمـر أن تكتب تلك الحروب والوقائـع إلى منتهاها ففعلت الكتبة ذلك، وعرضته على أبرويز، فلم يرض صدره.

فقال غلام من أولاد الكتّاب: إن أمر الملك كتبت صدره.

فقال: شأنك.

فتناول القلم وكتب: إن الدهر لم يخلُ في تارات عقبه وتصرفه ووجوه تنقله في حـالات مـن العجائب، ولم تتصرم فيـه فنونها على طول مـداه، ولم يزل في تقلب عصريه، وصفحـات أزمنته، وطبقات أحايينه، تحدث فيه جلائل الأمور، وغرائـب الأنباء، وتنجم فيه قرون وتعقب فيه أعقـاب بعد أسلاف، وتعفو آثار، ولـه في تلونه تصريف أنباء معجبة، وأحاديث فيهـا معتبر وعظة ومختبر، ومن أعاجيـب ذلك أمر بهرام بن بهرام ولقبه جوبين. فعرضه على أبرويز، فأعجبه ذلك، وأمر برفع درجته، وتقديمه وتعظيمه.

مساوئ المكاتبات[1]:

قال الجاحظ: كتب ابن المراكبي إلى بعض ملوك بغداد: جعلت فداك برحمته.

وقرأت على عنوان كتاب لأبي الحسين السمّري: للموت أنا قبله.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٩٥.

وقرأت أيضًا على عنوان كتاب: إلى ذاك الذي كتب إليّ.

وكتب بعضهم إلى ابن له عليل: يا بني، اكتب إليّ بما تشتهي.

فكتب إليه: أشتهي قلنسوة.

فكتب إليه: إنما سألتك أن تخبرني بما تشتهي من الغداء.

فكتب إليه: أشتهي دهن خل وزيت.

فكتب إليه: أنزل الله عليك الموت، فإنك ثقيل.

قال: ونقش بشر بن عبد الله على خاتمه: بشر بن عبد الله بالرحمن لا يشرك.

فقال أبوه: هذا والله، أقبح من الشرك!

محاسن الخطب[1]:

قال: خطب خالد بن صفوان خطبة نكاح، فقال: الحمد لله جامعًا للحمد كله، وصلى الله على محمد وآله، أما بعد فقد قلتم ما سمعنا، وبذلتم فقبلنا، وخطبتم فأنكحنا، فبارك الله لنا ولكم.

وقولهم في بعض الأمثال:

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقّري ما شئت أن تنقري

قد رفع الفخ فماذا تحذري

قيل: كان طرفة بن العبد البكري مع عمه، وهو صغير في بعض أسفارهما، فنزلا على ماء فنصب طرفة فخه للقنابر، وقعد لها، وهنّ يحذرن الفخّ، وينفرن مما حوله، فقال:

قاتلكن الله من قنابر منتبذاتٍ في الفلا نوافر

(١) البيان والتبيين ١/١٩٥.

وأخـذ فخه ورجع إلى عمه. فلما تحملوا أقبلت القنابر تلتقط ما كان ألقاه لهن من الحب، فالتفت فرآهن فقال:

يـا لـك مـن قـبرة بمعـمـر خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

وقولهم: لو ترك القطا لنام، كانت حذام بنت الريان ملك معدّ، وإن رجلاً مـن حمير سار إلى أبيهـا في حمير، فلقيهم الريان في أحيـاء ربيعة، فالتقوا في أرضـ تدعى المرامـة، فاقتتلوا يومـين وليلتين، ثم رجع الحمـيري إلى عسكره، وهـرب الريان وسار يومه وليلته، فلما أصبح الحميري، ورأى عسكر الريان سار في طلبـه، وجعلوا يمرون ويثـيرون القطا، وجعلت القطا تمر على عسكر الريان، فانتبهت ابنته، فقالت لقومها:

ألا يا قومنا، ارتحلوا وسيروا فلو تـرك القطا ليلاً لناما

فارتحلوا واعتصموا برؤوس الجبال، ورجع القوم، ففي ذلك يقول حميد:

إذا قـالـت حـذام فصـدقوهـا فـإن الـقـول مـا قـالـت حـذام

محاسن الجواب[1]:

قيل: دخل رجل على كسرى أبرويز فشكا عاملاً له غصبه على ضيعة له.

قال كسرى: منذ كم هي في يدك؟ قال: منذ أربعين سنة.

فقال: أنت تأكلها منذ أربعين سنة، ما عليك أن يأكل منها عاملي سنة !

فقال: ما كان على الملك أن يأكل بهرام جوبين الملك سنة واحدة !

فقال: ادفعوا في قفاه وأخرجوه.

---

(١) البيان والتبيين ١/١٩٨ .

فأُخرج، فأمكنته التفاتة، فقال: دخلت بمظلمة، وخرجت بثنتين.

فقال كسرى: ردوه، وأمر برد ضيعته، وجعله في خاصته.

محاسن السؤال[1]:

قال الجاحظ: سمعت شيخًا من المكدين، وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعة، فسأله الشيخ عن حاله؟ فقال: لعن الله الكدية، ولعن أصحابها من صناعة ما أخسها وأقلها! إنها ما علمت تخلق الوجه، وتضع من الرجال، وهل رأيت مكديًا أفلح؟

قال: فرأيت الشيخ قد غضب والتفت إليه.

فقال: يا هذا، أقلل الكلام فقد أكثرت، مثلك لا يفلح؛ لأنك محروم، ولم تستحكم بعد، وإن للكدية رجالاً، فما لك ولهذا الكلام!

ثم التفت، فقال: اسمعوا بالله، يجيئنا كل نبطيّ قرنانٍ، وكل حائك صفعان، وكل ضرّاط كشحان، يتكلم سبعًا في ثمانٍ، إذا لم يصب أحدهم يومًا شيئًا، ثلب الصناعة، ووقع فيها، أو ما علمت أن الكدية صناعة شريفة، وهي محببة لذيذة، صاحبها في نعيم لا ينفد، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب، حيث ما حلّ لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء، يأخذ أطايب كل بلدة؟ فهو أيام النرسيان والهيرون بالكوفة، ووقت الشبّوط وقصب السكر بالبصرة، ووقت البرنيّ والأزاذ والرّازقيّ والرمان المرمر ببغداد، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان، ووقت اللوز الرطب والسختيان والطبرزد بالجبل، يأكل طيبات الأرض، فهو رخي البال، حسن الحال لا يغتمّ لأهل، ولا

(١) المحاسن والمساوئ ٢٤٦/١.

مـال، ولا دار، ولا عقـار، حيث ما حلّ فعلفـه طبليّ، أما والله، لقـد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل، ووقفت في مسجدها الأعظم، وعليّ فوطة قد ائتزرت بهـا وتعممت بحبـل من ليف، وبيدي عكازة من خشـب الدفلى، وقد اجتمع إلي عالم من الناس، كأني الحجاج بن يوسف على منبره، وأنا أقول:

يا قوم، رجل من أهل الشام، ثم من بلد يقال له المصيصة من أبناء الغزاة والمرابطين في سبيل الله، من أبناء الركّاضة وحرسة الإسلام، غزوت مع والدي أربـع عشرة غزوة، سبعًا في البحر، وسبعًا في الـبر، وغزوت مع الأرمنيّ، قولوا: رحم الله أبا الحسن، ومع عمر بن عبيد الله، قولوا: رحم الله أبا حفص، وغزوت مع البطال بن الحسين، والرنرداق بن مدرك، وحمدان بن أبي قطيفة، وآخر من غـزوت معه يا زمان الخادم، ودخلـت قسطنطينية، وصليـت في مسجد مسلمة ابـن عبد الملك، من سمـع باسمي فقد سمع ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي، أنا ابـن الغزيّل بن الركان المصيصي المعروف المشهـور في جميع الثغور، والضارب بالسيـف، والطاعـن بالرمح، سـدٌّ من أسـداد الإسلام، نازل الملـك على باب طرسوس، فقتل الذراري وسبى النساء، وأُخذ لنا ابنان وحملا إلى بلاد الروم فخرجـت هاربًـا على وجهي، ومعي كتب من التجار، فقطـع عليّ، وقد استجرت بالله ثم بكم، فإن رأيتم أن تردّوا ركنًا من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده!

فـوالله، مـا أتممت الـكلام، حتـى انهالت علـيّ الدراهم مـن كل جانب، وانصرفت ومعي أكثر من مائة درهم.

فوثـب إليه الشاب وقبل رأسه، وقال: أنـت والله، معلم الخير فجزاك الله عن إخوانك خيرًا.

ومما يضارع هذه اللطائف أنه جرى بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين أخيه محمد بن الحنفية ﷺ كلام، فانصرفا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله، أخذ رقعة، وكتب فيها[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين بن علي بن أبي طالب، أما بعد، فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبس رداءك ونعليك، وسر إليَّ فترضيني، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام.

فلما قرأ الحسين رضي الله عنه الرقعة، لبس رداءه ونعليه، ثم جاء إلى أخيه محمد فترضاه.

ومثل ذلك قول أبو نواس يهجو خالصة جارية الرشيد:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع درٌّ على خالصه

فلما بلغ الرشيد أنكر عليه وهدده، فقال: لم أقل إلا ضاء، واستحسن مواربته.

وقال بعض من حضر: هذا البيت قلعت عينه فأبصر.

في وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد في العلم وأهله [2].

قال كميل بن زياد النخعي: خرجت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الجبانة، فلما أصحرنا تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل بن زياد، إن القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير. احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم

(١) هذه الأقوال وما بعدها وردت في ثمرات الأوراق ١/٩٨ - ١٧٢.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٩١ و سراج الملوك ١/٥٢.

ربـاني، ومتعلم علـى سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا منه إلى ركن وثيق.

العلـم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال. والعلم يزكو على الإنفاق، والمـال تنقصه النفقة. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه. ومحبة العلم ديـن يـدان الله تعالى به يكسبه الطاعة في حياته، وجميـل الأحدوثة بعد وفاته. مـات خزنة الأمـوال وهم أحيـاء، والعلماء باقون مـا بقي الدهـر، أشخاصهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

إن ههنا، وأشار بيده إلى صدره، لعلمًا جمًّا لو أصبت له حملة بل قد أصبت له لقنًا غير مأمون عليه، يستعمل الدين للدنيا، فيستظهر بحجج الله على كتابه، أو كمـا قـال، وبنعمه على عباده، أو منقادًا لأهل الحـق لا بصيرة له في أخبائه، ينقـدح الشـك في قلبـه بأول عارض مـن شبهـة، ألا لا ذا ولا ذاك! أو مهمومًا باللـذات سريـع الانقياد للشهوات، أو مغرى شأنه جمـع المال والادخار ليسا من رعاة الدين أقرب شبهًا بهما الأنعام السائمة. اللهم، فكذلك يموت العلم بموت حامليه، ولكن لن تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحججه؛ لئلا تبطل حجج الله وبيناتـه، ومن أولئك، وأين أولئك، أولئك الأقلون عددًا الأكثرون عند الله قدرًا، تجـول الحكمة في قلوبهم حتى يزرعها في قلـوب أشباههم، ويودعوها في صدور نظرائهم. هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استوحشه المترفـون واستأنسوا بما استوحش الجاهلون. صحبوا الدنيا بأجساد أرواحهـا متعلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفـاء الله في بلاده وأمناؤه على عباده، ودعاته إلى دينه. آه شوقًا إلى رؤيتهم!

باب في الأجوبة المسكتة والمستحسنة

ورشقات اللسان، وما جرى مجرى ذلك [1]:

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة[2]:

ما ذكر أن إبراهيم مغني الرشيد غنى يومًا بين يديه، فقال له:

أحسنت أحسن الله إليك.

فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يحسن الله إلي بك، فأمر له بمائة ألف درهم.

وذبحت عائشة رضي الله تعالى عنها شاة، وتصدقت بها، وأفضلت منها كتفًا، فقال لها النبي ﷺ: «**ما عندك منها**»؟

فقالت: ما بقي منها إلا كتف.

فقال: «**كلها إلا كتفًا**».

وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء: كيف الحال؟

قال: أنت الحال، فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته.

وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة، فخرج المأمون يتفقد الحرس،

فقال لعمرو: من أنت؟

قال: عمرو - عمرك الله - بن سعد - أسعدك الله - بن سالم، سلمك الله.

قال: أنت تكلؤنا الليلة؟

---

(١) هذه الأقوال وما بعدها جاءت في المستطرف ١/٥٩.

(٢) المستطرف ١/٦١.

قال: الله يكلؤك يا أمير المؤمنين، وهو خير حافظ وهو أرحم الراحمين.

فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ... ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا رأى الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار.

قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت.

وقال المعتصم للفتح بن خاقان، وهو صبي صغير: أرأيت يا فتح، أحسن من هذا الفص لفص كان في يده؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، اليد التي هو فيها أحسن منه.

فأعجبه جوابه، وأمر له بصِلَة وكسوة.

باب في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد [1]:

قيل: خطب المأمون، فقال:

اتقوا الله عباد الله، وأنتم في مهل، بادروا الأجل، ولا يغرنكم الأمل، فكأني بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي، فهو في التراب عفير، وإلى ما قدم فقير.

(١) هذه الأقوال، وما بعدها وردت في التذكرة الحمدونية ٢/٣٣٩- ٣٧٠.

وقال الشعبي: ما سمعت أحدًا يخطب إلا تمنيت أن يسكت؛ مخافة أن يخطئ ما خلا زيادًا، فإنه لا يزداد إكثارًا إلا ازداد إحسانًا.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثمًا أن يقال له: اتقِّ الله فيغضب، ويقول عليك نفسك.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: ألّا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطًا.

وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحدة.

قال: ترك الغضب.

وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة رجلاً.

وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إلي بهذه الصحيفة وناولنيها.

وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها.

وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها.

وكان في الأولى: «اقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا».

وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.

وفي الثالثة: «احمل عباد الله على كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك.

وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: «**من كظم غيظه، وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء**»، وروي: «**ملأه الله أمنًا وإيمانًا**».

وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط، ومضت خلفه، حتى إذا قاربته رمت بالسوط، وقالت: ما تركت التقوى أحدًا يشفي غيظه.

وقال أبو ذر لغلامه: لم أرسلت الشاة على علف الفرس؟

قال: أردت أن أغيظك.

قال: لأجمعن مع الغيظ أجرًا، أنت حر لوجه الله تعالى.

ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له حمزة، سرق، وقامت عليه البينة، فهمَّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن، يقول شعرًا:

يدي يا أمير المؤمنين، أعيدها بعفوك أن تلقى مقامًا يشينها

فلا خير في الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمال فارقتها يمينها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة، وقالت: يا أمير المؤمنين، بني وكاسبي، وواحدي.

فقال لها عبد الملك: بئس الكاسب لك، هذا حد من حدود الله تعالى.

فقالت: يا أمير المؤمنين، اجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها.

فقال عبد الملك: ادفعوه إليها، وخلى سبيله.

شـــعر:

إذا مـا طـاش حلمك عـن عدو ... وهـان عليك هـجـران الصديق
فلسـت إذًا أخـا عفـو وصفـح ... ولا لأخ عـلـى عـهـد وثـيـق
إذا زلّ الـرفـيـق وأنـــت ممن ... بـــلا رفـــق بـقـيـت بـــلا رفـيـق
إذا أنـت اتـخـذت أخًـا جـديـدًا ... لـمـا أنـكـرت مـــن خـلـق عتيق
فـمـا تـــدري لـعـلـك مستجير ... مـن الـرمضـاء فـرّ إلى الحريق
فكم مـن سـالـك لـطـريـق أمـن ... أتـــاه محـــاذر مـــن في الـطـريـق

وشتم رجل رجلاً، فقال له: يا هذا، لا تغرق في شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإني أبيت مشاتمة الرجال صغيرًا، فلن أجيئها كبيرًا، وإني لا أكافئ من عصى الله فيَّ بأكثر من أن أطيع الله فيه.

وقيـل: لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين، اسمع مني كلمات أقولها.

قال: قل، فأنشأ يقول:

زعموا بـأن الصقر صادف مرة ... عـصـفـور بـر سـاقـه الـتـقـديـر
فتكلم الـعـصـفـور تحت جناحه ... والـصـقـر مـنـقـض عليه يطير

ويقولون في الدعاء له: نَعِم عوفك، أي نعم بالك.

ويقولون في الدعاء عليه: لا نَعِم عوفك.

لا قبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، فالعدل الفرض والصرف التطوع.

ويقولـون: رماه الله بالطلاطلة والحمى المماطلة، الطلاطلة سقوط اللهاة، ويقال: الذبحة.

ويقولون في الشماتة: لليدين وللفم، والمثل لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وللمنخرين، أي أكبه الله على منخريه، والمثل لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قاله لرجل أتي به سكران في شهر رمضان.

ويقال: بجنبيه الوجبة، يعني الصرعة.

ومن كلا جانبيك لا لبيك.

به لا بظبي.

لا لعًا لفلان.

وقولهم: بفيه الحجر.

وبفيه الأثلب والكثكث.

وقد ورد في صيد الخاطر [1]: قد كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إني لأحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي.

وفي الناس من يقول: هذا تصنع.

وليس بشيء، فإن الله تعالى «زيَّنَّا لَّا خَلَقَنَا». لأن للعين حظًّا في النظر.

ومن تأمل أهداب العين والحاجبين، وحسن ترتيب الخلقة علم أن الله زين الآدمي.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنظف الناس، وأطيب الناس.

وكان لا يفارقه السواك، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة.

---

(١) هذه الأقوال وما بعدها جاءت في صيد الخاطر ١/٢٨- ٣٢.

وقد قالت الحكماء: من نظف ثوبه قلَّ همّه، ومن طاب ريحه زاد عقله.

وقال ﷺ لأصحابه: «**ما لكم تدخلون علي قلحًا، استاكوا** [1]».

وقد فضلت الصلاة بالسواك، على الصلاة بغير سواك، فالمتنظف ينعم نفسه، ويرفع منها قدرها.

وقد كان النبي ﷺ يحب الطيب.

ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال. فإن النساء شقائق الرجال، فكما أنه يكره الشيء منها فكذلك هي تكرهه، وربما صبر هو على ما يكره، وهي لا تصبر.

هِمَمٌ مُحلِّقةٌ على هامِ السُّها ... طلبًا لمركزِ عُنْصُرٍ ونِجارِ

ولكلِّ شيءٍ عُنْصُرٌ يأوي إلى ... غاياتِ مركزِهِ بغيرِ نِفارِ

وقال الشعبي: أربعة كانوا كتابًا صاروا خلفاء: عثمان، وعلي، ومعاوية، وعبد الملك بن مروان.

حسن التوفيق في مخاطبة الملوك:

قال هارون الرشيد لمعن بن زائدة: كيف زمانك يا معن؟

قال: يا أمير المؤمنين، أنت الزمان، فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان.

وهذا نظير قول سعيد بن سلم، وقد قال له أمير المؤمنين الرشيد: من أي بيت قيس في الجاهلية؟

قال: يا أمير المؤمنين، بنو فزارة.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني رقم ١٢٨٧.

قال: فمن بيتهم في الإسلام؟

قال: يا أمير المؤمنين، الشريف من شرفتموه.

قال: صدقت أنت وقومك.

ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر، فقال له: كبرت يا معن.

قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين.

قال: وإنك لجلد.

قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين.

قال: وإن فيك لبقية.

قال: هي لك يا أمير المؤمنين.

قال: أي الدولتين أحب إليك أو أبغض، أدولتنا أم دولة بني أمية؟

قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، وإن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي، وإن زاد برهم على برك كانت دولتهم أحب إلي.

قال: صدقت.

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: أهذا منزلك؟

قال: هو لأمير المؤمنين ولي به.

قال: كيف ماؤه؟

قال: أطيب ماء.

قال: فكيف هواؤه؟

قال: أصح هواء.

وقال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد: إني أردتك لأمر.

قال: يا أمير المؤمنين، قد أعد الله لك مني قلبًا معقودًا بطاعتك، ورأيًا موصولاً بنصيحتك، وسيفًا مشهورًا على عدوك، فإذا شئت فقل.

وقال المأمون لطاهر بن الحسين: صف لي ابنك عبد الله.

قال: يا أمير المؤمنين، إن مدحته عبته، وإن ذممته اغتبته، ولكنه قدح في كف مثقف ليوم نضال في خدمة أمير المؤمنين.

وأمر بعض الخلفاء رجلاً بأمر ؛ فقال: أنا أطوع من الرداء، وأذل لك من الحذاء.

وهذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات.

وقال آخر: أطوع لك من يدك، وأذل لك من نعالك.

وقال المنصور لمسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟

قال ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء). قال: حسبك أبا أمية.

وقال المأمون ليزيد بن مزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة؟

قال: بلى، ولكن منابرهم الجذوع.

وقال المنصور لإسحاق بن مسلم: أفرطت في وفائك لبني أمية.

قال: يا أمير المؤمنين، إنه من وفّى لمن لا يرجى، كان لمن يرجى أوفى.

وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صف لي منبج.

قال: رقيقة الهواء، لينة الوطاء.

قال: فصف لي منـزلك بها.

قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها.

قال: ولم قدرك فوق أقدارهم؟

قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأحذو مثاله.

وقال عبد العزيز بن مروان لنصيب بن رباح - وكان أسود -:

يا نصيب، هل لك فيما يثمر المحادثة؟ يريد المنادمة.

فقـال: أصلـح الله الأمـير، اللون مرمـد، والشعر مفلفـل، ولم أقعـد إليك بكريم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني، فإن رأيت ألا تفرق بينهما فافعل.

ولما ودع المأمون الحسن بن سهل عند مخرجه من مدينة السلام، وقال له:

يا أبا محمد، ألك حاجة تعهد إلي فيها؟

قـال: نعم، يـا أمير المؤمنـين، أن تحفظ علي من قلبك مـا لا أستعين على حفظه إلا بك.

كتاب المجنبة في الأجوبة [1]:

قال أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه: قد مَضى قولُنا في كلام الأعراب خاصة، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجّوابات التي هي أصعب الكلام كلّه مَرْكبًا، وأعزُّه مَطْلبًا، وأغمضه مَذْهبًا، وأضيَقه مَسْلكًا؛ لأنّ صاحبَه يُعْجل مُناجاةَ الفِكْرة، واستعمال القَريحة؛ يوم في بَديهة، نَقْض ما أبْرم في رويّة؛ فهو كمن أخذت عليه

(١) هذه الأقوال وما بعدها جاءت في العقد الفريد ١/٤٢٨- ٤٦٠ (١٠٤) سنن أبي داود رقم ٤٦١٢.

الفِجَاج، وسُدَّت عليه المَخارج ؛ قد تَعرّض للأسنة، واستهدف للمَرامي ؛ لا يدْرِي ما يُقْرَع به فيتأهّب له، ولا ما يَفجؤه من خَصمه فيَقْرعه بمثله. ولا سيّما إذا كان القائلُ قد أَخذ بمجامع الكلام فقاده بزِمامه، بعد أن رَوّى فيه واحتَفل، وجَمع خواطره واجتهد، وتَرك الرأي يَغِب حتى يَخْتمر، فقد كَرِهوا الرأي الفَطير، كما كرهوا الجوابَ الدَّبَريّ ؛ فلا يزال في نَسج الكَلام واستئناسه، حتى إذا اطمأن شاردُه، وسَكن نافرُه، صكّ به خَصْمه جُملة واحدة؟

ثم إذا قيل له: أجِب ولا تُخطئ، وأَسرع ولا تُبْطئ، ترَاه يجاوب من غير أناة ولا استعداد، يُطبّق المَفاصل، ويَنْفُذ إلى المَقاتل، كما يُرْمَى الجندل بالجندل، ويُقْرَع الحديد بالحديد؟ فَيَحُل به عُراه، ويَنْقُض به مرائره، ويكون جوابُه على كلامه، كسحابة لَبّدت عَجاجة. فلا شيءَ أعضلُ من الجواب الحاضر، ولا أعزّ من الخَصْم الألدّ الذي يَقْرع صَاحبه، ويَصْرع مُنازعه. بقول كمِثْل النار في الحَطَب الجزْل.

قال أبو الحسن: أسرعُ الناسِ جوابًا عند البديهة قريش، ثم بقيّة العرب ؛ وأحسنُ الجواب كُلّه ما كان حاضرًا مع إصابة مَعنى وإيجاز لَفْظ.

وكان يُقال: اتّقوا جوابَ عُثمانَ بنِ عفّان.

ودَخل عُتْبة بن أبي سُفْيان، فَوَسَّع له معاوية بينه وبين عَقيل، فجلس بينهما.

فقال عَقِيل: مَن هذا الذي أجلَسَ أميرُ المؤمنين بيني وبينه؟

قال: أخوك وابن عمّك عُتبة.

قال: أمَا إنّه إنْ كان أقربَ إليك منّي، إني لأَقْرَبُ لرسول الله ﷺ منك ومنه، وأنتما مع رسول الله ﷺ أرضٌ ونحن سماء.

قال عُتبة: أبا يزيد، أنت كما وَصَفْتَ، ورسولُ الله ﷺ فوق ما ذكرتَ، وأميرُ المؤمنين عالم بحقّك، ولك عندنا مما تُحبّ أكثر مما لنا عِنْدك مما نَكْره.

ثم قال: وايم الله يا مُعاوية، لئن كانت الدُّنيا مَهَّدتك مِهادَها، وأظَلَّتْك بحذافيرها، ومَدَّت عليك أطْناب سُلْطانها، ما ذاك بالذي يَزيدك مِني رغبة، ولا تخشُّعًا لرهبة.

قال مُعاوية: لقد نَعتها أبا يزيد، نَعْتًا هشَّ له قلبي، وإني لأرْجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما رَدّاني برداء مُلْكها، وحَبَاني بِفَضيلة عَيْشها، إلا لكرامة ادّخرها لي؛ وقد كان داودُ خليفةً، وسُليمانُ مَلِكا، وإنما هو لِمثال يُحْتذى عليه، والأمور أشباه؛ وايم الله يا أبا يزيد، لقد أصبحت علينا كريمًا، وإلينا حَبيبًا، وما أصبحتُ أضمر لك إساءة.

دخل عَطاء المُضْحك على عبد الملك بن مَرْوان، فقال له: أما وجدتْ لك أمُّك اسمًا إلا عطاء؟

قال: لقد استكثرت من ذلك ما استكثرتَه يا أميرَ المؤمنين، ألا سَمتني باسم المُباركة، صلوات الله عليها، مَرْيم.

قال مُعاوية لصُحار بن العبّاس العبديَ: يا أزرق، قال: البازي أزْرق؛ قال: يا أحمر.

قال: الذّهب أحمر.

قال: ما هذه البلاغة فيكم عبدَ القَيس؟

قال: شيء يَخْتلج في صدُورنا، فَتَقْذِفه ألسنتُنا كما يقذف البحر الزَّبد.

قال: فما البلاغة عندكم؟

قال: أن نقول فلا نُخْطِئ، ونُجيب فلا نُبْطئ.

وقال عبدُ الله بن عامر بن كُريز لعبد الله بن حازم: يا بن عَجْلَى.

قال: ذاك اسمُها.

قال: يا بن السَّوداء.

قال: ذاك لونها.

قال: يابن الأمة.

قال: كل أنثى أمة، فاقصد بذَرْعك لا يَرْجع سَهمُك عليك، إن الإماء قد وَلَدتك. دخل عبيدُ الله بن زياد بن ظَبْيان على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: ما هذا الذي يقول الناس؟

قال: وما يقولون؟

قال: يقولون: إنك لا تُشبه أباك؟

قال: والله، لأنا أشبهُ به من الماء بالماء، والغُراب بالغراب، ولكن أدُلك على مَن لم يُشبه أباه؟

قال: مَن هو؟

قال: من لم تُنْضِجه الأرحام، ولم يُولد لتمام، ولم يُشْبِه الأخوال والأعمام؟

قال: ومَن هو؟

قال: ابنُ عمي سُويد بن مَنجوف، وإنما أرادَ عبدَ الملك بن مروان، وذلك أنه وُلد لستة أشهر.

دخـل زيد بـن علي على هشام بن عبـد الملك فلم يَجد موضعًـا يَقْعد فيه، فَعلم أن ذلك فُعِل به على عَمْد.

فقال: يا أمير المؤمنين، اتقِّ الله !

قال: أو مثلك يا زيد، يأمر مثلي بتقوى الله.

قـال زيد: إنـه لا يَكْبُرُ أحدٌ فـوق أن يوصى بتقـوى الله، ولا يَصْغر دون أن يوصى بتقوى الله.

قال له هشام: بلغني أنك تُحدِّث نفسَك بالخِلافة ولا تَصْلُح لها؛ لأنك ابن أمة.

قـال زيد: أما قولك: إني أحـدث نفسي بالخلافة، فلا يَعلم الغَيْب إلا الله؛ وأمّـا قولُك: إني ابن أمة، فهذا إسماعيلُ بـن إبراهيم خليل الرحمن، ابنُ أمة، مـن صُلبه خـيرُ البشر محمد ﷺ، وإسحاق ابن حُرّة، أُخـرج من صلْبه القِردةُ والخَنازير وعَبدة الطاغوت. قال له: قُمْ.

قال: إذن لا تراني إلا حيث تكره.

فلما خرج من عنده قال: ما أحب أحدٌ قط الحياة إلا ذلَّ.

قال له حاجبه: لا يَسمع هذا الكلام منك أحد.

وقال زيدُ بن عليّ:

شـــرَّده الخَـــوْفُ وأزْرى به ... كـذاك مَـن يَـكره حَـرّ الجلاد
محتفي الرِّجْلين يشكو الوَجى ... تَـقْـرعـه أطـــرافُ مَـــرْوٍ حِـدَاد
قـد كـان في المـوت لـه راحـة ... والمـوت حَـتْـم في رِقـاب العِبـاد

ثم خرج بخراسان فقُتل وصلب في كُناسة.

وفيه يقوله سُدَيف بن مَيْمون في دولة بني العباس:

واذْكروا مَقْتل الحُسَين وزَيْدًا وقَتيلا بجانب المِهْراس

يُريده حمزَة بن عبد المطلب المَقْتول بأُحد.

دَخل رجل من قَيْس على عبد الملك بن مَرْوان فقال: زُبيريّ! والله لا يحبك قلبي أبدًا. قال: يا أميرَ المُؤمنين، إنما يَجْزع من فَقْد الحُبّ النِّساء، ولكنْ عَدْلاً وإنْصافًا.

وقال عمر بن الخطّاب لأبي مَريم الحنفيّ، قاتل زيد بن الخطّاب: والله، لا يُحبك قلبي أبدًا، حتى تُحِبّ الأرضُ الدمَ.

قال: يا أمير المؤمنين، فهل تمْنعني لذلك حقًّا؟

قال: لا.

قال: فَحَسبي.

دخل يزيدُ بن أبي مُسلم على سُليمان بن عبد الملك، فقال له: على امرئ أوْطأك رَسَنك وسَلَّطك على الأمة لعنةُ الله.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنك رأيتَني والأمرُ مُدبر عني، ولو رأيتَني والأمر مُقْبل علي لَعَظُم في عَيْنك ما استصغرت مني؟

قال: أتظن الحجّاج استقرّ في قَعْر جَهنم أم هو يَهْوِي فيها؟

قال: يا أمير المُؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فَضعْه من النار حيثُ شئت.

وقال مروان بن الحكم لزُفر بن الحارث: بَلغني أن كِندة تَدَّعيك.

قال: لا خَيرَ فيمن لا يُتَقى رهبةً، ولا يدعى رَغبة.

قال مَرْوان بن الحكم للحسن بن دلجة: إني أظنك أحمق؟

قال: ما يكون الشَّيخ إذا أعمل ظَنه؟

وقال مروان لحُويطب بن عبد العُزى: وكان كبيرًا مُسنًّا. أيها الشيخ، تأخر إسلامك حتى سَبقك الأحداث.

فقال: الله المُستعان، والله لقد هممت بالإسلام غيرَ مَرّة كُلّ ذلك يَعُوقني عنه أبوك ويَنهاني، ويقول: يَضع مِن قَدْرك، وتترك دين آبائك لدين مُحْدَث، وتَصير تابعًا. فسكت مَرْوان.

وقال سُليمان بنُ عبد الملك ليزيد بن المُهلَب: فيمن العِزُّ بالبَصرة؟

قال: فينا وفي حُلفائنا من رَبيعة.

قال سليمان: الذي تحالفتما عليه أعزّ منكما.

جواب في هزل:

كان إبراهيمُ بن عبد الله بن مُطيع جالسًا عند هِشام، إذ أَقبل عبدُ الرحمن ابن عَنْبسة بن سَعيد بن العاص أحمرَ الجُبّة والمِطْرف والعِمامة.

فقال إبراهيم: هذا ابنُ عَنْبسة قد أَقبل في زينة قارُون.

قال: فَضَحِكَ هشام.

قال له عبدُالرحمن: ما أَضحكك يا أميرَ المُؤمنين؟

فأَخبره بقول إبراهيم.

فقـال له عبدُالرحمن: لولا ما أَخاف مـن غَضبه عليك وفي وعلى المُسلمين لأجبته؟

قال: وما تخاف من غَضبه؟

قال: بلغني أن الدَّجال يَخْرج من غَضْبة يَغْضَبها، وكان إبراهيم أَعْور.

قال إبراهيمُ: لولا أن له عِندي يدًا عظيمة لأجبتُه.

قال: وما يده عندك؟

قـال: ضرَبـه غلامٌ له بمُدية فأصابه، فلمّا رأى الـدم فزعَ، فَجَعل لا يَدْخل عليه مَملوك إلا قال له: أنت حرّ، فدخلتُ عليه عائدًا، فقلت له: كيف نجدك؟

قال لي: أنت حُر.

قلت له: أنا إبراهيم.

قال لي: أنت حُر.

فَضحِك هشامٌ حتى اسْتَلْقَى.

أدْخِـل مالكُ بن أَسماء السجن - سِجْن الكوفة - فجلس إليه رجلٌ من بني مُرّة فاتكأ عليه المُري يُحدّثه، ثم قال: أَتَدري كم قَتلنا منكم في الجاهلية؟

قال: أما في الجاهلية فلا، ولكن أعرف من قتلتم منّا في الإسلام.

قال: من؟

قال: أنا، قد قَتَلتني بنَتن إبطيك.

قيل لشُريح: أيهما أطيب: الجَوْزنيق أم اللوْزنيق؟

قال: لستُ أَحكم على غائب.

هشـام بن القاسم قال: جَمعني والفَرزدقَ مجلس فتجاهلتُ عليه، فقلتُ: مَن الكَهْل؟ قال: وما تَعرفني؟

قلت: لا؟

قال: أبو فِراس.

قلتُ: ومَن أبو فِراس؟

قال: الفرزدق.

قلت: ومَن الفرزدق؟

قال: وما تعرف الفرزدق؟

قلت: لا أعرف الفرزدق إلا شيئًا يفعله النساء عندنا يَتَشهَوْن به كهيئة السّويق.

قال: الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائكم يَتَشهَّوْن بي.

جواب في فخر:

قال الأبرش الكلبيّ لخالد بن صَفْوان: هَلُمّ أفاخرْك، وهما عند هشام بن عبد الملك.

قال له خالد: قُل.

فقال له الأبرش: لنا رُبع البيت - يُريد الرُّكن اليَمانيّ - ومنّا حاتم طيء، ومنا المُهلّب بن أبي صفرة.

فقال خالد بن صفوان: منّا النبيّ المُرسل، وفينا الكِتاب المنزل، ولنا الخليفة المُؤمّل.

قال الأبرش: لا فاخرتُ مُضريًّا بعدك.

ونـزل بأبـي العباس قوم مـن اليمن مـن أخواله من كَعـب، ففخروا عنده بقَديمهم وحَديثهم، فقال أبو العباس لخالد بن صَفوان: أجب القوم.

فقال: أخوال أمير المؤمنين.

قال: لا بد أن تقول.

قال: وما أقول يا أميرَ المُؤمنين لقوم هم بين حائك بُرد، ودابغ جِلْد، وسائِس قِرْد، مَلَكتهم امرأة، ودَلّ عليهم هُدهد، وغَرَّقتهم فأرة؟

فلم يَقُم بعدها ليمانيّ قائمة.

قال عبدُ الملك بن الحجّاج: لو كان رجل من ذهب لكُنْتُه.

قال له رجلٌ من قُريش: وكيف ذلك؟

قال: لم تَلِدْتي أمَة بيني وبين آدم ما خلا هاجَر.

فقال له: لولا هاجَر لكُنْت كَلْبًا من الكِلاب.

دخـل عمـر بن عُبيد الله بن مَعْمر على عبد الملـك بن مروان، وعليه حِبرَة صَدْأة عليها أثر الحمائل.

فقال له أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: يا أبا حَفْص، أي رجل أنت لو كنتَ من غير مَن أنت منه من قريش؟

قـال: ما أحب أني من غـير مَن أنا منه، إنّ منّا لسيـد الناس في الجاهلية عبـدَ الله بن جُدْعان، وسيّدَ الناس في الإسلام أبا بكر الصدّيق، وما كانت هذه يدي عندك، إني استنقذت أمهاتِ أولادك من عدوك أبي فُديك بالبحرين، وهُنّ

حَبالى، فولدن في حجابك.

قال عبدُالرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة، لمُعاوية: أما والله، لو كُنَّا بمكة على السواء، لعلمتَ!

قال مُعاوية: إذًا كنتُ أكون مُعاوية بن أبي سفيان، مَنْزلي الأبْطح، يَنشقّ عنّي سَيْلُه، وكنتَ عبدَ الرحمن بن خالد، منزلُك أَجياد، أعْلاه مَدَرَة، وأسفله عَذِرة.

قال أحمد بن يوسف الكاتب لمحمد بن الفَضل: يا هذا، إنّك تَتطاول بهاشم كأنك جمعتها، وهي تَعتدّ في أكثر من خمسة آلاف.

قال له محمد بن الفضل: إنَّ كثْرة عددها ليس يُخرج من عنقك فَضْل واحدها.

جاء في رسائل الجاحظ: يقول بعض البلغاء: اللحظ يعرب عن اللفظ.

وقال آخر: رب كناية تغني عن إيضاح، ورب لفظ يدل على ضمير.

ونظمه الشاعر، فقال:

جعلنا علامات المودّة بيننا ... دقائق لحظٍ هنّ أمضى من السّحر

فأعرف منها الوصل في لين لحظها ... وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

وفي هذا قال بعض الحكماء: العين باب القلب، فما في القلب ظهر في العين.

وقال الشاعر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبّة أو بغضٍ إذا كانا

فالعين تنطق والأفواه صامتة ... حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وقال المجنون:

كلانا مظهرٌ للناس بغضًا وكلٌّ عند صاحبه مكينُ

تبلغنا العيون بما أردنا وفي القلبين ثم هوىً دفينُ

نوادر وملح لبعض الأعراب:

خرج الحجاج متصيدًا بالبادية، فوقف على أعرابي يرعى إبلاً له.

فقال له: يا أعرابي، كيف رأيت سيرة أميركم الحجاج؟

قال له الأعرابي: غشوم ظلوم، لا حيّاهُ الله.

فقال: فلم لا شكوتموه إلى أمير المؤمنين عبدالملك؟

قال: فأظلم وأغشم.

فبينا هو كذلك إذا أحاطت به الخيل، فأومأ الحجاج إلى الأعرابي، فأخذ وحمل، فلما صار معه، قال: من هذا؟

قالوا له: الحجاج.

فحرك دابته حتى صار بالقرب منه، ثم ناداه: يا حجاج.

قال: ما تشاء يا أعرابي؟

قال: السر الذى بينى وبينك أحب أن يكون مكتومًا.

فضحك الحجاج ، وأمر بتخلية سبيله.

وخرج أبو العباس السفاح متنزهًا بالأنبار، فأمعن في نزهته، وانتبذ من أصحابه، فوافى خباءً لأعرابي.

فقال له الأعرابي: ممن الرجل؟

قال: من كنانة.

قال: من أي كنانة؟

قال: من أبغض كنانة إلى كنانة.

قال: فأنت إذن من قريش.

قال: نعم.

قال: فمن أي قريش ؟

قال: من أبغض قريش إلى قريش.

قال: فأنت إذن من ولد عبد المطلب.

قال: نعم.

قال: فمن أي ولد عبد المطلب؟

قال: من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب.

قال: فأنت إذن أمير المؤمنين، السلام عليك يا أمير المؤمنين، ووثب إليه فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة.

وولّى يوسف بن عمر الثقفي صاحب العراق أعرابيًّا على عمل له، فأصاب عليه خيانة، فعزله، فلما قدم عليه، قال له: يا عدو الله، أكلت مال الله؟

قال الأعرابي: فمال من آكل إذا لم آكل مال الله؟ لقد راودت إبليس أن يعطيني فلسًا واحدًا فما فعل. فضحك منه ، وخلى سبيله.

وأخذ الحجاج أعرابيًّا لصًّا بالمدينة، فأمر بضربه، فلما قرعه بسوط،

قال: يا رب، شكرًا، حتى ضربه سبعمائة سوط.

فلقيه أشعب، فقال له: تدرى لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟

قال: لماذا ؟

قال: لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧﴾ إبراهيم.

قال: وهذا في القرآن؟

قال: نعم.

فقال الأعرابى:

يا رب، لا شكرًا فلا تزدنى أسأت في شكري فاعفُ عني

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابيةٌ، ولها دجاجةٌ، وقد دجنت عندها فذبحتها، وجاءت بها إليه.

فقالت: يا أبا جعفر، هذه دجاجة لي، كنت أدجنها، وأعلفها من قوتي، وألمسها في آناء الليل، فكأنما ألمس بنتي زلت عن كبدي فنذرت الله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك، فأردت أن أدفنها فيه.

فضحك عبدالله بن جعفر، وأمر لها بخسمائة درهم.

وسمع أعرابي وهو يقول في الطواف: اللهم، اغفر لأمي.

فقيل له: مالك لا تذكر أباك؟

قال: أبي رجل يحتال لنفسه، وأما أمي فبائسة ضعيفة.

وقال أبو زيد: رأيت أعرابيًّا كأن أنفه كوز من عظمه ، فرآنا نضحك منه.

فقال: ما يضحككم؟ فوالله، لقد كنت في قوم ما كنت فيهم إلا أفطس.

وجيء بأعرابي إلى السلطان، ومعه كتاب قد كتب فيه قصته، وهو يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ الحاقة.

فقيل له: يقال هذا يوم القيامة.

قال: هذا والله، شر من يوم القيامة، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي.

واشترى أعرابي غلامًا، فقيل للبائع: هل فيه من عيب؟

قال: لا، إلا أنه يبول في الفراش.

قال: هذا ليس بعيب إن وجد فراشًا فليبلّ فيه.

ومر أعرابي بقوم، وهو ينشد ابنًا له، فقالوا له: صِفْهُ.

قال: كأنه دنينير.

قالوا: لم نَرَه.

ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي، وعلى عنقه جعل.

فقالوا: هذا الذي قلت فيه دنينير؟!

قال: القرنبي في عين أمها حسناء.

وقيل لأعرابي: ما يمنعك أن تغزو؟

قال: والله، إني لأ بغض الموت على فراشي ، فكيف أن أمضي إليه ركضًا؟

وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له، فلما كان ببعض الطريق قفل راجعًا يريد أهله، فلقيه ابن عم له، فسأله عن أهله ومنزله؟

فقال: اعلم أنك لما خرجت وكانت لك ثلاثة أيام وقع في بيتك الحريق.

فرفع الأعرابي يديه إلى السماء، وقال: ما أحسن هذا يا رب! تأمرنا بعمارة بيتك أنت، وتخرب بيوتنا.

وخرجت أعرابية إلى الحج، فلما كانت في بعض الطريق عطبت راحلتها، فرفعت يديها إلى السماء، وقالت: يا رب، أخرجتني من بيتي إلى بيتك، فلا بيتي ولا بيتك.

ونظر أعرابي إلى رجل سمين، فقال: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك.

أسئلة لمهارات الاتصال:

إنَّ قراءة هذه الأسئلة والإجابة عنها أيًّا كانت الإجابة التي يختارها القارئ، تنبئ عن المستوى المهاري الذي يتمتع به، ولعلَّ قراءة الكتاب، وما أثبتناه من نصوص في المهارات، من: الكتاب العزيز، والسنة الشريفة، ومن تراثنا العربي، تجعل قارئنا الكريم ينظر بوضوح، ويتأمّل بتدبر كلَّ كلمة من هذه الكلمات القيمة التي تضع أقدامنا على درجة أعلى من درجات المهارات، ونستطيع من خلالها أن نرتقي بمهاراتنا الدرجة التي تبلغنا أهدافنا.

مجموعة أسئلة في المهارات:

١- وصلتك رسالة من شخص فيها ذمٌّ وقدح لك، فكيف تردُّ؟

- ترد عليه برسالة مشابهة ☐
- تتريّث وتفكّر، ثم تجيبه برسالة لطيفة ☐
- ترد عليه برسالة تنصحه بترك هذه الأساليب ☐
- تهمله، ولا ترد عليه ☐

٢- عرَّض بك زميل في اجتماع عام، فكيف تجيبه؟

- تعرِّض به أيضًا ☐
- تهاجمه صراحة ودون مواربة ☐
- تبين صحّة موقفك دون إثارة ☐
- تسكت على مضض ☐

٣- أنت الرئيس، ونقل لك موظف أن أحد الموظفين ينال منك، فكيف تعمل؟

- تشجّع الموظف على هذا الفعل وتكافئه ☐
- تتخذ إجراءً حاسمًا ضد الآخر ☐
- تحقّق في الأمر ☐
- تجمعهما معًا وتواجههما ☐
- ترفض هذا الأسلوب ☐

٤- أخطأت في حقِّ منْ هو أقلُّ منك رتبةً، فكيف تتصرَّف؟

- تعتذر له ☐
- ترفض الاعتذار؛ كونه يقلِّلُ من مكانتك ☐
- تحاول تعويضه بمكافأة ☐

٥- كنتَ في مجلس، ووجه صاحبُ المجلس سؤالاً لغيرك، فماذا تصنع؟

- تجيب قبل السائل ☐
- تنتظر عدم إجابته وتجيب ☐
- تنتظر أن يوجَّه إليك السؤال فتجيب ☐

٦- جلست في انتظار شخص على موعد، فتأخر عليك، فكيف تتصرَّف؟

- هل تغادر؛ لعدم حرصه على الوفاء بالوعد ☐
- تنتظر مجيئه وتُظهر له الامتعاض ☐
- ترى الأمر عاديًا وتنشغل بقراءة أو استرجاع من الذاكرة ☐

٧- عند حضوره متأخرًا، ماذا يكون ردُّ فعلك؟

تجد له عذرًا ☐

توبّخه ☐

لا تكترث للأمر ☐

٨- ذهبت لزيارة صديق، فاعتذر عن استقبالك، كيف يكون شعورك؟

تُقسم ألا تزوره أبدًا ☐

تجد له عذرًا وتأخذ موعدًا آخر للزيارة ☐

تعطيه موعدًا، وتصنع معه الشيء نفسه؛ انتقامًا منه ☐

٩- دعيتَ لحفل يحضره مسؤولون كبار، وكنت من أول الداخلين إلى القاعة، فأين تجلس؟ ضع علامة صح أمام الإجابة التي تراها مناسبة:

في الصفوف الأمامية ☐

الصفوف الوسطى ☐

الصفوف الخلفية ☐

النقد الذاتي:

١٠- هل استطعت تحقيق هدفي لهذا اليوم، لهذا الشهر، لهذا العام؟

نعم ☐ لا ☐

إذا كان الجواب بالإيجاب، يستدعي السؤال الآتي:

١١- ما العوامل التي ساعدت على تحقيق الهدف؟

الجد والاجتهاد والمثابرة ☐

سهولة الهدف والوصول إليه ☐

مساعدة الآخرين ☐

طرق أخرى غير مشروعة ☐

١٢- إذا كان الجواب بالنفي يستدعي السؤال الآتي:

التقصير في الأداء ☐

بعض المعوِّقات الظرفية ☐

أشخاص يقفون في طريق نجاحي ☐

١٣- عوامل كثيرة تهدِّدُك بالفشل، فما الحل؟

المواجهة ☐

المراوغة ☐

الهروب ☐

١٤- ما الصعوبات التي تواجهك في الاستماع، وتركيز الانتباه؟

الانشغال النفسي ☐

الإرهاق الجسدي ☐

مرض عضوي ☐

التشويش ☐

أمور أخرى اذكرها..... ☐

١٥- هل تستطيع ضبط مشاعرك الإيجابية أو السلبية تجاه محدثك؟

نعم ☐ لا ☐ أحيانا ☐

١٦- هل تقبل على محدِّثَكَ بوجهكَ وفكرك ومشاعرك؟

نعم ☐ لا ☐ أحيانًا ☐

١٧- هل تقاطع محدِّثَكَ قبل إنهاء فكرته؟

نعم ☐ لا ☐ أحيانًا ☐

١٨- هل تظهر رغبةً في الاستماع لمحدِّثك؟

نعم ☐ لا ☐ أحيانًا ☐

١٩- ما الأسلوب الذي تتبعه في ضبط ما تسمع؟

أُركِّزُ في المسموع ☐

أكتب النقاط الرئيسة ☐

أنصرف عن الشواغل ☐

من خلال الأسئلة، ومن خلال إجاباتك، اكتب موضوعًا لا يزيد عن خمسة عشر سطرًا في مهارة الاستماع.

٢٠ ـ ما قيمة القراءة في نظرك؟

عالية ☐ متوسطة ☐ متدنية ☐

٢١- هل للقراءة أثر في القارئ؟

إيجابي ☐ سلبي ☐ بين بين ☐

٢٢- كم ساعة تقرأ يوميًّا في التخصص؟

ساعتان ☐ ٣ ساعات ☐ ٤ ساعات ☐

٢٣- كم ساعة تقرأ قراءة حرَّة؟

لا أقرأ ☐ قليل ☐ ساعة ☐ أكثر ☐

٢٤- ما الطريقة التي تفضِّلها في القراءة؟

الجهرية ☐ الصامتة ☐ الغمغمة ☐

٢٥- ما أفضل الأوقات التي تحبِّذها للقراءة؟

بعد الفجر ☐ النهار ☐ آخر الليل ☐

٢٦- ما أفضل الأماكن لديك للقراءة؟

المكتبة ☐ الغرفة الخاصة ☐ الهواء الطلق ☐

٢٧- ما الحالة التي تفضلها في أثناء القراءة؟

الجلوس على المكتب ☐ الجلوس على الأرض ☐ السير ☐

٢٨- لماذا أتعلَّم؟

رغبةً في العلم ☐

مباهاة ☐

للوظيفة ☐

٢٧- العلم يحتاج إلى:

الصبر ☐

المال ☐

الذكاء ☐

٢٨- لا أستطيع الصبر على طلب العلم، أريد وسيلة سهلة:

المذكرات المختصرة ☐

المساعدة ☐

الغش ☐

٢٩- لا أحتاج إلى العلم:

مركز والدي المالي ☐

مركز والدي الاجتماعي ☐

البحث عن المال أفضل ☐

٣٠ ـ هل (عملت، عملنا) ما يكفي للوصول إلى الهدف؟

نعم ☐ لا ☐

٣١- هل أسهمت مع المجموعة بفاعلية كي تحرز الهدف؟

نعم ☐ لا ☐

٣٢- ما المشكلات التي (واجهتني، واجهتنا) في أثناء الوصول إلى الهدف؟

الخطة ☐

الإدارة ☐

بيئة العمل ☐

مشكلات طارئة ☐

٣٣- هل (أتممت، أتممنا) تنفيذ الخطة المرسومة بدقة؟

نعم ☐ لا ☐

٣٤- هل (استطعت، استطعنا) مواجهة التحديات؟

نعم ☐ لا ☐

٣٥- هل الترتيبات المتخذة كافية؟

نعم ☐ لا ☐

٣٥- هل (المنفِّذ، المنفِّذون) كانوا على دراية كافية بموضوعهم ؟

نعم ☐ لا ☐

٣٦- هل نجحت الخطة بكل تفصيلاتها؟

نعم ☐ لا ☐ بعض تفصيلاتها ☐

٣٧- لو (سرت، سرنا) بخطة أخرى (أقلِّل، نقلِّل) من نسبة الفشل:

نعم ☐ لا ☐

٣٨- هـل كان (باستطاعتـي، باستطاعتنـا) إحداث بعض التغيـيرات لضمان نجاح الخطة، من خلال:

الخطة ☐

الأهداف ☐

القرارات ☐

الأدوات ☐

٣٩- هل (أستطيع، نستطيع) إنجاز مشروعنا في الزمن المحدَّد؟

نعم ☐ لا ☐

٤٠- ما المصادر التي (تعينني، تعيننا) في أداء (مهمتي، مهمتنا) بنجاح؟

التمويل ☐

الإشراف المتميز ☐

الحوافز ☐

نبل الأهداف ☐

٤١- ما الأدوات التي تعينني في تطوير نفسي؟

مراجعة المعلومات ☐

االتدريب الإضافي مع المختصين ☐

الدورات القصيرة ☐

٤٢- هل المطلوب أن نتكلم أكثر مما نسمع؟

نعم ☐ لا ☐

٤٣- كنت تعرف جواب المسألة:

تسأل؛ ليكون لك الظهور ☐

تسأل وتجيب في الوقت نفسه ☐

تمتنع عن السؤال لمعرفتك الجواب ☐

٤٤- سؤال دقيق التخصص ولا يتعلق بتخصصك:

تسأل على الرغم من أنك لن تصل إلى فهمه ☐

تسأل وتطلب شرحًا ميسرًا ☐

لا تسأل، فالموضوع أكثر دقة وتعقيدًا مما تتصوَّر ☐

٤٥- إذا وجدت من تريد سؤاله مشغولاً أو مهمومًا:

تقتنص الفرصة وتعرض سؤالك ☐

تلح في السؤال وتصر على الجواب ☐

تستأذنه في الوقت المناسب له للسؤال ☐

٤٦- لو سئلت سؤالاً، والسائل لا يستطيع فهم الجواب:

هل تجيبه، وتشرح له الأمر ☐

تُعرض عنه وتُهمله ☐

تعدل عن الجواب إلى جواب شيءٍ تفهمه ☐

٤٧- يحدِّثك محدثك بحديث:

تُصغي إليه وتُقبل عليه ☐

تُكثر التلفُّت والحركة والانشغال ☐

لا تمهله، وتقطع حديثه ☐

٤٨- شخص يتصل بك في وقت غير مناسب:

تقطع الاتصال معه بحدة ☐

تصبر عليه، وتسمع مقالته خجلاً ☐

تبين له عدم مناسبة الوقت بأدب ☐

٤٩- تتابع ندوة من الندوات:

تعتمد على ذاكرتك في تذكر الملحوظات ☐

تدون هذه الملحوظات بإيجاز ☐

تهمل كل ذلك ☐

٥٠ ـ لديك مقابلة مهمة:

تهتم بأناقتك ومظهرك وتبالغ في ذلك ☐

تهمل هذا الأمر؛ لأن الرجل مخبر لا مظهر ☐

تعتدل في ذلك، وتتوسط ☐

المصادر والمراجع:

- أدب الخواص للوزير المغربي، إعداد حمد الجاسر، دار اليمامة بالرياض ١٩٨٠م.
- أدب الكاتب لابن فتيبة الدينوري، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الرابعة، ١٣٨٢هـ /١٩٦٣م.
- الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع.
- الاتصال الجماهيري لصالح خليل أبو إصبع، دار الشروق، الطبعة الأولى، عمان ١٩٩٩م.
- أثر مشاهدة التلفزيون على عادة القراءة عند الأطفال، د. راشد الفضلي، وزارة المعارف السعودية، كلية المعلمين بالدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٣م.
- الآثار النفسية والاجتماعية للتلفزيون العربي، د. عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- الأطفال في التراث العربي جمع وتقديم د. عبد الرزاق حسين، نشر إدارة الثقافة بجامعة الإمام بالرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، طبعة بولاق ١٢٨٥هـ.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.
- بهجة المجالس لابن عبد البر القرطبي، تحقيق د. محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، الدار المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٦م.
- التذكرة الحمدونية لابن حمدون النديم، تحقيق د. إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت، والدار العربية للكتاب، طرابلس- تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل- بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمد رأفت سعيد،مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي،دار الشعب بمصر.
- حماسة أبي تمام، تحقيق د. عبد الله العسيلان، مطابع جامعة الإمام بالرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٦هـ/ ١٩٨٣م.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق د. محمد عبده عزام.
- ديوان جميل بن معمر، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصر.
- ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، دار الكتب المصرية، دار المعارف ١٩٦٤م.
- ديوان امرئ القيس تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.
- ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، بالقاهرة.
- ديوان بشار بن برد، جمع السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

- ديـوان طرفة بـن العبد، تحقيق لطفـي الصقال ودرية الخطيـب، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.
- ديـوان الغزي تحقيق د. عبد الرزاق حسين، طبـع مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- ديوان المجنون، تحقيق عبد السلام فراج، دار مصر للطباعة.
- زهـر الآداب وثمـر الألبـاب للحصـري، تحقيـق علـي البجـاوي، القاهـرة، ١٩٥٣م.
- سـر الفصاحـة لابن سنـان الخفاجي، دار الكتـب العلمية، بـيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- سيكولوجية الاتصال للدكتور محمد حسن عبد الله.
- الشعـر العربي الحديث ١٨٠٠- ١٩٧٠ تطـور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، ترجمة د. شفيع السيد والدكتور سعد مصلوح، طبع دار الفكر العربي، القاهرة.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م.
- الشعـور بالعـور للصفدي، تحقيق د. عبـد الرزاق حسـين، دار عمار، عمان- الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية.
- صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، ١٩٨١م.
- صحيح مسلم، دار الطباعة، العامرة، ١٣٢٩هـ.
- طـراز الحلة وشفاء الغلة لأبي جعفر الرعينـي، تحقيق رجاء الجوهري، نشر مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، مكتبة الرياض الحديثة.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٧٢م.
- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، دراسة وتحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٠م.
- عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، شرح د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- فن النثر المتجدد، د. عبد الرزاق حسين، مؤسسة المختار القاهرة، ودار المعالم بالأحساء، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.
- القاموس المحيط للفيروزابادي، المطبعة المصرية، الطبعة الثالثة،١٩٣٥م.
- قضايا أدبية عامة، آفاق جديدة في نظرية الأدب، تأليف إيمانويل فريس وبرنار موراليس، ترجمة د. لطيف زيتوني، عالم المعرفة رقم ٣٠٠ لعام ٢٠٠٤م، الكويت.
- كتاب التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت،الطبعة الأولى، ١٤٠٥- تحقيق: إبراهيم الإبياري.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الحلبي.
- كتاب المصنَّف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- كيف ترفع مهاراتك الإدارية في الاتصال لأحمد ماهر.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.

- اللغة والتواصل الاجتماعي للدكتور فتحي يونس وآخرين.
- مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
- المحاسن والمساوئ للبيهقي، دار صادر، بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
- محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني.
- المستطرف في كل فن مستظرف للإبشيهي، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- المستقصى في الأمثال للزمخشري، حيدر أباد بالهند ١٩٦٢م.
- المصون في الأدب للعسكري، تحقيق عبد السلام هارون، دائرة المطبوعات والنشر بالكويت ١٩٦٠م.
- معجم الأمثال العربية، جمع عبد الحميد مراد، طبع إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام بالرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٣م.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني،الناشر: مكتبة العلوم والحكم – الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣ تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المنتخب والمختار في النوادر والأشعار لابن منظور، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٤م.
- الكتابة بين الموضوع والفن، د. عبد الرزاق حسين، مكتبة المتنبي، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- المهارات اللغوية ماهيتها وطرائقها لأحمد فؤاد عليان.
- المهارات الأساسية في اللغة العربية للدكتور سميح أبو مغلي ومصطفى الفار.

- مهـارات وإستراتيجيـات القراءة المعينـة على فهم المسائـل اللفظية في مادة الرياضيات مجلة جامعة الملك سعود لعام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م مجلد١٥.
- المثـل السائـر في أدب الكاتـب والشاعر أبـي الفتح ضياء الديـن نصر الله بن محمد بن محمد بـن عبدالكريم الموصلي الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.
- نـثر الدر للآبي، تحقيق محمد قراعة، وعلي البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٨٠م.
- نصرة الثائر على المثل السائر لصلاح الدين الصفدي.
- نهاية الأرب للنويري، دار الكتب ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م
- النهايـة في غريـب الحديث والأثر لابـن الأثير، تحقيق د. محمـود الطناحي وطاهر الزواوي، مطبعة الحلبي، مصر.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨م.